[القسم الأول]

فقه الأدعية والأذكار

بقلم
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طُبِع على نفقة بعض المحسنين
جزاه الله خيرًا وأعظم له المثوبة

دار ابن عفان
للنشر والتوزيع

[القسم الأول]

فقه الأدعية والأذكار

بقلم

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طُبع على نفقة بعض المحسنين

جزاه الله خيراً وأعظَم له المثوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء

مكتب المفتي العام

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة الابن الكريم صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن بن حمد العباد البدر وفقه الله لكل خير وزاده من العلم والإيمان، آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فقد وصلني كتابكم الكريم وصلكم الله بحبل الهدى والتوفيق، وما أشرتم إليه حول ما وفقكم الله له من القيام ببرنامج نافع للمسلمين وهو « **فقه الأدعية والأذكار** » كان معلوماً، وقد اطلعت على جملة من ذلك فسررت بها كثيرا لما تضمنته من شرح الأدعية والأذكار، وبيان فوائدها ومعانيها وما ورد فيها من الآيات والأحاديث، وجملة ما اطلعت عليه خمسة وخمسون موضوعاً، آخرها الكلام على كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله، والذي أوصيكم به هو طبع ما تمَّ من ذلك ونشره بين الناس ليعمَّ النفع به مع مواصلة الجهود والعمل في هذا البرنامج المفيد النافع للمسلمين، ضاعف الله مثوبتكم وأمدَّكم بعونه وتوفيقه، ونفع بجهودكم جميع المسلمين، إنَّه سميع قريب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مفتي عام المملكة العربية السعودية

ورئيس هيئة كبار العلماء وإدراة البحوث العلمية والإفتاء

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّداً عبده ورسوله.

{يَأَيّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُمْ مُسْلِمُونَ}.

{يَأَيُّهَا النَّاسُ اتّقُوا رَبّكمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً واتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}.

{يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكمْ ويَغْفِرْ لَكمْ ذُنوبَكُمْ ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً}.

أمَّا بعد: فلا ريب أنَّ ذِكر الله ودعاءه هو خير ما أُمضيت فيه الأوقات وصُرفت فيه الأنفاس، وأفضل ما تقرّب به العبدُ إلى ربّه سبحانه وتعالى، وهو مفتاحٌ لكلِّ خير يناله العبد في الدنيا والآخرة

« فمتى أعطى (الله) العبدَ هذا المفتاح فقد أراد أنْ يفتح له، ومتى أضلَّه بقي باب الخير مُرْتَجاً دونه »(١) فيبقى مضطربَ القلب، مُشَوَّشَ الفؤاد، مُشَتَّتَ الفِكر، كثيرَ القلَقِ، ضعيفَ الهِمَّةِ والإرادةِ، أمّا إذا كان محافظاً على ذِكر الله

(١) الفوائد لابن القيم (ص:١٢٧).

ودعائه وكثرةِ اللجأ إليه فإنَّ قلبَه يكون مطمئناً بذكره لربِّه {**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**}[١]، وينال من الفوائد والفضائل والثمار الكريمة اليانعة في الدنيا والآخرة ما لا يحصيه إلاَّ الله تعالى.

فذِكر إلَـهِ العـرشِ سرًّا ومعلناً يُزِيلُ الشَّقَا والهَمَّ عنك ويَطـردُ
ويجلُبُ للخيراتِ دنيا وآجِلاً وإنْ يأتِك الوَسواسُ يوماً يُشَرَّدُ
فقد أخبَر المختارُ يوماً لصحبِه بأنَّ كثيرَ الذِّكرِ في السَّبق مُفرِدُ
ووَصَّى معاذاً يَستَعينُ إلهه على ذكرِه والشكر بالحسن يعبدُ
وأوصى لشخصٍ قد أتى لنصيحةٍ وقد كان في حمْل الشرائِع يَجْهَدُ
بأنْ لا يزالَ رطباً لسانُك هذه تُعينُ على كلِّ الأمورِ وتُسعِدُ
وأخبَرَ أنَّ الذِكرَ غَرسٌ لأهلِه بجنَّاتِ عَدن والمساكنُ تُمْهَدُ
وأخبَر أنَّ الله يذكرُ عبدَهُ ومَعْهُ على كلِّ الأمورِ يُسَدِّدُ
وأخبَر أنَّ الذِّكرَ يبقى بجنّة ويَنقطعُ التَّكليفُ حين يُخلَّدُوا
ولو لَم يكنْ في ذِكره غيرَ أنَّه طريقٌ إلى حبِّ الإلَه

(١) سورة الرعد، الآية: (٢٨).

ومُرشِدُ

ويَـنـهَى الفتَى عن غِيبةٍ ونَميمةٍ وعـن كـلِّ قـولٍ لـلـدِّيـانـةِ مُفـسِدُ

لـكـان لـنَا حَـظٌّ عـظيمٌ ورغبةٌ بـكـثـرةِ ذكـرِ الله نـِعـمَ الـمُـوَحَّدُ

ولـكـنَّـنَـا مـن جَـهلِنـا قـلَّ ذِكـرُنا كـمـا قـلَّ مـِنَّـا لـلإلَـه التَّـعـبُّدُ(١)

ولهذا فإنَّ الأذكارَ الشرعية والأدعية النبويّة لها منزلةٌ عاليةٌ في الدِّين، ومكانةٌ خاصّةٌ في نفوس المسلمين، وكُتُبُ الأذكار على تنوُعها تلقى في أوساطهم اهتماماً بالغاً وعنايةً فائقةً، ولا يمكن إحصاءُ ما كتبه أهلُ العلم قديماً وحديثاً في الذّكر والدعاء لكثرة ما أُلِّف في ذلك، فمنهم الراوي الأخبارَ بالأسانيد، ومنهم الحاذف لها، ومنهم المطوِّل المسهب، ومنهم المختصِر والمتوسِّط والمهذِّب، مع تفاوت بينهم في جمع النصوص، وعرض الأدلة، وطرق تبويبها وتصنيفها، والاهتمام بشرحها وتوضيحها، إلى غير ذلك.

ناهيك أنَّ أهل الأهواء لهم في هذا الباب مؤلّفات كثيرة مشتملة على الشططِ والانحراف والبعدِ عن الحقِّ، بسبب عدم تقيّد مؤلِّفيها بالسنة وإعراضهم عن الالتزام بالمأثور.

(١) ناظم هذه الأبيات هو الشيخ العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله.

هذا وقد دلَّ الكتابُ والسنَّةُ وآثارُ السلف على جنس المشروع والمستحبِّ في ذِكر الله ودعائه كسائر العبادات، وبيَّن النبيُّ ﷺ لأمّته ما ينبغي لهم أن يقولوه من ذِكر ودعاء في الصباح والمساء، وفي الصلوات وأعقابها، وعند دخول المسجد، وعند النوم، وعند الانتباه منه، وعند الفزع فيه، وعند تناول الطعام وبعده، وعند ركوب الدابَّة، وعند السفر، وعند رؤية ما يحبّه المرء، وعند رؤية ما يكره، وعند المصيبة، وعند الهمِّ والحزن، أو غير ذلك من أحوال المسلم وأوقاته المختلفة.

كما بيّن صلوات الله وسلامه عليه مراتب الأذكار والأدعية وأنواعَها وشروطَها وآدابها أتمَّ البيان وأكمله، وترك أمَّته في هذا الباب وفي جميع أبواب الدين على محجّة بيضاء، وطريق واضحة، لا يزيغ عنها بعده إلاَّ هالك، و « لا ريب أنَّ الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحرّاه المتحرِّي من الذّكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبِّر عنه لسان، ولا يحيط به إنسان، وما سواها من الأذكار قد يكون محرَّماً، وقد يكون مكروهاً، وقد يكون فيه شرك ممَّا لا يهتدي إليه أكثرُ الناس، وهي جملة يطول تفصيلها »[1].

فالمشروع للمسلم هو أن يذكرَ الله بما شرع، وأن يدعوَ بالأدعية المأثورة، وقد نهى الله عن الاعتداء في الدعاء، فينبغي لنا أن نتبّع فيه ما شُرع وسنَّ، كما أنَّه ينبغي لنا ذلك في غيره من العبادات، وأنْ لا نعدل عن ذلك

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٢/ ٥١١،٥١٠).

إلى غيره « ومن أشدِّ الناس عيباً من يتّخذ حزباً ليس بمأثور عن النبي ﷺ وإن كان حزباً لبعض المشايخ، ويَدَعُ الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيِّد بني آدم، وإمام الخلق وحجّة الله على عباده »[١]، فالخير كلُّه في اتباعه، والاهتداء بهديه، وترسُّم خطاه، فهو القدوة والأسوة صلوات الله وسلامه عليه، وقد كان أكملَ الناس ذِكراً لله وأحسنَهم قياماً بدعائه سبحانه.

ولهذا فإنَّه إذا اجتمع للعبد في هذا الباب لزومُ الأذكار النبوية والأدعية المأثورة مع فهم معانيها ومدلولاتها، وحضورِ قلبٍ عند الذِّكر فقد كمل نصيبُه من الخير.

قال ابن القيّم رحمه الله: « وأفضل الذِّكر وأنفعُه ما واطأ القلبُ اللسانَ، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذّاكر معانيه ومقاصده »[٢].

ولَمّا كان الأمر بهذه المنزلة وعلى هذا القدر من الأهمية نشأ عندي رغبةٌ في أنْ أعدَّ وأقدِّم ـ مع الاعتراف بالعجز وعدم الأهلية ـ دراسةً في الأذكار والأدعية النبوية في بيان فقهها وما اشتملت عليه من معان عظيمة، ومدلولات كبيرة، ودروس جليلة، وعِبرة مؤثِّرة، وحِكم بالغة، واجتهدتُ في جمع كلام أهل العلم في ذلك، فاجتمع عندي من ذلك بحمد الله فوائدُ كثيرةٌ ولطائفُ عديدةٌ وتنبيهاتٌ دقيقةٌ من كلام أهل العلم المحقّقين، ولا سيما الإمامين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، ثمَّ نظَّمتُ ما اجتمع عندي من ذلك وألّفتُ بينه، وجعلته بعنوان:

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٢/ ٥٢٥).

(٢) الفوائد لابن القيم (ص:٢٤٧).

« فقه الأدعية والأذكار »

وقد أُذيع جزءٌ كبير منه في حلقات عبر الإذاعة المباركة، إذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية ـ حرسها الله ـ ولا يزال مستمرًّا عرضُه حتى الآن، وقد رغِب غيرُ واحد من مشايخي وإخواني أن أقوم بنشره مطبوعاً ليتنوّع مجالُ نفعه، ولتكثر فائدته، فأجريت عليه تعديلات يسيرة في أسلوبه ليكون مناسباً للنشر، وجعلتُ لكلِّ حلقة عنواناً خاصاً يدلُّ على مضمونها، ويُرشد إلى موضوعها، وسوف يصدر ـ بإذن الله ـ في مجموعات متناسبة الحجم والموضوع، وهذا هو القسم الأول منه، وإني لأرجو الله الكريم أن يتقبَّل مني هذا العمل وسائر أعمالي، وأن يُبارك فيه، وأن يجعله نافعاً لعباده المسلمين، فهو سبحانه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا نِعم الوكيل.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدّم بالشكر الجزيل لسماحة الوالد الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله تعالى، الذي تفضَّل مشكوراً بقراءة هذا الكتاب والتعليق عليه[1] والتقديم له على كثرة أعماله، وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في موازين حسناته وأن يجزيه عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء، إنَّه سميع مجيب.

وكتب: عبد الرزاق البدر
غفر الله له، وعفا عنه، ورحمه،
ووالديه وجميع المسلمين.

---

(١) وقد جعلتُ تعليقاته حفظه الله بين معقوفين [ ] في داخل المتن.

١ / أهمّيّةُ الذِّكر وفضله

غيرُ خافٍ على كلِّ مسلم أهميّةُ الذكر وعظيمُ فائدته؛ إذ هو من أجلِّ المقاصد وأنفع الأعمال المقرِّبة إلى الله تعالى، وقد أمر الله به في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، ورغّب فيه، ومدح أهله وأثنى عليهم أحسن الثناء وأطيبه.

يقول الله تعالى: {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً**}(١)، ويقول تعالى: {**فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً**}(٢)، ويقول تعالى: {**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**}(٣)، ويقول تعالى: {**وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**}(٤).

فأمر تعالى في هذه الآيات بذكره بالكثرة، وذلك لشدّة حاجة العبد إلى ذلك وافتقاره إليه أعظم الافتقار، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأيُّ لحظة خلا فيها العبدُ عن ذِكر الله ﷻ كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظمَ ممّا ربح في غفلته عن الله، وندم على ذلك ندماً شديداً عند لقاء الله يوم القيامة.

بل لقد ثبت عن النبي ﷺ كما في شعب الإيمان للبيهقي، والحلية لأبي

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٤١).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٠٠).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٩١).

(٤) سورة الأحزاب، الآية: (٣٥).

نعيم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّه قال: « ما من ساعة تمرُّ بابن آدم لا يذكر الله تعالى فيها إلاّ تحسّر عليها يوم القيامة »(١).

والسُّنّةُ مليئةٌ بالأحاديث الدّالة على فضل الذّكر، ورفيع قدره، وعلوِّ مكانته، وكثرةِ عوائده وفوائده على الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات.

فقد أخرج الترمذي، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذّهبي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ألا أنبِّئُكم بخير أعمالِكم، وأزكاها عند مَليكِكم، وأرفعها في درَجاتِكم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهبِ والورِق، وخيرٌ لكم من أن تلقَوا عدوَّكم فتضرِبوا أعناقَهم ويضربوا أعناقَكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله »(٢).

وروى مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنّه قال: « سبق المُفرِّدون، قالوا: وما المُفرِّدون يا رسول الله؟ قال: الذّاكرون الله كثيراً والذّاكرات »(٣).

وروى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « مَثلُ الذي يذكُرُ ربَّه والّذي لا يذكرُ ربّه مثَلُ الحيِّ والميِّت »(٤).

(١) شعب الإيمان (رقم:٥٠٨)، الحلية (٥/ ٣٦٢)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٥٧٢٠).

(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٣٧٧)، سنن ابن ماجه (٣٧٩٠)، والمستدرك (١/ ٤٩٦)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٢٦٢٩).

(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٦٧٦).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٧).

والأحاديث في هذا الباب كثيرةٌ، ولعلّ من المناسب هنا والحديث ماضٍ بنا في فضل الذكر أن ألخِّص بعض ما ذكره أهلُ العلم من فوائد لذكر الله تعالى يَجنيها الذّاكرون في حياتهم الدُّنيا ويوم القيامة،

ومن أحسن من رأيتُه تكلَّم في هذا الموضوع وجمع أطرَافَه، ولمَّ شَتاتَه الإمامُ العلاّمةُ ابن القيِّم رحمه الله في كتابه العظيم الوابل الصيِّب من الكَلِمِ الطيِّب، وهو مطبوعٌ طبعاتٌ كثيرةٌ، ومُتَداوَلٌ بين أهل

العلم وطلاّبه، فقد قال رحمه الله في كتابه المذكور(١): وفي الذِّكر

أكثرُ من مائة فائدة ...، ثمّ أخذ يعدِّد فوائد الذِّكر، فذكر ما يزيد

على السبعين فائدة، كلُّ واحدة منها بمفردها كافيةٌ لحفز النُّفوس وتحريك الهِمم للاشتغال بالذِّكر، كيف وقد اجتمعت تلك الفوائد الكُثار والعوائد الغِزار، والأمر فوق ما يصفه الواصفون، ويعدُّه

العادُّون {**فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**}(٢).

ولعلّي أذكر لك أخي المسلم هنا فائدةً واحدةً من فوائد الذِّكر مما ذكره رحمه الله، على أن أستكمل لك بعض هذه الفوائد إن شاء الله، مع وصيَّتي لك باقتناء الكتاب المذكور والانتفاع به، فهو حقًّا كتابٌ عظيم النَّفع، كبيرُ الفائدة.

---

(١) (ص:٨٤).

(٢) سورة السَّجدة، الآية: (١٧).

ـ فمن فوائد الذِّكر: أنّه يطردُ الشيطان ويقمعُه ويكسِرُه[١]، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[٢]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[٣].

وثبت في مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذي، ومستدرك الحاكم وغيرها بإسناد صحيح، من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنّه قال: « إنّ اللهَ سبحانه أمر يحيى بن زكريّا بخمس كلمات، أن يعمل بها، ويأمُرَ بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنّه كاد أن يُبطّئ بها، فقال له عيسى عليه السلام: إنّ الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمُرَ بني إسرائيل أن يعملوا بها فإمّا أن تأمرهم وإمّا أن آمُرَهم. فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسفَ بي أو أعذب، فجمع النّاسَ في بيت المقدس، فامتلأ المسجد، وقعدوا على الشُّرَف، فقال: إنّ اللهَ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهنَّ وآمرَكم أن تعملوا بهنَّ ... »[٤].

فذكر أمرَهم بالتوحيد، والصلاة، والصيام، والصّدقة، ثمّ ذكر الخامسةَ فقال: « وآمُرُكم أن تذكروا اللهَ، فإنّ مَثَلُ ذلكَ كمَثَلِ رجُلٍ خرج العدوُّ في أثرِه سراعاً حتى إذا أتى على حِصنٍ حصينٍ فأحرز نفسَه منهم، كذلك العبدُ لا يحرزُ نفسَه من الشَّيطان إلاّ بذكر الله تعالى ... »، إلى آخر هذا الحديث

(١) انظر: الوابل الصيّب (ص:٨٤).
(٢) سورة الزُّخرف، الآية: (٣٦).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (٢٠١).
(٤) المسند (٢٠٢/٤)، سنن الترمذي (رقم:٢٨٦٣)، المستدرك (١١٧/١، ١١٨، ٤٢١)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:١٧٢٤).

العظيم.

وقد وصفه العلاّمةُ ابن القيِّم رحمه الله بأنَّه حديث عظيمُ الشَّأن، وينبغي لكلِّ مسلم حِفظُهُ وتعقُّلُه[(١)].

فهذا الحديث مشتملٌ على فضيلةٍ عظيمةٍ للذِّكر، وأنّه يطرُد الشيطان، ويُنجي منه، وأنّه بمثابَة الحِصن الحصين والحِرز المكين الّذي لا يحرزُ العبدُ نفسَه من هذا العدوِّ اللّدود إلاّ به، وهذه ولا ريب فضيلة عظيمة للذِّكر؛ ولهذا يقول ابن القيّم رحمه الله: « فلو لم يكن في الذّكر إلاّ هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتُرَ لسانُه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهِجا بذكره، فإنّه لا يحرز نفسه من عدوِّه إلاّ بالذِّكر، ولا يدخل عليه العدوُّ إلاّ من باب الغفلة، فهو يرصُدُه، فإذا غفل وثب عليه وافترسَه، وإذا ذكرَ اللهَ تعالى انخنس عدوُّ الله وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع وكالذّباب، ولهذا سُمِّيَ (الوسواسُ الخنَّاس)، أي: يوسوس في الصدور فإذا ذكرَ الله تعالى خنس أي كفَّ وانقبضَ.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الشَّيطان جاثِمٌ على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنَس »[(٢)].

فنسأل الله تعالى أن يعيذنا من شرِّ الشيطان وشِركِه، ومن همزِه ونَفخِه ونفثِه، إنّه سميعٌ مجيبٌ قريبٌ.

---

(١) الوابل الصيّب (ص:٣١).

(٢) الوابل الصيب (ص:٧٢).

۞۞۞

٢ / مِن فوائد الذِكر

لايزال الحديث موصولاً في بيان فوائد الذّكر، وقد مرَّ معنا فيما سبق ذكرُ فائدةٍ واحدةٍ له وهي: أنّه حِرزٌ لصاحبه من الشيطان، فمن خلى من الذّكر لازمه الشَّيطان ملازمة الظِّلِّ، والله يقول: {**وَمَن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**}(١) ولا يستطيع العبدُ أن يُحْرِزَ نفسه من الشيطان إلاّ بذكر الله تعالى، وهذه فائدةٌ جليلةٌ من فوائد الذّكر العديدة.

وكما مرَّ بنا فإنّ الإمام العلاّمة ابن القيِّم رحمه الله عدّ في كتابه القيِّم الوابلُ الصّيِّب ما ينيف على السَّبعين فائدة للذّكر، ونستكمل هنا بعضَ تلك الفوائد العظيمة، ممّا أورده رحمه الله في كتابه المُشار إليه آنفا(٢).

ـ فمن فوائد ذكر الله العظيمة: أنّه يجلُبُ لقلب الذَّاكر الفرَحَ والسرورَ والرَّاحةَ، ويورثُ القلبَ السكونَ والطُّمأنينةَ، كما قال الله تعالى: {**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ**}(٣)، ومعنى قوله تعالى: {**وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ**} أي: يزول ما فيها من قلقٍ أو اضطراب، ويكون فيها بدَلَ ذلك الأنسُ والفرحُ والرَّاحة، وقوله: {**أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ**} أي: حقيقٌ بها وحَرِيٌّ أن لا تطمئنَّ لشيءٍ سوى ذكره تبارك وتعالى.

بل إنّ الذكرَ هو حياةُ القلب حقيقةً، وهو قوتُ القلب والرّوح، فإذا

(١) سورة الزخرف، الآية: (٣٦).

(٢) وانظر: الوابل الصيب (ص:٨٤ ـ ١٠٠) و(ص:١٤٥).

(٣) سورة الرعد، الآية: (٢٨).

فقده العبدُ صار بمنزلة الجسم إذا حيلَ بينَه وبين قوتِه، فلا حياةَ للقلب حقيقةً إلاّ بذكر الله، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « الذِّكرُ للقلب مثلُ الماء للسَّمك، فكيف يكون حالُ السَّمك إذا فارق الماء »(١).

ـ ومن فوائد ذكر العبد لِلَّه: أنّه يورثُه ذكرَ الله له، كما قال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}(٢).

وفي الصّحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربِّه تبارك وتعالى: « من ذكرَني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم »(٣).

ـ ومن فوائده: أنّه يحطُّ الخطايا ويُذهبُها، ويُنجّي الذّاكرَ من عذاب الله، ففي المسند عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : « ما عمل آدميٌّ عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله تعالى »(٤).

ـ ومن فوائد الذِّكر: أنّه يترتّبُ عليه من العطاء والثّواب والفضل ما لا يترتَّبُ على غيره من الأعمال، مع أنَّه أيسرُ العبادات؛ فإنَّ حركة اللسان أخفُّ حركات الجوارح وأيسرُها، ولو تحرّك عضو من الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشقّ عليه غاية المشقّة، بل لا يمكنُه ذلك، ومع هذا فالأجور المترتِّبة عليه عظيمةٌ والثّوابُ جزيلٌ.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «

---

(١) انظر: الوابل الصيب لابن القيم (ص:٨٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٥٢).

(٣) صحيح البخاري (رقم:٧٤٠٥)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٧٥).

(٤) المسند (٥/ ٢٣٩)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم٥٦٤٤).

من قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ في يومٍ مائة مرّة كانت له عدلُ عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيِّئة، وكانت له حِرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضل ممّا جاء به إلاّ رجلٌ عمل أكثر منه »(١).

وفي الصّحيحين أيضاً عن النبي ﷺ أنّه قال: « من قال سبحان الله وبحمده في يومٍ مائة مرّة حُطَّت خطاياه وإن كانت مثل زَبَدِ البحر »(٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لأَن أقول سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر أحبُّ إليَّ ممّا طلعت عليه الشّمسُ »(٣)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ـ ومن فوائد الذِّكر: أنّه غِراسُ الجنَّة، فالجنّة كما جاء في الحديث قيعانٌ، وهي طيِّبةُ التُّربة، عذبة الماء، وغِراسُها ذكرُ الله، فقد روى الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لقيتُ ليلةَ أُسريَ بي إبراهيمَ الخليل عليه السلام فقال: يا محمّد أَقرئ أُمّتك منّي السلام، وأخبِرهُم أنّ الجنّة طيِّبةُ التُّربة، عذبةُ الماء، وأنّها قيعانٌ، وأنَّ غِراسَها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر »، قال الترمذي: حديث حسنٌ غريبٌ من حديث ابن مسعود(٤).

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٣٢٩٣،٦٤٠٣)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩١).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٥)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩١).

(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٦٩٥).

(٤) سنن الترمذي (رقم:٣٤٦٢)، وحسنه الألباني بما له من الشواهد في السلسلة الصحيحة (رقم:١٠٥).

ورواه الإمامُ أحمد من حديث أبي أيُّوب الأنصاري ﷺ، ولفظه: « أنّ رسول الله ﷺ ليلة أُسري به مرَّ على إبراهيم فقال: مَنْ معك يا جبريلُ؟ قال: هذا محمّد، فقال له إبراهيم: مُرْ أمتك فليُكثروا من غِراس الجنّة، فإنّ تربتَها طيِّبة وأرضَها واسعةٌ، قال: وما غِراسُ الجنَّة؟ قال: لا حول ولا قوَّةَ إلاّ بالله ». فهذا شاهدٌ للحديث الّذي قبله[١].

وروى الترمذي من حديث أبي الزُّبير، عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: « من قال: سبحان الله وبحمده، غُرِست له نخلةٌ في الجنَّة »، قال الترمذي: حديث حسن صحيح[٢].

ورواه الإمامُ أحمد من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: « من قال: سبحان الله العظيم، نبت له غرسٌ في الجنّة »[٣].

ـ ومن فوائد الذِّكر: أنّه يكون نورًا للذّاكر في الدنيا، ونورًا له في قبره، ونورًا له في مَعَاده، يسعى بين يديه على الصِّراط، فما استنارَت القلوبُ والقبورُ بمثل ذكر الله تعالى.

قال اللهُ تعالى: **{أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}**[٤].

فالأوّل: هو المؤمن، استنار بالإيمان بالله ومحبَّته ومعرِفتِه وذكرِه.

(١) المسند (٥/ ٤١٨).

(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٤٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم:٦٤٢٩).

(٣) المسند (٣/ ٤٤٠).

(٤) سورة الأنعام، الآية: (١٢٢).

والآخرُ: هو الغافلُ عن الله تعالى، المعرِضُ عن ذكره ومحبَّته.

والشَّأنُ كلُّ الشَّأن والفلاحُ كلُّ الفلاح في النّور، والشَّقاءُ كلُّ الشَّقاءِ في فَواتِه، ولهذا كان النبي ﷺ يُكثِرُ من سُؤال الله تبارك وتعالى ذلك بأن يجعَلَه في كلِّ ذرّاته الظّاهرة والباطنة، وأن يجعلَه محيطًا به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاتَه وجملَتَه نوراً.

فقد خرّج مسلمٌ في صحيحه من حديث عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما في ذكر دعاء النَّبيّ ﷺ باللّيل قال: « وكان في دعائه اللهمّ: اجعلْ في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخَلْفي نوراً، وعظِّم لي نوراً »، قال كُرَيب ـ أَحَدُ رواة الحديث ـ: وسبعًا في التَّابوت. فلَقيتُ بعضَ ولَد العبّاس فحدّثني بهنَّ، فذكر: عصبي، ولحمي، ودمي، وشعري، وبشَري، وذكر خصلتين[1].

فالذّكرُ نورٌ لِقلب الذّاكر ووجهِه وأعضائِه، ونورٌ له في دنياه وفي البرزخ وفي يوم القيامة.

ـ ومن فوائد الذّكر: أنّه يوجبُ صلاةَ الله ﷻ وملائكتِه على الذّاكر، ومن صلَّى اللهُ عليه وملائِكتُه فقد أفلح كلَّ الفلاح، وفاز كلَّ الفوز، يقول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى**

(١) صحيح مسلم (رقم:٧٦٣).

النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً}[١].

❂❂❂

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٤١،٤٢،٤٣).

٣/ فوائدُ أخرى للذكر

نواصل الحديثَ في عدِّ بعض فوائد الذِّكر، وذكر شيءٍ من منافعه وعوائده على الذَّاكرين في الدنيا والآخرة؛ وذلك من خلال ما ذكره الإمام العلاّمة ابن القيِّم رحمه الله في كتابه الوابل الصيِّب(١).

ـ فمِن فوائده: أنّ الذِّكر سببٌ لتصديق الرّبِّ ﷻ عبدَه، فإنّ الذّاكرَ يُخبرُ عن الله تعالى بأوصاف كماله ونُعوت جلاله، فإذا أخبر بها العبدُ صدَّقه ربُّه، ومن صدّقه اللهُ تعالى لم يُحشَر مع الكاذبين، ورُجي له أن يُحشر مع الصّادقين.

روى ابن ماجه، والترمذي، وابن حبّان، والحاكم، وغيرُهم عن أبي إسحاق، عن الأغرّ أبي مسلم، أنّه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنّهما شهدا على رسول الله ﷺ أنّه قال: « إذا قال العبدُ: لا إله إلاّ الله والله أكبر، قال: يقول الله تبارك وتعالى: صَدَقَ عبدي لا إله إلاّ أنا وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده، قال: صدق عبدي لا إله إلاّ أنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلا الله لا شريك له، قال: صدق عبدي لا إله إلاّ أنا لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملكُ وله الحمدُ، قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا لي الملكُ ولي الحمدُ، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوَّة إلاّ بالله، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوَّة إلاّ بي ».

ثمّ قال الأغرُّ شيئًا لم أفهمه، قلتُ لأبي جعفر: ما قال؟ قال: « من رُزِقَهُنَّ عند موته لم تمسَّه النّار ».

---

(١) انظر: الوابل الصيب (ص:١٥٤،١٥٣،١٣٢،١٤٤،١٤٣،١٤٢،١٦٤،١٦٠).

وقال الترمذي حديث حسن، وصحّحه الحاكم ووافقه الذّهبي، وقال الشيخ الألباني حفظه الله: وهو حديث صحيح(١).

ـ ومن فوائده: أنّ كثرةَ ذكر الله ﷻ أمانٌ من النِّفاق، فإنّ المنافقين قليلو الذّكر لله ﷻ، قال الله تعالى في المنافقين: {وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً}(٢).

قال كعب: « من أكثر ذكرَ الله ﷻ برئ من النِّفاق ».

ولعلّه لأجل هذا ختم اللهُ سورة المنافقين بقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ}**(٣).

فإنّ في ذلك تحذيرًا من فتنة المنافقين الّذين غَفَلوا عن ذكر الله ﷻ فوقَعُوا في النِّفاق والعياذُ بالله.

وقد سُئِل عليُّ بن أبي طالبٍ ﷺ عن الخوارج: منافقون هم؟ فقال: « المنافقون لا يذكرون اللهَ إلاّ قليلاً ».

فهذا من علامة النِّفاق، قلّةُ ذكر الله ﷻ، وعلى هذا فكثرة ذكره تعالى أمانٌ من النِّفاق، واللهُ ﷻ أكرمُ مِن أن يبتلي قلبًا ذاكرًا بالنِّفاق، وإنّما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله ﷻ.

ـ ومن فوائد الذّكر: أنّه شفاءٌ للقلب، ودواءٌ لأمراضه، قال مكحول بن عبد الله رحمه الله: « ذكرُ الله تعالى شفاء، وذكرُ النّاس داء ».

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٧٩٤)، وسنن الترمذي (رقم:٣٤٣٠)، وصحيح ابن حبان (رقم:٨٥١)، ومستدرك الحاكم (١/ ٥)، والسلسلة الصحيحة (رقم:١٣٩٠).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٤٢).

(٣) سورة المنافقون، الآية: (٩).

ثمّ إنَّ الذِّكرَ أيضا يُذهبُ قسوةَ القلب، ففي القلب قسوةٌ لا يُذيبُها إلاّ ذكرُ الله تعالى، جاء إلى الحسنِ البصري رحمه الله رجلٌ فقال: يا أبا سعيد: أشكو إليك قسوةَ قلبي، قال: « أَذِبْهُ بالذِّكر ».

- ومن فوائد الذِّكر: أنّ الذّاكرَ قريبٌ من مذكوره، ومذكورُه معه، وهذه المعيَّةُ معيَّةٌ خاصةٌ غيرُ معيَّة العلم والإحاطة العامّة، فهي معيَّةٌ بالقرب والولاية والمحبَّة والنُّصرة والإعانة والتَّوفيق، كقوله تعالى: {**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**}(١)، وقولِه: {**وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**}(٢)، وقوله: {**وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**}(٣)، فالذَّاكرُ له من هذه المعيَّة النَّصيبُ الوافر، كما في الحديث الإلهي: « أنا مع عبدي ما ذكَرني وتحرَّكَتْ بي شفتَاه »، رواه البخاري تعليقاً، وأحمد، وابن ماجه، والحاكم، وغيرُهم(٤).

- ومن فوائد الذِّكر: أنّه جَلاَّب للنِّعم، دافعٌ للنِّقم، فما استُجلِبت نعمة ولا استُدفِعت نِقمَة بمثل ذكر الله ﷻ، قال اللهُ تعالى: {**إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**}(٥)، فدفاعُه تبارك وتعالى عنهم هو بحسَب قوَّة إيمانهم وكماله، ومادَّةُ الإيمان وقوَّتُه ذكرُ الله تعالى، فمن كان إيمانُه أكملَ، وذكرُه لله أكثرَ كان نصيبُه من دفاع الله عنه أعظمَ وحظُّه منه أوفرَ، ومن نَقصَ نَقَص، ذِكْرًا بذكرٍ

(١) سورة النحل، الآية: (١٢٨).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٤٩).
(٣) سورة العنكبوت، الآية: (٦٩).
(٤) صحيح البخاري (٨/ ٥٧٢)، والمسند (٢/ ٥٤٠)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٧٩٢)، ومستدرك الحاكم (١/ ٤٩٦).
(٥) سورة الحج، الآية: (٣٨).

ونسيانًا بنسيانٍ.

ـ ومن فوائد الذِّكر: أنّ إدامته تنوبُ عن الطّاعات، وتقوم مقامها سواءً كانت بَدَنيَّةً أو ماليّةً، أو بدنيَّةً ماليَّةً كحجِّ التَّطوُّع.

وقد جاء ذلك صريحاً في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ذهب أهلُ الدُّثور بالأجور والنَّعيم المُقيم، يُصلّون كما نُصلّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضلُ أموالهم يحُجُّون بها ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدَّقون، فقال: ألا أُعلِّمُكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدَكم، ولا أحدٌ يكون أفضلَ منكم إلاّ من صنع ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: تسبِّحون وتْحمدون وتكبِّرون خلف كلِّ صلاة ... » إلى آخر الحديث، وهو متّفق عليه(١).

فجعل الذِّكر عوضًا لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد، وأخبر أنّهم يسبقونهم بهذا الذِّكر، فلما سمع أهلُ الدُّثور بذلك عملوا به، فازدادوا إلى صَدّقتهم وعبادتهم بمالِهم التعبُّدَ بهذا الذِكر، فحازوا الفضيلتين، فنافسهم الفقراء، وأخبروا رسول الله ﷺ بأنّهم قد شاركوهم في ذلك، فانفردوا عنهم بما لا قدرة لهم عليه، فقال عليه الصلاة والسلام: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ».

وفي حديث عبد الله بن بُسر رضي الله عنه الذي خرّجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم قال: جاء أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله كثُرت عليّ خلالُ الإسلام وشرائعه، فأخبرني بأمرٍ جامعٍ يكفيني. قال: « عليك بذكر الله تعالى ». قال: ويكفيني يا رسول الله؟ قال: « نعم، ويفضل عنك

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٨٤٣)، وصحيح مسلم (رقم:١٠٠٦).

»(١).

فدلّه الناصح ﷺ على شيء يعينه على شرائع الإسلام والحِرص عليها، والاستكثار منها، فإنّه إذا اتّخذ ذكرَ الله تعالى شعارَه، أحبّه وأحبَّ ما يحبّ، فلا شيء أحبُّ إليه من التقرّب بشرائع الإسلام، فدلّه ﷺ ما يتمكّن به من شرائع الإسلام، وتسهلُ به عليه، فالذِّكرُ من أكبرِ العونِ على طاعة الله، فإنّه يحبّبُها إلى العبد ويسهِّلها عليه، ويلذِّذُها له بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجده الغافلُ، ثم هو أيضاً يسهل الصعبَ، وييسِّرُ العسيرَ، ويخفّفُ المشاقَّ، فما ذُكر اللهُ على صعبٍ إلا هانَ، ولا على عسيرٍ إلا تيسَّرَ، ولا مشقّةٍ إلا خفَّت، ولا شدّةٍ إلا زالت، ولا كُربَةٍ إلا انفرجت، فذكرُ الله هو الفرجُ بعد الشدّةِ، واليسرُ بعد العسرِ، والفرحُ بعد الغمِّ، فاللهم إياك نسأل، وبأسمائك وصفاتكَ نتوسّل أن تجعلنا من عبادِك الذاكرين، وأن تعيذَنا برحمتكَ من سبيل المُعرِضين الغافلين، إنّك على كلِّ شيء قدير.

٤/ فضلُ مجالس الذكر

لقد مرّ معنا شيءٌ يسيرٌ من فوائد الذِّكر، وأنّها كثيرةٌ لا تُحصى، وعديدةٌ لا تُستقصى، يعجز عن إحصائها المحصون، ولا يقدر على عدّها العادون، ولا يحيط بها إنسانٌ، ولا يُعبِّر عنها لسانٌ، كيف لا وهو من أجلِّ القُرُبات، وأفضل الطّاعات. وكم للذّكر من فوائد مغدقةٍ، وثمار يانِعةٍ،

---

(١) سنن الترمذي (رقم:)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٧٩٣)، ومستدرك الحاكم (١/ ٤٩٥).

وجنى لذيذٍ، وأكلٍ دائمٍ، وخيرٍ مستمرٍّ في الدنيا والآخرة.

ومجالسُ الذِّكر هي أزكى المجالس وأشرَفُها، وأنفعُها وأرفعُها، وهي أعلى المجالس قدراً عند الله، وأجلُّها مكانةً عنده.

وقد ورد نصوصٌ كثيرةٌ في فضلِ مجالس الذِّكر، وأنّها حياةٌ للقلوب، ونماءٌ للإيمان، وصلاحٌ وزكاءٌ للعبد، بخلاف مجالس الغفلة الّتي لا يقوم منها الجالسُ إلاّ بنقصٍ في الإيمان، ووَهاءٍ في القلب، وكانت عليه حسرةٌ وندامة.

وكان السَّلفُ رحمهم الله يهتمّون بهذه المجالس أعظمَ الاهتمام، ويعتنون بها غاية العناية، كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول: « تعالوا نؤمن ساعةً، تعالوا فلنذكُر الله، ونزدادُ إيماناً بطاعته، لعلّه يذكرُنا بمغفرته ».

وكان عُمير بن حبيب الخطميُّ رضي الله عنه يقول: « الإيمان يزيد وينقص، فقيل وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله ﷻ وحمدناه وسبَّحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيَّعنا ونسينا فذلك نقصانه »، والآثار عنهم في هذا المعنى كثيرةٌ[١].

إنَّ مجالسَ الذِّكر هي رياضُ الجنّة في الدنيا، روى الإمام أحمدُ والترمذي وغيرُهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: « إذا مررتم برياض الجنّة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنّة؟ قال: حِلَقُ الذِّكر »[٢].

(١) انظر كثيراً من هذه الآثار مخرّجة في كتاب ((زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه)) لعبد الرزاق البدر (ص:١٠٦ وما بعدها).

(٢) المسند (٣/ ١٥٠)، وسنن الترمذي (رقم:٣٥١٠).

ورواه ابن أبي الدنيا والحاكم وغيرُهما، من حديث جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: « يا أيُّها النَّاس ارتعوا في رياض الجنّة، قلنا: يا رسول الله وما رياض الجنّة؟ قال: مجالس الذِّكر »، ثمّ قال: « اغدوا وروحوا واذكروا، فمن كان يحبُّ أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلةُ الله تعالى عنده، فإنّ الله تعالى يُنزل العبدَ منه حيث أنزله من نفسه »(١).

وهو حسنٌ بهذين الطريقين المذكورين(٢).

قال ابن القيِّم رحمه الله: « من شاء أن يسكن رياض الجنّة في الدنيا فليستوطن مجالس الذِّكر، فإنّها رياض الجنّة »(٣).

ومجالس الذِّكر هي مجالسُ الملائكة، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلسٌ إلا مجلسٌ يُذكرُ اللهُ تعالى فيه كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ لله ملائكةً فُضُلاً، يطوفون في الطُّرق يلتمسون أهل الذِّكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلُمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السّماء الدنيا، قال: فيسألُهم ربُّهم تعالى وهو أعلمُ بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يُسبِّحونك ويكبِّرونك ويحمدونك ويمجّدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تحميداً وتمجيداً، وأكثرَ لك تسبيحاً، قال: فيقول: ما

---

(١) المستدرك (١/ ٤٩٤).

(٢) وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم:٢٥٦٢).

(٣) الوابل الصيب (ص:١٤٥).

يسألوني؟ قال: يسألونك الجنّة، قال: فيقول: هل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربّ ما رأوها، قال: فيقول: فكيف لو أنّهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنّهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حِرصاً، وأشدَّ لها طلبًا، وأعظمَ فيها رغبةً، قال: فيقول: فممَّ يتعوّذون؟ قال: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربّ ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافةً، قال: يقول: فأشهدُكم أنّي قد غفرتُ لهم. قال: فيقول ملكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم، إنّما جاء لحاجة، قال: همُ الجلساءُ لا يشقى بهم جليسُهم »(١).

فمجالس الذّكر مجالسُ الملائكة، ومجالس اللّغو والغفلة مجالس الشّياطين، وكلٌّ مضاف إلى شكله، وكلُّ امرئ يصير إلى ما يناسبه، فليختر العبدُ أعجبهما إليه، وأولاهما به، والذّاكر يسعد به جليسه بخلاف الغافل واللاغي فإنّه يشقى به جليسه ويتضرّر(٢).

ومجالسُ الذّكر تُؤمِّنُ العبدَ من الحسرة والنّدامة يوم القيامة، بخلاف مجالس اللّهو والغفلة، فإنّها تكون على صاحبها حسرةٌ وندامةٌ يوم القيامة، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: « من قعدَ مقعدًا لم يذكُر اللهَ تعالى فيه، كانت عليه من اللهِ تعالى تِرَةٌ، ومن اضطجع مضطجعًا لا يذكر اللهَ فيه كانت عليه من الله تعالى تِرَة »(٣)، أي: نقصٌ وتبعةٌ وحسرةٌ.

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٨)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٨٩).
(٢) انظر: الوابل الصيب لابن القيم (ص:١٤٦ ـ ١٤٨).
(٣) سنن أبي داود (رقم:٤٨٥٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:٨٧).

ومن شرَف مجالس الذّكر وعلوِّ مكانها عند الله، أنَّ الله ﷻ يُباهي بالذَّاكرين ملائكته، كما روى مسلمٌ في صحيحه، عن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاويةُ على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكرُ اللهَ تعالى. قال: آللهِ ما أجلسكم إلاّ ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلاّ ذاك، قال: أما إنّي لم أستحْلِفْكم تُهمَةً لكم،
وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثًا منّي، وإنّ رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: « ما أجلسكم؟ »، قالوا: جلسنا نذكرُ اللهَ تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا. قال: « آللهِ ما أجلسكم إلاّ ذاك؟ »، قالوا: والله ما أجلسنا إلاّ ذاك، قال: « أما إنّي لم أستحْلِفْكم تُهمَةً لكم، ولكنَّه أتاني جبريل فأخبرني أنَّ الله تبارك يُباهي بكم الملائكة »[(١)].

فهذه المباهاةُ من الرّبِّ دليلٌ على شرف الذّكر عند الله، ومحبّته له، وأنّ له مزيّةً على غيره من الأعمال[(٢)].

ومجالس الذّكر سببٌ لنزول السّكينة، وغِشيان الرَّحمة، وحفوف الملائكة بالذَّاكرين فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي مسلم الأغرّ، قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد أنّهما شهدا على رسول الله ﷺ أنّه قال: « لايقعد قومٌ في مجلس يذكرون اللهَ فيه إلاّ حفَّتهم الملائكة، وغَشِيتهمُ الرَّحمة، ونزلت عليهم السّكينة، وذكرهم اللهُ فيمن عنده »[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٧٠١).
(٢) انظر: الوابل الصيب لابن القيم (ص:١٤٩،١٤٨).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٧٠٠).

ومجالس الذِّكر سببٌ عظيم من أسباب حفظ اللِّسان، وصونه عن الغِيبة والنَّميمة، والكذب والفُحش والباطل، فإنّ العبدَ لا بُدَّ له من أن يتكلّم، فإن لم يتكلّم بذكر الله تعالى وذكر أوامره وبالخير والفائدة، تكلّم ولا بُدَّ بهذه المحرّمات أو بعضها، فمن عوّد لسانه على ذكر الله، صان لسانه عن الباطل واللّغو، ومن يَبَسَ لسانُه عن ذكر الله نطق بكلِّ باطل ولغوٍ وفحش[1].

واللهَ المسئول أن يعمرَ أوقاتنا وأوقاتكم بطاعته، وأن يشغلنا مجالسنا ومجالسكم بذكره وشكره وحُسن عبادته، وأن يقيَنا من مجالس الغفلة واللّهو والباطل، فإنهّ خير مسئول، وهو وحده المستعان، ولا حول ولا قوَّة إلاّ به.

(١) وانظر: الوابل الصيب لابن القيم (ص:١٦٦).

٥/ ذِكرُ الله هو أزكى الأعمال وأفضلُها

إنَّ ذكرَ الله جلَّ وعلا هو أزكى الأعمال وخيرُها وأفضلُها عند الله تبارك وتعالى، ففي المسند للإمام أحمد، وسنن ابن ماجه، ومستدرك الحاكم، وغيرها من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ألا أُنبِّئُكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مَليكِكم، وأرفعها في درَجاتِكم، وخيرٌ لكم من إعطاء الذهبِ والورِق، وخيرٌ لكم من أن تلقَوا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقَكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله ﷻ »[1].

فهذا الحديث العظيم أفاد فضيلة الذِّكر، وأنّه يعدل عتق الرِّقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل في سبيل الله ﷻ، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل الله ﷻ.

قال ابنُ رجب رحمه الله: « وقد تكاثرت النّصوص بتفضيل الذِّكر على الصّدقة بالمال وغيره من الأعمال »[2]. ثمّ أورد حديث أبي الدرداء المتقدِّم، وجملة من الأحاديث الأخرى الدّالة على المعنى نفسه.

وقد روى ابنُ أبي الدنيا كما في الترغيب والترهيب للمنذري[3]، وقال: إسناده حسن، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأبي الدرداء: إنّ رجلا أعتق مائة نسَمة قال: « إنّ مائة نسَمة من مال رجل كثيرٌ،

(١) المسند (٥/ ١٩٥)، سنن ابن ماجه (٣٧٩٠)، والمستدرك (١/ ٤٩٦). وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٢٦٢٩).
(٢) جامع العلوم والحكم (ص:٢٢٥).
(٣) (٢/ ٣٩٥).

وأفضلُ من ذلك إيمانٌ ملزومٌ بالليل والنّهار وأن لا يزال لسانُ أحدكم رطباً من ذكر الله ».

فبيّن رضي الله عنه فضل عتق الرِّقاب وأنّه مع عظم فضله لا يعدل ملازمة الذِّكر والمداومة عليه، وقد جاء في هذا المعنى آثارٌ كثيرةٌ عن السَّلفِ رحمهم الله.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: « لأَنْ أُسبِّح الله تعالى تسبيحات أحبُّ إليَّ من أن أُنفق عددهن دنانير في سبيل الله ».

وجلس عبد الله بن عمرو وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم فقال عبد الله ابن مسعود: لأَن آخذ في طريق أقول فيه: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر أحبُّ إليَّ من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله ﷻ، فقال عبد الله بن عمرو: « لأن آخذ في طريق فأقولهنّ أحبُّ إليَّ من أن أحمل عددهنّ على الخيل في سبيل الله ﷻ ».

وكذلك قال غيُر واحدٍ من الصحابة والتّابعين، إنّ الذِّكر أفضل من الصّدقة بعدده من المال[١].

والآثارُ في هذا المعنى عنهم كثيرةٌ، وهي لا تعني لا من قريب ولا من بعيد التّقليل من شأن النّفقة في سبيل الله، والحمل على الخيل في سبيله، وعتق الرِّقاب في سبيله، وإنّما المرادُ بها تعليةُ شأن الذّكر، وبيانُ عظيم قدره، ورفعة مكانته، وأنّه لا يعدله شيءٌ من هذه الأمور،
بل إنّ الأعمال كلَّها والطّاعات جميعها إنّما شرعت لإقامة ذكر الله، والمقصودُ بها تحصيل ذكر الله تعالى.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:٢٢٦،٢٢٥).

ولهذا يقول الله تعالى: {**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي**}(١)، أي: أقم الصلاة لأجل ذكر الله جلّ وعلا، وهذا فيه تنبيهٌ على عظيم قدر الصلاة؛ إذ هي تضرُّعٌ إلى الله تعالى، وقيامٌ بين يديه، وسؤالٌ له تبارك وتعالى، وإقامةٌ لذكره. وعلى هذا فالصلاة هي الذّكر، وقد سمّاها الله تعالى ذكراً، وذلك في قوله: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ**}(٢)، فسمّى الصّلاة هنا ذكراً؛ لأنّ الذّكر هو روحُها ولُبُّها وحقيقتُها، وأعظمُ النّاس أجرًا في الصّلاة أقواهم وأشدُّهم وأكثرهم فيها ذكرًا لله تعالى. وهكذا الشّأنُ في كلِّ طاعة وعبادةٍ يتقرّب بها العبدُ إلى الله.

روى الإمامُ أحمد، والطبراني من طريق عبد الله بن لهيعة، قال: حدّثنا زبّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنَّ رجلاً سأله فقال: أيُّ المجاهدين أعظمُ أجراً يا رسول الله؟ فقال: « أكثرهم لله ذكرًا ». فقال: فأيُّ الصّائمين أكثرُهم أجراً؟ قال: « أكثرهم لله ذكرًا »، ثمّ ذكر الصّلاة والزكاة والحجّ والصّدقة، كلُّ ذلك يقول رسول الله ﷺ: « أكثرُهم لله ذكرًا ». فقال أبو بكر لِعُمر رضي الله عنهما: ذهب الذّاكرون بكلّ خير. فقال رسول الله ﷺ: « أجَل »(٣).

قال الهيثمي رحمه الله: « وفيه زبّان بن فائد وهو ضعيف وقد وُثّق، وكذلك ابن لهيعة »(٤). اهـ.

---

(١) سورة طه، الآية: (١٤).

(٢) سورة الجمعة، الآية: (٩).

(٣) المسند (٣/ ٤٣٨)، والمعجم الكبير للطبراني (٢٠/ رقم:٤٠٧).

(٤) مجمع الزوائد (١٠/ ٧٤).

لكن له شاهدٌ مرسلٌ بإسناد صحيح، رواه ابن المبارك في الزُّهد قال: أخبرني حيوةُ قال: حدّثني زُهرة بنُ معبَد أنّه سمع أبا سعيد المقبُري يقول: قيل: يا رسول الله أيُّ الحاج أعظم أجرًا؟ قال: « أكثرهم لله ذكرًا »، قال: فأيُّ المصلّين أعظم أجرًا؟ قال: « أكثرهم لله ذكرًا »، قال: فأيّ الصّائمين أعظم أجراً؟ قال: « أكثرهم لله ذكراً »، قال: فأيُّ المجاهدين أعظمُ أجراً؟ فقال: « أكثرهم لله ذكرًا ». قال زُهرة: فأخبرني أبو سعيد المقبُري: أنّ عمر بن الخطّاب قال لأبي بكر: ذهب الذّاكرون بكلِّ خير[1].

وله شاهدٌ آخر أورده ابن القيِّم في كتابه الوابل الصيِّب قال: وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلاً أنّ النبيَّ ﷺ سُئل أيُّ أهل المسجد خير؟ قال: « أكثرهم ذكرًا لله ﷻ »، قيل: أيُّ أهل الجنازة خير؟ قال: « أكثرهم ذكرًا لله ﷻ »، قيل: فأيُّ المجاهدين خير؟ قال: « أكثرهم ذكرًا لله ﷻ »، قيل: فأيُّ الحُجّاج خير؟ قال: « أكثرهم ذكراً لله ﷻ »، قيل: وأيُّ العوّاد خير؟ قال: « أكثرهم ذكرًا لله ﷻ »، قال أبو بكر: ذهب الذّاكرون بالخيركلِّه[2].

فالحديث بشاهديه صالحٌ للاحتجاج إن شاء الله، ومعناه الّذي دلَّ عليه حقٌ لا ريب في صحّته. يقول ابن القيِّم رحمه الله: « إنّ أفضل أهل كلِّ عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله ﷻ، فأفضلُ الصُّوَّام أكثرهم ذكرًا لله ﷻ في صومهم، وأفضل المتصدّقين أكثرهم ذكرًا لله ﷻ، وأفضلُ الحجّاج أكثرهم ذكرًا لله

(١) الزهد (رقم:١٤٢٩).
(٢) الوابل الصيب (ص:١٥٢).

ﷻ، وهكذا سائر الأعمال »[١]، ثمّ أورد الحديث المتقدّم، وأورد عقبه عن عبيد بن عُمير رحمه الله أنّه قال: « إنْ أَعْظَمَكم هذا اللّيلُ أن تُكابدوه، وبَخِلتم بالمال أن تنفقوه، وجنبتم عن العدوِّ أن تقاتلوه، فأكثروا من ذكر الله ﷻ ».

فذِكرُ الله تعالى هو أفضل الأعمال، وهو أكبر من كلِّ شيء، يقول الله جلّ وعلا: {**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**}[٢]، أي: ذكرُ الله لكم أكبرُ من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم، وهو ذاكرٌ مَن ذَكَرَه، قال معناه ابنُ مسعود وابن عبّاس وأبو الدرداء وأبو قرَّة وسلمانُ والحسنُ، واختاره ابن جرير الطبري. وقيل: ذِكْرُكُم الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضلُ من كلِّ شيء. قال ابن زيد وقتادة: ولَذِكرُ الله أكبرُ من كلِّ شيء، أي أفضل من العبادات كلِّها بغير ذكر. وقيل المعنى: إنّ ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « الصّحيح أنّ معنى الآية أنّ الصّلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر، فإنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولِمَا فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر »[٣]. اهـ كلامه رحمه الله.

وقد سُئل سلمان الفارسي رضي الله عنه: « أيُّ الأعمال أفضل؟

---

(١) الوابل الصيب (ص:١٥٢).

(٢) سورة العنكبوت، الآية: (٤٥).

(٣) نقله ابن القيم في الوابل الصيب (ص:١٥٢).

فقال: أما تقرأ القرآن: ولذكرُ الله أكبر ».

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه سُئل: أيُّ العمل أفضل؟ قال: « ذكرُ الله أكبر »(١).

فالله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، ملءَ سمواتِه، وملءَ أرضِه، وملءَ ما بينهما، وملء ما شاء من شيء بعد، لا ينقطع ولا يبيد ولا يفنى، عدد ما حمده الحامدون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون، عدد خلقه ورضا نفسه وزِنة عرشه ومِدادَ كلماته، وصلّى الله وسلّم على نبيِّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) وانظر: الوابل الصيب لابن القيم (ص:١٤٩ ـ ١٥٣).

٦/ فضلُ الإكثار من ذكرِ الله

لقد أمَرَ الله في كتابه عبادَه المؤمنين بالإكثار من ذكره قيامًا وقُعودًا وعلى الجنوب، بالليل والنّهار، وفي البرِّ والبحر، وفي السّفر والحضر، وفي الغنى والفقر، وفي الصّحة والسقم، وفي السّرِّ والعَلَن، وفي كلِّ حال، ورتّب لهم على ذلك جزيلَ الأجرَ، وعظيمَ الثّوابَ، وجميلَ المآبَ.

قال الله تعالى: {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً**}[١].

ففي هذه الآية الحثُّ على الإكثار من ذكر الله تعالى، وبيانُ ما يترتَّبُ على ذلك من أجرٍ عظيمٍ وخيرٍ عميمٍ، وقوله: {**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ**} فيه أعظمُ التّرغيب في الإكثار من ذكر الله، وأحسنُ حظٍ على ذلك، أي: أنّه سبحانه يَذْكُرُكُم فاذكروه أنتم، وهو نظيرُ قولِه تعالى: {**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**}[٢] فالجزاء من جنس العمل، فمن ذكر اللهَ في نفسه ذكره الله في نفسه، ومن ذكر الله في ملأٍ ذكره الله في ملأٍ خير منهم، ومن نسي الله نسيه الله.

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: (٤١ ـ ٤٤).

(٢) سورة البقرة الآية: (١٥٢،١٥١).

فالمكثرون من ذكر الله لهم الحظُّ الأوفر، والنَّصيب الأكمل من ذكر الله لهم، وصلاتِهِ عليهم وملائكتِهِ. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية أنّه قال: فإذا فعلتم ذلك ـ أي أكثرتم من ذكر الله ـ صلّى اللهُ عليكم هو وملائكتُه.

وصلاةُ الله على عباده الذّاكرين له، هي ثناؤه عليهم في الملأ الأعلى عند الملائكة الكرام البررة، وصلاةُ الملائكة عليهم هي بمعنى الدعاء لهم والاستغفار، كما قال الله تعالى: **{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كَلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ}**[1].

وقد حكى البخاري في صحيحه عن أبي العالية رحمه الله، أنّه قال في معنى قوله تعالى: **{إِنَّ اللهَ وَملاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}**[2] « صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء »[3].

ثمّ إنّ الله تبارك وتعالى بسبب رحمته بالذّاكرين الله كثيرًا، وثنائِهِ عليهم، ودعاءِ ملائكته لهم، يخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور، ولهذا قال: **{هُوَ الَّذِي**

(١) سورة غافر، الآيات: (٧ ـ ٩).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٥٦).

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير (٦/ ٣٢٦).

يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}[(١)] من ظلمات الجهل والضّلال إلى نور الهدى واليقين، ثمّ قال تعالى: {**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**} أي: في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا فإنّه هداهم إلى الحقّ الّذي جهله غيرُهم، وبصّرهم الطريق الّذي ضلّ عنه وحاد عنه
من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة أو الباطل، وأمّا رحمته
بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقّونهم بالبشارة بالفوز بالجنّة والنّجاة من النّار، وما ذاك إلاّ لمحبّته لهم ورأفته بهم، جعلنا الله وإيّاكم منهم.

ويقول الله تعالى في آية أخرى مبيِّنًا فضل الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات، منوِّهًا بشأنهم، معليًا لذكرهم، مبيِّنًا لعظيم أجرهم وثوابهم، {**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**}[(٢)].

أي: هيّأ لذنوبهم الصّفح والغفران، ولأعمالهم الصّالحة الأجرَ العظيم والدّرجات العالية في الجنان، ممّا لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب إنسان.

إنّ الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات همُ المفرِدون السّابقون إلى الخيرات،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٤٣).

(٢) سورة الأحزاب الآية: (٣٥).

المحظوظون بأرفع الدرجات وأعلى المقامات، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكّة فمرّ على جبل يقال له جُمْدان فقال: سيروا هذا جُمدان، سبق المفرّدون. قالوا: وما المفرِّدون؟ قال: الذّاكرون الله كثيرًا والذّاكرات »(١).

وقد فسّر رسولُ الله ﷺ المفردين بأنّهم الذّاكرون الله كثيرًا والذّاكرات، وأصلُ المفردين كما يقول ابن قتيبة وغيره: الّذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم فبقوا يذكرون الله تعالى.

إنّ من يتأمّلُ هذه النصوص وغيرها من النصوص الكثيرة الواردة في بيان عظيم أجر الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات، وجزيل ثوابهم، وما أعدّ الله لهم من النّعيم المقيم، والثّواب الكبير يوم القيامة لتتحرّك نفسه شوقًا وطمعًا، ويهتزُّ قلبُه حبًّا ورغبًا في أن يكون من هؤلاء، أهلِ هذا المقام الرّفيع والمنزلة العالية.

ولكن بما ينالُ العبدُ ذلك؟ وهذا سؤالٌ عظيم يجدر بكلِّ مسلم أن يقف عنده ويعرف جوابه، وقد جاء عن السّلف في معنى الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات نقولٌ عديدةٌ منها:

ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: المراد: يذكرون الله في أدبار الصّلوات وغدوًّا وعشيًّا، وفي المضاجع، وكلّما استيقظ من نومه، وكلّما غدا أو راح من منزله ذكر الله تعالى.

وقال مجاهد: « لا يكون من الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات حتّى يذكر الله قائما وقاعدًا ومضطجعًا ».

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٦٧٦).

وقال عطاء: « من صلّى الصّلوات الخمس بحقوقها فهو داخلٌ في قول الله تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ}(١) »(٢).

ومن صفة هؤلاء: الصّلاةُ من الليل، فقد روى أبو داود وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم، بإسناد صحيح، صحّحه الحاكم والذّهبي والنّووي والعراقي وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا أيقظ الرّجل أهله من الليل فصلّيا أو صلّى ركعتين جميعاً كُتِبا من الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات »(٣).

وقد سُئل أبو عمرو بن الصّلاح فيما نقله النووي رحمه الله عنه في كتاب الأذكار عن القَدْر الذي يصير به العبد من الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات فقال: « إذا واظب على الأذكار المأثورة المُثبتة صباحًا ومساءً في الأوقات والأحوال المختلفة ليلاً ونهارًا، وهي مبيّنة في كتاب عمل اليوم والليلة، كان من الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات »(٤).

ويقول الشيخ العلاّمة عبد الرّحمن بن سعدي رحمه الله: « وأقلُّ ذلك أن يلازم الإنسان أوراد الصّباح والمساء وأدبار الصّلوات الخمس وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فإنَّ ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٣٥).

(٢) انظر: هذه الآثار في الأذكار للنووي (ص:٩، ١٠).

(٣) سنن أبي داود (رقم:١٣٠٩)، سنن ابن ماجه (رقم:١٣٣٥)، ومستدرك الحاكم (١/ ٣١٦)، وصحح العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٦٠٣٠).

(٤) نقله النووي في الأذكار (ص:١٠).

وداعٍ إلى محبّة الله ومعرفته، وعونٍ على الخير وكفٍّ اللّسان عن الكلام القبيح»[١]. اهـ كلامه رحمه الله.

وأسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى أن يجعلني وإيّاكم من الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات، ومن الذين أعدّ الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا، إنّه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

۞۞۞

(١) تيسير الكريم الرّحمن (٦/ ١١٢).

٧/ تنوّع الأدلّة الدّالة على فضل الذِكر

مرّ معنا فضيلةُ الذّكر وعظيمُ أجره، وبيان ما أعدّه الله لأهله من جميل الثّواب، وكريم المآب، وحُسن العاقبة، وهناءة العيش، ومرّ معنا شيءٌ يسيرٌ من فوائده العطِرة، وثماره الكريمة اليانعة، وعواقبه الحميدة في الدنيا والآخرة.

ولمّا كان الذّكر بهذه المنزلة الرّفيعة والدّرجة العالية، فإنّ دلالات النصوص المبيِّنة لفضله جاءت متنوِّعة، وكان مجيئه في القرآن الكريم على وجوه كثيرة، وهي بمجموعها وأفرادها تدلُّ على عظيم شأن الذِّكر وجليل قدره.

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم رحمه الله في كتابه مدارج السّالكين[1]: أنَّ الذِّكر ورد في القرآن الكريم على عشرة أوجه، ذكرها مجملة، ثمّ أورد بعد ذلك تفصيلها. قال رحمه الله:

الأوّل: الأمرُ به مطلقاً ومقيّداً.

الثاني: النّهي عن ضدّه من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرّابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدّ الله لهم من الجنّة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنّه سبحانه جعل ذكره لهم جزاءً لذكرهم له.

السابع: الإخبار بأنّه أكبرُ من كلِّ شيء.

(١) انظره (٢/ ٤٢٤ وما بعدها).

الثامن: أنّه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنّهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنّهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنّه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

ثم قال رحمه الله في بيان تفصيل هذه الأوجه العشرة:

ـ أمّا الأوّل: وهو الأمر به مطلقاً ومقيّداً، فكقوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**}(١)، وقوله تعالى: {**وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً**}(٢).

ـ وأمّا النهي عن ضدّه فكقوله: {**وَلاَ تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ**}(٣)، وقوله: {**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ**}(٤).

ـ وأمّا تعليق الفلاح بالإكثار منه فكقوله: {**وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}(٥).

ـ وأمّا الثناء على أهله وحسن جزائهم فكقوله: {**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**} إلى قوله {**وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ**

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٤٣،٤٢،٤١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٥).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٥).

(٤) سورة الحشر، الآية: (١٩).

(٥) سورة الجمعة، الآية: (١٠).

أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[١].

ـ وأمّا خسران من لها عنه فكقوله: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ**}[٢].

ـ وأمّا جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: {**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونَ**}[٣]، وذكر العبد لربِّه محفوف بذكرين من ربِّه له: ذكر قبله به صار العبد ذاكراً له، وذكر بعده به صار العبد مذكورًا، فذكر الربّ لعبده نوعان: نوعٌ قبل ذكر العبد لربِّه، ونوعٌ بعده.

ـ وأمّا الإخبار عنه بأنّه أكبرُ من كلِّ شيء، فكقوله تعالى: {**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**}[٤].

ـ وأمّا ختم الأعمال الصالحة به، فكما ختم به عمل الصيام بقوله: {**وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**}[٥]، وختم به الحجّ في قوله: {**فَإِذَا قَضَيْتُم مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً**}[٦]، وختم به الصلاة بقوله: {**فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً**

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٣٥).

(٢) سورة المنافقون، الآية: (٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٥٢).

(٤) سورة العنكبوت، الآية: (٢٠٥).

(٥) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٠٠).

وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}(١)، وختم به الجمعة بقوله: {**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}(٢)، ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا، وإذا كان آخرُ كلام العبد أدخله الله الجنة.

ـ وأمّا اختصاص الذّاكرين بالانتفاع بآياته، وهم أولو الألباب والعقول، فكقوله تعالى: {**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِم**}(٣).

ـ وأمّا مصاحبته لجميع الأعمال واقترانه بها وأنّه روحها، فإنّه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله تعالى: {**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي**}(٤)، وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه، بل هو روح الحج ولبّه ومقصوده، كما قال ﷺ: « إنّما جُعل الطواف بالبيت والسعيُ بين الصفا والمروة ورميُ الجمار لإقامة ذكر الله ». وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء فقال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}(٥).

فهذه وجوهٌ عشرةٌ ورد فيها الذِّكر في القرآن الكريم، وذُكِرَ لكلِّ وجه

(١) سورة النساء، الآية: (١٠٣).
(٢) سورة الجمعة، الآية: (١٠).
(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٩١).
(٤) سورة طه، الآية: (١٤).
(٥) سورة الأنفال، الآية: (٤٥).

منها بعضُ أمثلة من الآيات القرآنية، والقرآن الكريم مليءٌ بالآيات المندرجة تحت هذه الأنواع، وهي يسيرة الحصول، قريبة المتناول لمن قرأ القرآن الكريم وتدبّر آياته، وما أحسن وأروع ما قاله الإمامُ الشّوكاني رحمه الله في سياق آخر وهو ينطبق على سياقنا هذا تمام الانطباق حيث قال رحمه الله: « واعلم أن إيراد الآيات القرآنية على إثبات كلِّ مقصد من هذه المقاصد لا يحتاج إليه من يقرأ القرآن العظيم، فإنّه إذا أخذ المصحف الكريم وقف على ذلك في أيِّ موضع شاء، ومن أيِّ مكان أحبَّ، وفي أيِّ محلٍ أراد، ووجده مشحوناً به من فاتحته إلى خاتمته »[1]. اهـ كلامه رحمه الله.

بل إنَّ القرآن الكريم كلّه كتابُ ذكرٍ لله، فذكر الله تعالى هو لبُّ القرآن وروحُه وحقيقته وغايةُ مقصوده، يقول الله تعالى: {**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ**}[2]، وقال تعالى: {**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**}[3]، وقال تعالى: {**إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**}[4]، وقال تعالى: {**فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيد**}[5]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد سمّى الله سبحانه وتعالى كتابَه العزيز ذكرًا فقال: {**وَهَذَاذِكْرٌ**

(١) إرشاد الثقات (ص:٤).

(٢) سورة ص، الآية: (٢٩).

(٣) سورة ق، الآية: (٣٧).

(٤) سورة الإسراء، الآية: (٩).

(٥) سورة ق، الآية: (٤٥).

مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ}[١]، وقال تعالى: {**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**}[٢]، وقال تعالى: {**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ**}[٣]، وقال تعالى: {**أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**}[٤]، وقال تعالى: {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**}[٥]، وقال تعالى: {**ص وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**}[٦]، وقال تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**}[٧].وفي هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن الكريم.

قال سفيان الثّوري رحمه الله: « سمعنا أنّ قراءة القرآن أفضلُ الذِّكر إذا عمل به »[٨]. وروى الطبري بإسناده إلى عون بن عبد الله قال: أتينا أمّ الدرداء نتحدّث إليها، قال: ثمّ قلتُ: يا أمَّ الدرداء لعلّنا أمللناكِ؟ قالت: « أمللتموني والله، لقد التمستُ العبادة في كلِّ شيء فما وجدتُ شيئاً أشفى لنفسي من مجلس ذكرٍ، قال: ثمّ اختبأت، ثمّ قالت لرجلٍ: اقرأ {**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا**

(١) سورة الأنبياء، الآية: (٥٠).

(٢) سورة النحل، الآية: (٤٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٥٨).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٦٣).

(٥) سورة الحجر، الآية: (٩).

(٦) سورة ص، الآية: (١).

(٧) سورة فصلت، الآية: (٤١،٤٢).

(٨) أورد هذا الأثر والذي بعده القرطبي في التذكار في فضل الأذكار (ص:٥٥،٥٩).

لَهُمُ القَولَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[(١)] ».

رحم الله أمَّ الدرداء، ورحم الله السّلف الصّالح أجمعين، كيف حفظوا أوقاتهم وأعمارهم وعمروها بذكر الله وما يقرِّب إليه، ولم تتردّد رحمها الله عندما سألها: لعلّنا أمللناك؟ أن تقول: نعم أمللتموني والله، فهي الحافظة لوقتها الحريصة على كمال دينها وتمامه، فلله ما أزكاها من ألفاظٍ صادقة، وأنفاسٍ عَطِرة، وإيمانيّات مؤَثِّرة، وخير متدفّق، والله المستعان وهو حسبُنا ونعم الوكيل.

❁❁❁

(١) سورة القصص، الآية: (٥١).

٨/ ذمُّ الغفلة عن ذكرِ الله

إنّ الله تبارك وتعالى لمّا أمر بذكره في القرآن الكريم، وحثَّ عليه ورغّب فيه في آيٍ كثيرةٍ منه، حذّر أيضا من الوقوع في ضدّه وهو الغفلة، إذ لا يتمُّ الذّكرُ لله حقيقةً إلاّ بالتخلُّص من الغفلة والبعد عنها، وقد جمع الله بين هذين الأمرين في آية واحدة من القرآن ـ أعني الأمر بالذّكر والنهي عن الغفلة ـ وذلك في قوله تعالى من آخر سورة الأعراف: {**وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ**}[1].

والمراد بقوله في الآية {**وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ**} أي: من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حُرِموا خيري الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن مَن كلُّ السعادة والفَوز في ذكره وعبوديّته، وأقبلوا على مَن كلُّ الشقاوة والخيبة في الاشتغال به، وفي الآية أمرٌ بالذكر والمواظبة عليه وتحذيرٌ من الغفلة عنه، وتحذيرٌ من سبيل الغافلين.

والغفلةُ داءٌ خطير إذا اعترى الإنسان وتمكّن منه لم يشتغل بطاعة الله وذكره وعبادته، بل يشتغل بالأمور الملهية المبعدة عن ذكر الله، وإن عمل أعمالاً من الطّاعة والعبادة فإنّها تأتي منه على حال سيِّئة ووضع غير حسن، فتكون أعماله عاريةً من الخشوع والخضوع والإنابة والطُمأنينة والخشية والصّدق والإخلاص.

ولهذا جاء في القرآن الكريم في مواطن كثيرة منه التحذيرُ منها وذمّها

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٥).

وبيان سوء عاقبتها، وأنّها من خصال الكافرين وصفات المنافقين المعرضين. يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ}(١)، ويقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}(٢)، ويقول تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}(٣)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

إنّ مَثَل الغافل عن ذكر الله مَثَلُ الميِّت، وقد تقدّم معنا أنّ الذّكر هو حياةُ القلوب حقيقةً، فلا حياة لها بدونه، وحاجتها إليه أعظم من حاجة السّمك إلى الماء، فالقلب الذّاكر هو القلب الحيّ، والقلب الغافل هو القلب الميِّت.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « مَثَل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكره مَثَلُ الحيِّ والميِّت ». ولفظ مسلم: « مَثَل البيت الذي يُذكر الله فيه والبيت الذي لا يُذكر الله فيه مَثَلُ الحيِّ والميِّت »(٤).

ففي هذا التمثيل كما يقول الشوكاني رحمه الله: « منقبةٌ للذّاكر جليلةٌ،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٧٩).

(٢) سورة يونس، الآية: (٧).

(٣) سورة الروم، الآية: (٧).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٧)، وصحيح مسلم (رقم:٧٧٩).

وفضيلة له نبيلة، وأنّه بما يقع منه من ذكر الله ﷻ في حياةٍ ذاتيةٍ وروحيّةٍ لما يغشاه من الأنوار، ولما يصل إليه من الأجور، كما أنّ التارك للذّكر وإن كان في حياةٍ ذاتيةٍ فليس لها اعتبارٌ بل هو شبيه بالأموات »[١].

لقد جعل النبيُّ الكريمُ ﷺ في هذا الحديث بيت الذّاكر بمنزلة بيت الحيّ، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميِّت وهو القبر، وفي اللّفظ الأوّل جعل الذّاكر نفسه بمنزلة الحيِّ، والغافل بمنزلة الميِّت، فتضمّن الحديثُ بمجموع لفظيه أنّ القلب الذّاكر كالحيِّ في بيوت الأحياء، والقلب الغافل كالميّت في بيوت الأموات، وعلى هذا فإنّ أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، ولهذا قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبورُ
وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشورُ

وقيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم فهي القبور الدوارسُ
وأرواحهم في وحشة من حبيبهم ... ولكنها عند الخبيث أوانسُ[٢]

ولهذا صحّ في الحديث عن النبي ﷺ النهيُ عن جعل البيوت قبورًا، أي: لا يصلّى فيها ولا يذكر فيها الله تعالى. ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتّخذوها قبوراً »[٣].

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن

---

(١) تحفة الذاكرين (ص:١٥).

(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٣٠،٤٢٩).

(٣) صحيح البخاري (رقم:٤٣٢)، وصحيح مسلم (رقم:٧٧٧).

النبي ﷺ قال: « لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإنَّ الشيطان يفرُّ من البيت الذي يسمع سورة البقرة تُقرأ فيه »(١).

وفي سنن أبي داود وغيره بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلّوا عليَّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم »(٢). قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله في بيان معنى قوله:

« لا تجعلوا بيوتكم قبورًا » قال: « أي لا تُعطِّلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهى عن تحرّيها عند القبور عكس ما يفعله المشركون من النّصارى ومن تشبّه بهم »(٣). اهـ كلامه رحمه الله.

ولَمَّا كان القلب بهذه المثابة يوصف بالحياة وضدّها انقسمت القلوب بحسب ذلك إلى ثلاثة أقسام(٤):

الأوّل: القلب السليم، وهو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شركٌ بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادةً ومحبّةً وتوكُّلاً وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، وخلُص عملُه لله، فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ويكون الحاكم عليه في أموره كلّها هو ما جاء به رسول الله ﷺ فلا يتقدّم بين يديه بعقيدة ولا قول

(١) صحيح مسلم (رقم:٧٨٠).

(٢) سنن أبي داود (رقم:٢٠٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم:٧٢٢٦).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٦٢).

(٤) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٣ ـ ١٥).

ولا عمل.

الثاني: ضد هذا وهو القلب الميّت، الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربّه ولا يعبده ولا يمتثل أمره ولا يفعل ما يحبّه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولذّاته، ولو كان فيها سخطُ ربِّه وغضبُه، فهو متعبِّدٌ لغير الله حبًّا وخوفًا ورجاءً ورضًا وسخطًا وتعظيمًا وذلاًّ، إن أحبَّ أحبَّ لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهو آثَرُ عنده وأحبُّ إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركّبة.

الثالث: قلب له حياة وبه علّة، فله مادّتان تُمدُّه هذه مرّة، وهذه تُمدُّه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبّة الله تعالى والإيمان به والإخلاصِ له والتوكّلِ عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبّة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، ومن الحسد والكبر والعجب وحب العُلُوِّ ما هو مادة هلاكه وعَطَبِه.

فالقلب الأوّل حيٌّ مخبتٌ ليِّنٌ، والثاني يابسٌ ميِّت، والثالث مريض فإمّا إلى السلامة أدنى وإمّا إلى العطب أدنى، وعلى هذا فإن القلب لكي تبقى له حياتُهُ وتزول عنه غفلتُهُ وتتم له استقامتُهُ محتاجٌ إلى ما يحفظ عليه قوتَه وهو الإيمان وأوراد الطاعات والمحافظة على ذكر الله، والبعدُ عن كلّ ما يسخطه تبارك وتعالى، ولا سعادة للقلب ولا لذّة ولا نعيم ولا صلاح إلاّ بأن يكون اللهُ وحده إلهه وفاطره ومعبوده وغاية مطلوبه، وأحبّ إليه من كلِّ ما سواه، فبهذا تكون نجاة القلب من الغفلة وسلامته من الهلَكة، وبهذا تسري فيه الحياة، والتوفيق بيد الله وحده.

٩/ من آداب الذِكر

تقدّم معنا قولُ الله تبارك: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ}(١) وبيان ما اشتملت عليه الآية الكريمة من الجمع بين الأمر بذكر الله والنّهي عن ضدِّه وهو الغفلة، وهذه الآية إضافة إلى دلالتها على ذلك فقد اشتملت على جملةٍ طيِّبةٍ من الآداب الكريمة التي ينبغي أن يتحلّى بها الذّاكر. فمن هذه الآداب:

أوّلاً: أن يكون الذّكر في نفسه؛ لأنَّ الإخفاء أدخلُ في الإخلاص، وأقربُ إلى الإجابة وأبعدُ من الرِّياء.

ثانياً: أن يكون على سبيل التضرُّع، وهو التّذلُّل والخضوع والاعتراف بالتّقصير ليتحقّق فيه ذِلَّة العبودية والانكسار لعظمة الرُّبوبيّة.

ثالثاً: أن يكون على وجه الخيفة أي الخوف من المؤاخذة على التّقصير في العمل، والخشية من الرد، وعدم القَبول، قال الله تعالى في صفة المؤمنين المسارعين في الخيرات، السّابقين لأرفع الدّرجات: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}(٢).

وقد ثبت في المسند وغيره عن عائشة رضي الله عنها أنّها سألت النبيَّ ﷺ عن هؤلاء فقالت: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يُعذَّب؟ قال: « لا، يا ابنة الصِّدّيق، ولكنَّه الرجل يصلّي ويصوم ويتصدّق ويخاف أن لا يقبل منه »(٣).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٥).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: (٦٠).

(٣) المسند (٦/ ١٥٩،٢٠٥).

رابعاً: أن يكون دون الجهر؛ لأنّه أقرب إلى حسن التفكُّر، قال ابن كثير رحمه الله: « ولهذا قال: {**وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**} وهكذا يُستحبُّ أن يكون الذِّكر، لا يكون نداءً وجهرًا بليغاً »(١)، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع النّاس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ: « ياأيُّها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنّ الذي تدعونه سميعٌ قريبٌ أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »(٢).

خامساً: أن يكون باللسان لا بالقلب وحده، وهو مستفادٌ من قوله: {**وَدُونَ الْجَهْرِ**} لأنَّ معناه: ومتكلِّمًا كلامًا دون الجهر، ويكون المرادُ بالآية الأمرَ بالجمع في الذكر بين اللسان والقلب، وقد يقال: هو ذكره في قلبه بلا لسانه بقوله بعد ذلك: {**وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**} إلاّ أنّ الأوّل هو الأصحّ كما حقّق ذلك شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيرُه من أهل العلم.

وقد نظر له رحمه الله بقوله ﷺ فيما روى عن ربّه أنّه قال: « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم »(٣)، قال: وهذا يدخل فيه ذكره باللسان في نفسه، فإنّه جعله قسيمَ الذكر في الملأ وهو نظير قوله: {**وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**}، والدليل على ذلك أنّه قال: {**بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**}، ومعلوم أنَّ ذكر الله المشروعَ بالغدوِّ والآصال في الصلاة وخارج الصلاة هو باللسان مع القلب، مثل صلاتي الفجر والعصر، والذّكر المشروع عقب الصلاتين، وما أمر به النبي ﷺ وعلّمه وفعله من

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٤٤).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٢٠٥)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧٠٤).
(٣) صحيح البخاري (رقم:٧٤٠٥)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٧٥).

الأذكار والأدعية المأثورة من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النّهار بالغدو والآصال[١].

سادساً: أن يكون بالغدوّ والآصال، أي في البكرة والعشيِّ، فتدلُّ الآية على مزيَّة هذين الوقتين، لأنَّهما وقت سكون ودعة وتعبُّد اجتهاد، وما بينهما الغالبُ فيه الانقطاع إلى أمر المعاش، وقد ورد أنَّ عمل العبد يصعد أوّل النّهار وآخره فطلبُ الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون وأتيناهم وهم يصلّون »[٢].

سابعاً: النهي عن الغفلة عن ذكره بقوله: **{وَلاَ تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ}**[٣]، أي: من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه، وفيه إشعارٌ بطلب دوام ذكره تعالى والاستمرار عليه، وأحبُّ العمل إلى الله أَدْوَمُه وإن قلّ.

فهذه سبعةُ آداب عظيمة اشتملت عليها هذه الآية الكريمة، ذكرها القاسمي في كتاب محاسن التأويل[٤]، وللذكر آداب كثيرة أخرى سيأتي معنا شيء منها لاحقاً إن شاء الله.

ثم إنَّ الله تبارك وتعالى لمّا حثّ على الذكر في هذه الآية ورغّب فيه

---

(١) انظر: الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ٣٣ ـ ٣٦).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٦٣٢).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٥).

(٤) (٧/ ٢٩٣٧،٢٩٣٦).

وحذّر من ضدّه وهو الغفلة، ذكر عقبها في الآية التي تليها ما يقوي دواعي الذكر وينهض الهمم إليه بمدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال سبحانه: {**إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**}[1].

والمراد بقوله: {**إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ**} أي: الملائكة، وقد وصفهم الله في هذه الآية بعدم الاستكبار عن عبادة الله، وأنَّهم يسبّحونه وله يسجدون، وهذا فيه حثٌّ للمؤمنين وترغيب لهم في أن يقتدوا بهم فيما ذكر عنهم؛ لأنَّه إذا كان أولئك وهم معصومون من الذنب والخطأ هذه حالهم في التسبيح والذكر والعبادة فكيف ينبغي أن يكون غيرهم.

ولهذا يقول ابن كثير رحمه الله: « وإنما ذكرهم بهذا ليُتشبَّه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شُرِعَ لنا السجودُ ها هنا لمّا ذكر سجودهم لله ﷻ، كما جاء في الحديث: « ألا تصفُّون كما تصفّ الملائكة عند ربّها، يتمّون الصفوف الأُوَل ويتراصّون في الصف »[2]، وهذه أوّل سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعيها السجود بالإجماع »[3].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: « ثم ذكر تعالى أنَّ له عبادًا مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة لتعلموا أنَّ الله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلَّةٍ، ولا ليتعزّز بها من ذلَّةٍ، وإنما يريد نفع أنفسكم

(١) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٦).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٤٣٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٤٤).

وأن ترجوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم فقال: {**إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ**} من الملائكة المقرَّبين وحملة العرش والكروبيين {**لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ**} بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربِّهم {**وَيُسَبِّحُونَه**} الليل والنهار لا يفترون {**وَلَهُ**} وحده لا شريك له {**يَسْجُدُونَ**} فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام وليداوموا على عبادة الملك العلاَّم »(١). اهـ كلامه رحمه الله.

والمقصود أنَّ الله تبارك وتعالى لما نهى عباده عن أن يكون من الغافلين ذكر بعد ذلك مثالاً من اجتهاد الملائكة لِيُحْتَذَى ولِيَبْعَثَ على الجدِّ في طاعة الله وذكره، والحمد لله وحده.

❁❁❁

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٦٨).

١٠/ أفضلُ الذكر القرآن الكريم

إنَّ خير ما ينبغي للعبد أن يذكر الله به هو كلامه تبارك وتعالى، الذي هو خيرُ الكلام وأحسنُه وأصدقُه وأنفعُه، وهو وحي الله وتنزيلُه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو أفضل كتاب أنزله الله تبارك وتعالى على أفضل رسول، على عبده ومصطفاه وخيرته من خلقه محمّد بن عبد الله ﷺ.

يقول الله تعالى في بيان شرف هذا القرآن الكريم وفضله: **{وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً}**(١)، قال ابن كثير رحمه الله: « في هذا اعتناءٌ كبيرٌ لشرَفِ الرسول صلوات الله وسلامه عليه، حيث كان يأتيه الملَكُ بالقرآن، صباحاً ومساءً، سفراً وحضراً، فكلُّ مرّة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدّمة، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمّد ﷺ أعظم نبيّ أرسله الله تعالى »(٢).اهـ.

إنَّ فضل القرآن الكريم وشرَفَه ورفيعَ قدره وعلُوَّ مكانته أمرٌ لا يخفى على المسلمين، فهو كتابُ الله ربِّ العالمين، وكلام خالق الخلق أجمعين، فيه نبأُ ما قبلنا، وخبرُ ما بعدنا، وحكمُ ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله

(١) سورة الفرقان، الآية: (٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١١٨).

المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبسُ به الألسن، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يَخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

إنَّ قدر القرآن وفضله هو بقدر الموصوف به وفضله، فالقرآن كلام الله وصفته، وكما أنَّه تبارك وتعالى لا سميَّ له ولا شبيه في أسمائه وصفاته، فلا سميَّ له ولا شبيه له في كلامه، فله تبارك وتعالى الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته، لايشبهه شيء من خلقه، ولا يشبه هو تبارك وتعالى شيئًا من خلقه، تعالى وتقدّس عن الشبيه والنّظير {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**}[1]، والفرق بين كلام الله وكلام المخلوقين هو كالفرق بين الخالق والمخلوقين.

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي رحمه الله: « فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الربِّ على خلقه، وذلك أنَّه منه »[2].

وقد روي هذا اللفظ مرفوعًا إلى النبي ﷺ، إلاّ أنّ رفعه لا يثبت كما أوضح ذلك الإمام البخاري رحمه الله في كتابه « خلقُ أفعال العباد »[3] وغيرُه من أئمّة العلم. وأما معناه فحق لا ريب فيه، ولا ريب في حسنه وقوّته واستقامته وجمال مدلوله، وقد استشهد أهل العلم لصحّة معناه بنصوص عديدة، بل إنَّ الإمام البخاري رحمه الله جعله عنواناً لأحد تراجم أبواب

---

(١) سورة الشورى، الآية: (١١).

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥٠٤).

(٣) (ص:١٦٢)، وانظر: السلسلة الضعيفة للألباني (٣/ ٥٠٥).

كتاب فضائل القرآن من صحيحه، فقال في الباب السابع عشر منه: « باب فضل القرآن على سائر الكلام »، وأورد تحت هذا الباب حديثين عظيمين:

الأوّل: حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « مثلُ الذي يقرأ القرآن كالأترُجَّةِ طَعمُها طيِّب وريحُها طيِّب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيِّب ولا ريح فيها، ومَثَلُ الفاجر الذي يقرأ القرآن كَمَثَل الرَّيحانة ريحها طيِّب وطعمها مُرٌّ، ومَثَل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرٌّ ولا ريح لها »(١).

قال ابن كثير رحمه الله في كتاب فضائل القرآن، وهو عبارة عن شرح مختصر وعظيم الفائدة لكتاب فضائل القرآن من صحيح البخاري: « ووجه مناسبة الباب لهذا الحديث أن طيب الرائحة دَارَ مع القرآن وجودًا وعدمًا، فدلّ على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر »(٢).

والحديث الثاني: حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « إنما أجلُكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنّصارى كمثل رجل استعمل عمّالا، فقال: من يعملُ لي إلى نصف النّهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من حقّكم، قالوا: لا، قال: فذاك فضلي أوتيه من شئتُ

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٥٠٢٠)، وصحيح مسلم (رقم:٧٩٧).
(٢) فضائل القرآن (ص:١٠١).

».[1]

قال ابن كثير رحمه الله: « ومناسبته للترجمة أنَّ هذه الأمة مع قصر مدّتها فَضَلَت الأمم الماضية مع طول مدّتها، كما قال تعالى: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}**[2] وفي المسند والسنن عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: « أنتم تُوفُّون سبعين أمّة، أنتم خيرُها وأكرمُها على الله »[3]، وإنّما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم: القرآن الذي شرّفه الله على كلِّ كتاب أنزله وجعله مهيمنًا عليه، وناسخاً له وخاتمًا له، لأنَّ كلَّ الكتب المتقدّمة نزلت إلى الأرض جملةً واحدةً، وهذا القرآن نزل مُنجَّماً بحسب الوقائع لشدّة الاعتناء به وبمن أنزل عليه، فكل مرّة كنزول كتاب من الكتب المتقدّمة.

وأعظم الأمم المتقدّمة هم اليهود والنّصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمن عيسى عليهما السلام، والنّصارى من ثمّ إلى أن بعث محمّداً ﷺ، ثم استعمل أمّته إلى قيام الساعة، وهو المُشَبَّه بآخر النهار، وأعطى المتقدّمين قيراطًا قيراطًا، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفي ما أعطى أولئك، فقالوا: أيْ ربَّنا، ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً؟ فقال: هل ظلمتكم من أجرِكم شيئاً، قالوا: لا، قال: فذاك فضلي، أي: الزائد على ما أعطيتكم أوتيه من أشاء، كما قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**

(١) صحيح البخاري (رقم:٥٠٢١).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١١٠).

(٣) المسند (٥/٣)، سنن الترمذي (رقم:٣٠٠١)، سنن ابن ماجه (رقم:٤٢٨٨)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٢٣٠١).

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ}(١) »(٢).

إنَّ الواجب علينا أن نعظّم القرآن الكريم، الذي هو مصدر عزِّنا وسبيل سعادتنا، ونحفظ له منزلته ومكانته، ونَقدرَه حق قدره، [ونعمل به].

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: « من كان يحب أن يعلم أنَّه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن، فإن أحبّ القرآن فهو يحبُّ الله، فإنَّما القرآن كلام الله ».

ويقول رضي الله عنه: « القرآن كلامُ الله، فمن ردّ منه شيئاً فإنَّما يردّ على الله ».

والآثار في هذا المعنى كثيرةٌ، فنسأل الله الكريم أن يعمر قلوبنا بحب القرآن وتعظيمه وتوقيره [والعمل به]، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصّته.

(١) سورة الحديد، الآيات: (٢٨،٢٩).
(٢) فضائل القرآن (ص:١٠٣،١٠٢).

١١ / نزول القرآن في شهر رمضان

لا ريب أنَّ [من] أجلِّ نِعم الله على الإطلاق وأشرفِها وأعظمِها نعمةُ إنزالِه الكتاب العظيم على عبده ورسوله نبيّنا محمد ﷺ ، فهذه نعمةٌ عظمَى ومنّة كبرى امتنّ الله بها على عباده وحمد نفسه عليها وتمدّح إلى عباده بها، وبيّن عظم شأنها في آيٍ كثيرة من القرآن.

يقول الله تعالى: {**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**}(١)، ويقول تعالى: {**تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ، إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، أَلاَ للهِ الدِّينُ الخَالِصُ**}(٢)، ويقول تعالى: {**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**}(٣)، ويقول تعالى: {**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالفُرْقَانِ**}(٤).

إنَّ لشهر رمضان الكريم شهر الصوم خصوصيةً بالقرآن، فهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن الكريم هدى للنّاس. وقد امتدح الله تعالى في الآية الكريمة المتقدّمة شهرَ الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهنَّ لإنزال القرآن العظيم، بل قد ورد في الحديث بأنّه الشهرُ الذي كانت الكتبُ الإلهيةُ تنزل فيه على الأنبياء، ففي المسند للإمام أحمد، والمعجم الكبير

---

(١) سورة الفرقان، الآية: (١).

(٢) سورة الزمر، الآيات: (١ ـ ٣).

(٣) سورة الشعراء، الآيات: (١٩٢ ـ ١٩٥).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

للطبراني، من حديث واثلة بن الأسقع أنَّ رسول الله ﷺ قال: « أُنزلت صُحُفُ إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراةُ لِسِتٍّ مضين من رمضان، والإنجيلُ لثلاث عشرةَ خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان »[1].

قال الهيثمي: « وفيه عمران بن داود القطان، ضعّفه يحيى ووثّقه ابن حبان. وقال أحمد: أرجو أن يكون صالح الحديث، وبقيّة رجاله ثقات »[2].

وله شاهدٌ من حديث جابر رضي الله عنه أخرجه أبو يعلى في مسنده[3] بنحو الحديث المتقدّم، وفي إسناده سفيان بن وكيع وهو ضعيف.

وله شاهدٌ آخر يرويه ابن عساكر في تاريخه من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس وهو منقطعٌ، فعليٌّ لم ير ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن صحّ هذا الحديث فهو يدلّ على أنَّ شهر رمضان هو الشهر الذي كانت تنزل فيه الكتب الإلهية على الرسل عليهم السلام.

إلاّ أنّها كانت تنزل على النبيّ الذي أنزلت عليه جملةً واحدةً، وأمّا القرآن الكريم فلمزيد شرفه وعظيم فضله، فإنّما نزل جملةً واحدةً إلى بيت العزّة من السماء الدنيا، وكان ذلك في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك. قال الله تعالى: **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}**[4]، وقال تعالى: **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي**

(١) المسند (٤/ ١٠٧)، والمعجم الكبير للطبراني (٢٢/رقم:١٨٥)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:١٥٧٥).

(٢) مجمع الزوائد (١/ ١٩٧).

(٣) مسند أبي يعلى (رقم:٢١٨٧).

(٤) سورة الدخان، الآية: (٣).

لَيْلَةِ القَدْرِ}(١)، وقال تعالى: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ}**(٢)، فدلّت هذه الآياتُ الثلاث على أنَّ القرآن الكريم أنزل في ليلةٍ واحدةٍ، توصف بأنَّها ليلةٌ مباركةٌ وهي ليلة القدر، وهي من ليالي شهر رمضان المبارك، ثم بعد ذلك نزل مفرّقًا على مواقع النّجوم يتلو بعضه بعضًا، هكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من غير وجه.

فروى الحاكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: « أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا وكان بمواقع النّجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض »(٣).

وروى أيضاً عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: « أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة. ثم قرأ: **{وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً}**(٤)، **{وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً}**(٥) »(٦).

وروى ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه سأله عطيّة بن الأسود فقال: وقع في قلبي الشك في قول الله تعالى: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ}** وقوله: **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}**، وقوله: **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ}**، وقد أنزل في شوّال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرّم وصفر وشهر

---

(١) سورة القدر، الآية: (١).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

(٣) المستدرك (٢/ ٢٢٢).

(٤) سورة الفرقان، الآية: (٣٣).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (١٠٦).

(٦) المستدرك (٢/ ٢٢٢).

ربيع؟ فقال ابن عباس: « إنَّه نزل في رمضان في ليلة القدر، وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النّجوم ترتيلاً في الشّهور والأيّام »[١].

إنَّ الحكمة في هذا النزول هي تعظيم القرآن الكريم وتعظيم أمر مَن نزل عليه وهو رسول الله ﷺ، وتعظيم الشهر الذي نزل فيه وهو شهر رمضان، واللَّيلة التي نزل فيها وهي ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر، يقول الله تعالى: { **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**}.

ثم إنَّ ما تقدّم لَيدلُّ أعظم دلالة على عظم شأن شهر الصوم، شهر رمضان المبارك، وأنَّ له خصوصية بالقرآن الكريم، إذ فيه حصل للأمّة من الله هذا الفضل العظيم، نزول وحيه العظيم، وكلامه الكريم المشتملِ على الهداية {**هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**}[٢] الهداية لمصالح الدين والدنيا، وفيه تبيان الحقِّ بأوضح بيان، وفيه الفرقان بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والظلمات والنّور.

فحقيقٌ بشهرٍ هذا فضلُه وهذا إحسانُ الله على عباده فيه أن يعظِّمه العباد وأن يكون موسمًا لهم للعبادة وزادًا ليوم المعاد.

وهذا فيه دلالةٌ بالغةٌ على استحباب دراسة القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك، والاجتهاد في ذلك، والإكثار من تلاوته فيه، وعرض القرآن على من هو أحفظُ له، والزيادة في مدارسته.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣١٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٨٥).

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:
« كان النبيُّ ﷺ أجودَ النّاس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، وكان جبريل يلقاه كلّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجودَ بالخير من الرّيح المرسلة »(١).

وقد كان ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره، وهذا أمرٌ يشرع لكل من أراد أن يزيد في القراءة ويطيل وكان يصلّي لنفسه فليطوّل ما شاء، وكذلك من صلّى بجماعة يرضون بصلاته، وأمّا سوى ذلك فالمشروع التخفيف، قال الإمامُ أحمدُ لبعض أصحابه وكان يصلّي بهم في رمضان: « هؤلاء قوم ضعفى اقرأ خمسًا ستًّا سبعًا، قال فقرأت فختمتُ ليلة سبع وعشرين »(٢). فأرشدَه رحمه الله إلى أن يراعي حال المأمومين فلا يشقُّ عليهم.

وكان السَّلفُ رحمهم الله يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها، فكان الأسود يقرأ القرآن في كلِّ ليلتين في رمضان.

وكان النخعي يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة وفي بقيّة الشهر في ثلاث.

وكان قتادة يختم في كلِّ سبع دائماً وفي رمضان في كلِّ ثلاث، وفي العشر الأواخر كلَّ ليلة.

وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنّما هو تلاوة القرآن وإطعام

(١) صحيح البخاري (رقم:١٩٠٢)، وصحيح مسلم (رقم:٢٣٠٨).
(٢) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف (ص:١٨٠).

الطعام.

وكان مالكٌ رحمه الله إذا دخل رمضان يفرُّ من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم ويُقبل على تلاوة القرآن من المصحف.

وكان قتادة يدرس القرآن في شهر رمضان.

وكان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على تلاوة القرآن.

والآثارُ عنهم في هذا المعنى كثيرة[1]، رزقنا الله وإيّاكم حسن اتّباعهم والسير على آثارهم، ونسأله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

۞۞۞

(١) انظر: لطائف المعارف لابن رجب (ص:١٨١).

١٢/ المطلوب من القرآن فهمُ معانيه والعمل به

يقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَن تَبُورَ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}(١).

إنَّ تلاوة القرآن وتدبّره هي أعظم أبواب الهداية، فإنَّ الله تبارك وتعالى قد أنزل كتابه المبين على عباده هدى ورحمة وضياءً ونورًا وبشرى وذكرى للذّاكرين، وجعله مباركًا وهدى للعالمين، وجعل فيه شفاء من الأسقام ولا سِيَما أسقام القلوب وأمراضها من شبهات وشهوات، وجعله رحمة للعالمين، يهدي للتي هي أقوم، وصرّف فيه من الآيات والوعيد لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكرى.

قال الله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}(٢)، وقال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}(٣)، وقال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}(٤)، وقال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}(٥)، وقال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ

(١) سورة فاطر، الآية: (٢٩، ٣٠).
(٢) سورة النحل، الآية: (٨٩).
(٣) سورة الأعراف، الآية: (٥٢).
(٤) سورة الأنعام ، الآية: (١٥٥).
(٥) سورة الأنعام ، الآية: (٩٢).

أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}(١)، وقال تعالى: {**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً**}(٢).

ولهذا فإنَّ الله تبارك وتعالى أمر عباده وحثّهم على قراءة القرآن وتدبُّره في غير آية من القرآن، قال تعالى: {**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**}(٣)، وقال تعالى: {**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**}(٤)، وأخبر سبحانه أنَّه إنَّما أنزله لتُتدبر آياتُه، فقال تعالى: {**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ**}(٥)، وبيّن سبحانه أنَّ سبب عدم هداية من ضلَّ عن الصراط المستقيم هو ترك تدبُّر القرآن والاستكبار عن سماعه فقال تعالى: {**قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ، أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ**}(٦)، أي: أنَّهم لو تدبّروا القرآن لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر والعصيان، فدلّ ذلك على أنَّ تدبّر القرآن يدعو إلى كلِّ خير ويعصم من كلِّ شر.

ووصف الله القرآن بأنَّه أحسنُ الحديث، وأنَّه تعالى ثنى فيه من الآيات

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٩).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (٨٢).

(٣) سورة النساء، الآية: (٨٢).

(٤) سورة محمد، الآية: (٢٤).

(٥) سورة ص، الآية: (٢٩).

(٦) سورة المؤمنون، الآية: (٦٦ ـ ٦٨).

وردّد القول فيه ليفهم، وأنَّ جلود الأبرار عند سماعه تقشعرّ خشيةً وخوفاً فقال تعالى: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}(١).

وعاتب سبحانه المؤمنين على عدم خشوعهم عند سماع القرآن، وحذّرهم من مشابهة الكفّار في ذلك، فقال سبحانه: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}(٢)، وأخبر سبحانه عن القرآن أنّه يزيد المؤمنين إيمانًا إذا قرأوه وتدبّروا آياته فقال سبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}(٣).

وأخبر عن صالح أهل الكتاب أنَّ القرآن إذا تلي عليهم يخرّون للأذقان سُجَّداً يبكون ويزيدهم خشوعاً وإيماناً وتسليماً، فقال سبحانه: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً، وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً}(٤).

وأخبر سبحانه بأنّه لو أنزل القرآن الكريم على جبل لخشع وتصدّع من

---

(١) سورة الزّمر، الآية: (٢٣).

(٢) سورة الحديد، الآية: (١٦).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٢).

(٤) سورة الإسراء، الآية: (١٠٧ ـ ١٠٩).

خشية الله ﷻ، وجعل هذا مثلاً للنّاس يبيِّن لهم عظمة القرآن وقوّة أثره فقال تعالى: {**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**}(١).

ثم مع هذا فإنَّ الله تعالى قد حذّر عباده من الإعراض عن القرآن الكريم أشدَّ التحذير، وبيّن لهم خطورة ذلك، وما يجنيه مَن فَعلَ ذلك من الإثم والوزر الذي يحمله معه يوم القيامة بسبب إعراضه عن القرآن وعدم تلقّيه بالقبول والتسليم، يقول الله تعالى: {**وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً، مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً**}(٢)، فإذا كان القرآن ذكرًا للرسول الله ﷺ ولأمّته، فيجب تلقّيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يُهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يُقبل عليه بالتعلّم والتعليم، وأما مقابلته بالإعراض والصدود، أو بما هو [أخطر] من ذلك من الإنكار والجحود، فإنَّه كفرٌ لهذه النعمة يستحق فاعله العقوبة.

ولهذا قال تعالى: {**مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً**}(٣)، وقوله في الآية: { **وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً** } فيه وصف للقرآن الكريم بأنَّه ذكر، وقد مرّ معنا آيات كثيرة في هذا المعنى، وهذا يعني أنَّ القرآن الكريم فيه ذكر للأخبار السابقة واللاَّحقة، وذِكرٌ يُتَذكّرُ به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكّر به أحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء، وهذا

(١) سورة الحشر، الآية: (٢١).
(٢) سورة طه، الآية: (٩٩ ـ ١٠١).
(٣) سورة طه، الآية: (١٠٠).

أيضا ممّا يدلّ على أنَّ القرآن مشتملٌ على أحسن ما يكون من الأحكام التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها.

إنَّ كتاباً هذا بعض شأنه لحريٌّ بكل مسلم أن يعظّمه ويقدره حق قدره، ويتلوه حق تلاوته بتدبر آياته والتفكر والتعقل لمعانيه، وبالعمل بما يقتضيه، وكما يقول العلاّمة ابن القيِّم رحمه الله: « فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبّر والتفكّر فإنَّه جامعٌ لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مرّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرّرها ولو مائة مرّة ولو ليلة، فقراءة آيةٍ بتفكّرٍ وتفهّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبّر وتفهُّم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن »(١).

اهـ كلامه رحمه الله.

وهو كما ترى واف الدلالة عظيم الفائدة، ومن كان في قراءته للقرآن على هذا الوصف أثّر فيه القرآن غاية التأثير وانتفع بتلاوته تمام الانتفاع، وكان بذلك من أهل العلم والإيمان الراسخين، وهذا هو مقصود القرآن وغاية مطلوبه، ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإنَّه إن لم تكن هذه همّة حافظه لم يكن من

(١) مفتاح دار السعادة (ص:٢٠٤).

أهل العلم والدين »[١].

اللّهم وَفِّقنا لتحقيق ذلك على الوجه الذي يُرضيك عنّا يا ذا الجلال والإكرام.

۞۞۞

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٢١٣).

١٣/ آدابُ حملة القرآن

لقد مرّ معنا بيان فضل القرآن الكريم، كلام ربّ العالمين وعظم شأن تلاوته وتدبّره، وما يترتّب على ذلك من أجورٍ عظيمةٍ وأفضالٍ كريمةٍ وخيراتٍ عميمةٍ في الدنيا والآخرة، وسيكون الحديثُ هنا بإذن الله عن أخلاق حملة القرآن التي ينبغي أن يتحلوا بها، وآداب وصفات أهله التي ينبغي أن يتأدّبوا بها، ولا ريب في شرف هذا الموضوع وعظم شأنه وحاجتنا دائماً إلى تذاكره ومدارسته.

وقد كان أهلُ العلم وأئمّة الفضل والخير يولون هذا الموضوع عنايةً خاصةً ويعتنون به عنايةً فائقةً، إذ به تأتي ثمرة القرآن، وينال ما يترتّب عليه من أجورٍ عظيمةٍ وثوابٍ وإحسانٍ، وبدون هذه الآداب لا ينال التالي الثمرة المرجوة، ولا يحصل الخير العظيم والثواب الجزيل المأمول، بل ربَّما كان القرآن حجّةً عليه، وخصيماً له يوم القيامة.

فقد ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: « إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين ». وثبت عنه ﷺ أنّه قال: « والقرآن حجّة لك أو عليك »، وكلاهما في صحيح مسلم(١).

فالقرآن حجَّةٌ لمن عمل به وتأدّب بآدابه، وأمّا من ضيّع حدوده وأهمل حقوقه، وفرّط في واجباته فإنَّ القرآن يكون حجّةً عليه يوم القيامة.

ولهذا يقول قتادة رحمه الله: « لم يجالس هذا القرآن أحدٌ إلاّ قام عنه

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٨١٧)، (رقم:٢٢٣).

بزيادة أو نقصان »[١]. أي: بزيادة في الإيمان والخير إن عمل به، أو نقصان من ذلك إن أهمله وضيّع حقوقه.

لقد كتب أهلُ العلم في هذا الموضوع آدابِ وأخلاقِ حملة القرآن كتاباتٍ عظيمةً، وألّفوا في هذا الباب مؤلّفاتٍ قيّمةً نافعةً، وهي عديدةٌ ومتنوّعةٌ إلاَّ أنَّ من أحسنها وفاء بهذا الموضوع كتاب « أخلاق حملة القرآن » للإمام العلاّمة أبي بكر محمّد بن الحسين الآجري المتوفّى سنة (٣٦٠هـ)، فهو كتابٌ عظيمُ القدر، جليل الفائدة، وحريٌّ بكل حافظ للقرآن الكريم بل بكل مسلم أن يقف عليه ويفيد منه.

وقد تحدّث فيه مؤلّفه رحمه الله قبل بيانه لآداب حملة القرآن عن فضل حملة القرآن، وفضل من تعلّم القرآن وعلّمه، وفضل الاجتماع في المسجد لدرس القرآن، وقصد رحمه الله من البدء بهذه الأبواب الترغيب في تلاوة القرآن والعمل به والاجتماع لمدارسته، ثم شرع بعد ذلك في بيان آداب حملة القرآن مستدلاً على كل ما يقول بالنّصوص القرآنية والأحاديث النبويّة والآثار المرويّة عن سلف الأمّة.

ولعلّنا نأتي هنا على جملةٍ طيّبةٍ من هذه الآداب الكريمة والخلال العظيمة التي ينبغي أن يتحلّى بها أهل القرآن وحملته، بل ينبغي أن يتحلّى بها المسلمون جميعهم.

فمن هذه الآداب[٢]: أن يتحلّى صاحب القرآن بتقوى الله في سرِّه وعلنه، ويقصد بعلمه وعمله وجه الله تعالى، ويريد بتلاوته وحفظه

(١) رواه الآجري في أخلاق حملة القرآن (ص:٧٣).

(٢) انظر: أخلاق حملة القرآن للآجري (ص:٢٤ وما بعدها).

القرب منه سبحانه.

جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه قال: « لقد أتى علينا حينٌ وما نرى أنَّ أحدًا يتعلّم القرآن يريد به إلاّ الله ﷻ، فلمّا كان هاهنا بأخرةٍ خشيتُ أنَّ رجالاً يتعلّمونه يريدون به النّاس وما عندهم فأريدوا اللهَ بقراءتكم وأعمالكم ».

ومن هذه الآداب: أن يتخلّق بأخلاق القرآن الشريفة، ويتأدّب بآدابه الكريمة، ويجعل القرآن ربيعًا لقلبه يعمر به ما خرِب من قلبه، ويصلح به ما فسد منه، يؤدّب نفسه بالقرآن ويصلح به حاله ويقوّي به إيمانه، يقول الله تعالى: {**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**}[١].

فحاملُ القرآن يجعل القرآن دليله إلى كلِّ خير، ورائده إلى كلِّ خُلُقٍ حسنٍ جميلٍ، حافظًا لجميع جوارحه عمّا نهى الله عنه، إن مشى مشى بعلم، وإن قعد قعد بعلم، وإن تكلّم تكلّم بعلم، وإن شرب شرب بعلم، وإن أكل أكل بعلم، يتصفّح القرآن ويقرؤه ليؤدّب نفسه، وليهذّب به سلوكه، وليزيّن به عمله، وليقوّيَ به إيمانه.

لهذا أُنزل القرآن الكريم، ولم ينزل للقراءة والتّلاوة فقط بدون العلم والعمل، قال الفضيل رحمه الله: « إنّما أنزل القرآن ليعمل به فاتّخذ النّاس قراءته عملاً »[٢].

---

(١) سورة طه، الآية: (١٢٤، ١٢٥).

(٢) رواه الآجري في أخلاق حملة القرآن (ص:٤٣).

ومعنى قولِه: لِيُعْمَلَ به: أي لِيُحِلُّوا حلالَه ويحرِّموا حرامَه، فاتّخذ النّاس قراءته عملاً، أي لا يتدبّرونه ولا يعملون به.

ومن هذه الآداب: أن تكون همّة من يقرأ القرآن ايقاع الفهم لما ألزمه الله من اتّباع ما أمر والانتهاء عمّا نهى، ليس همّته متى أختم السورة، وإنّما همّته متى أستغني بالله عن غيره، متى أكون من المتقين، متى أكون من المحسنين، متى أكون من الخاشعين، متى أكون من الصادقين، متى أعرف قدر النّعم المتواترة، متى أشكر الله عليها، متى أتوب من الذنوب، متى أعقل عن الله الخطاب، متى أفقه ما أتلو، متى أكون بزجر القرآن متّعظًا، متى أكون بذكر الله عن ذكر غيره مشتغلاً، متى أُحبُّ ما أحبَّ وأُبغض ما أبغضَ، فهذه همّته عند تلاوة القرآن.

يقول الإمام الحسن البصري رحمه الله وهو من أجلّة التّابعين، يصف بعض قرّاء زمانه وهو بصدد بيان أهمّيّة تدبّر القرآن والتفقه فيه، يقول: « أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كلّه، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل، حتى إنَّ أحدهم ليقول: إنّي لأقرأ السورة في نَفَس، والله ما هؤلاء بالقرّاء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القرّاء مثل هذا، لا كثّر الله في النّاس مثل هؤلاء »(١).

هذه بعض آداب حملة القرآن ممّا أورده الآجريُّ رحمه الله في كتابه المشار إليه، وقد أنهى ذكره لتلك الآداب بقوله: « فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٣)، والآجري في أخلاق حملة القرآن (ص:٤١).

استعرض القرآن فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح منه، فما حذّره مولاه حذره، وما خوّفه به من عقابه خافه، وما رغّبه فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته

أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته ورعاه حق رعايته، وكان له القرآنُ شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحرزًا، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خير في الدنيا والآخرة »[(١)].

واللهَ المرجو أن يوفّقنا وإيّاكم لذلك ولكلِّ خير والله وحده المستعان.

❁❁❁

(١) أخلاق حملة القرآن (ص:٢٩).

١٤/ تفاضلُ سوَر القرآن، وفضل سورة الفاتحة

مرّ معنا فيما سبق، بيانُ فضل القرآن الكريم، سُوَره وآياته وحروفه، وبيان شرفه وخيريته وعظيم قدره وفضله على سائر الكلام، إذ هو كلام الرب تبارك وتعالى ووحيه وتنزيله، ولعلّ من الحسن والحديثُ ماضٍ بنا في ذلك أنْ نشير إلى ما ورد من النّصوص في تفضيل بعض سُوَر القرآن الكريم وآياته، فإنَّ ذكر الله تبارك وتعالى بتلاوتها وتدبُّرها يترتّب عليه من الأجر والثواب ما لا يترتّب على غيرها لِعِظَم مدلولاتها وقوّة متعلّقها، فإنَّ القرآن الكريم وإنْ كان كلّه كلامَ الله إلاّ أنَّ الكلام نوعان: إمّا إنشاء وإمّا إخبار، والإخبار إمّا خبر عن الخالق وإمّا خبر عن المخلوق، فالإنشاء هو الأحكام كالأمر والنهي، والخبر عن المخلوق هو القصص، والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته، وما من ريبٍ في أنَّ النصوص القرآنية المشتملة على توحيد الله والخبر عن أسمائه وصفاته أفضل من غيرها، كما قال أحد أهل العلم: كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره فـ{**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**}، أفضل من {**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**}، وهذا التفاضل بين السُوَر والآيات ليس باعتبار نسبته إلى المتكلّم، فإنّ المتكلِّمَ به واحدٌ وهو الله سبحانه، ولكن باعتبار معانيه التي تكلّم بها وباعتبار ألفاظه المبيّنة لمعانيه، والنصوص والآثار في تفضيل كلام الله بعضه على بعض كثيرةً جدًّا.

فقد صحّ عن النبي ﷺ أنّه فضّل من السور سورة الفاتحة، وأخبر أنّه لم يُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلُها، وأخبر أنّها أمّ القرآن.

روى الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ

رسول الله ﷺ خرج على أبيّ بن كعب فقال رسولُ الله ﷺ: « يا أُبيّ ـ وهو يصلي ـ فالتفت أُبيٌّ فلم يجبه، وصلّى أُبيٌّ وخفّف، ثمّ انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: « وعليك السلام، ما منعك يا أبيّ أن تجيبني إذ دعوتك »، فقال: يا رسول الله، إني كنت في الصلاة، قال: « أفلم تجد فيما أوحى الله إليَّ أنْ {**اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**}[1] » قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله، قال: « أتحبُّ أن أُعلِّمَك سورةً لم يُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزّبور ولا في القرآن مثلُها »، قال: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: « كيف تقرأ في الصلاة؟ »، قال: فقرأ أمَّ القرآن، فقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده، ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلُها، وإنَّها سبعٌ من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته »، وصحّحه العلاّمة الألبانيُّ حفظه الله[2].

[وفي صحيح البخاري[3] من حديث أبي سعيد بن المعلَّى نحو حديث أُبيٍّ، وفيه التصريح بأنَّها أعظم سورة في القرآن، وأنَّها السبع المثاني والقرآن العظيم].

وروى البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أمّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم »[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٢٤).

(٢) سنن الترمذي (رقم:٢٨٧٥)، صحيح سنن الترمذي (٣/ ٣).

(٣) (برقم:٥٠٠٦،٤٦٤٧،٤٤٧٥).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٤٧٠٤).

ومن فضل هذه السورة أنّها لا صلاة لمن لم يقرأ بها، وكلُّ صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداجٌ غيرُ تمام، خرّج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداجٌ ـ ثلاثاً ـ غيرُ تمام »، فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولِعبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} قال: مجّدني عبدي، وقال مرّة: فوّض إليَّ عبدي، فإذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قال: هذه بيني وبين عبدي ولِعبدي ما سأل، فإذا قال: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} قال: هذا لِعبدي ولعبدي ما سأل »[١].

فهذه الأحاديثُ ونحوُها تدلُّ على عظيم قدر هذه السورة الكريمة وأنّها أعظم سُوَر القرآن بل لم يُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلُها، وهي أمُّ القرآن، فالقرآن كلُّه تفسير لها وشرحٌ لمجملها، وذلك لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد ونحو ذلك.

قال ابن القيِّم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين: « اعلم أنَّ هذه السورة اشتملت على أمّهات المطالب العالية أتمّ اشتمال وتضمّنتها أكمل تضمّن، فاشتملت على التّعريف بالمعبود تبارك

(١) صحيح مسلم (رقم:٣٩٥).

وتعالى بثلاثة أسماء مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها ومدارها عليها، وهي: الله والرّبُّ والرّحمن، وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرّحمة .. إلى أن قال: وتضمّنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيِّئها، وتفرّد الربّ تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكلُّ هذا

تحت قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، وتضمّنت إثبات النّبوّات من جهات عديدة ... »[1]، ثمّ أطال النّفَسَ رحمه الله في بيان ما تضمّنته هذه السورة من أمّهات المطالب العالية، وما تضمّنته من الرّدّ على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمّنته من منازل السائرين ومقامات العابدين، وبيان أنّه لا يقوم غيرُ هذه السورة مقامها ولا يسدُّ مسدّها.

ومن هنا فإنّه يتأكّد على كلّ مسلم أن تعظم عنايته بهذه السورة الكريمة حفظًا وتلاوةً ومدارسةً وتدبُّرًا، فالمسلم يقرؤها في الصلاة المكتوبة في اليوم والليلة سبع عشرة مرّة، وإذا كان محافظًا على النّوافل أو على كثيرٍ منها فإنّه يقرؤها مرّات كثيرة، لا يحصيها مدّة عمره وطول حياته إلاّ اللهُ تبارك وتعالى، ومن أسفٍ أنّك ترى مع ذلك في بعض المسلمين من لا يحسن قراءة هذه السورة الكريمة، بل لربّما يلحن فيها لحنًا يفسد معناها، أو يخلُّ بمدلولها، أو ترى فيهم من لا يُعْنَى بتدبّرها وتفهُّمِها وتعقُّل معانيها ومعرفة مدلولاتها. والواجب من عباد الله المؤمنين كلِّهم تعظيمُ هذه السورة الكريمة وقدرُها حقّ قدرها، وتلاوتُها حقّ تلاوتها؛ إذ هي أعظم سُوَر القرآن وأفرضُها على الأمّة، وأجمعُها لكلِّ ما يحتاج إليه العبد، وأعمُّها نفعاً.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧).

قال ابن القيِّم رحمه الله: « وتالله لا تجد مقالةً فاسدةً ولا بدعةً باطلةً إلاّ وفاتحةُ الكتاب متضمّنةٌ لردّها وإبطالها بأقرب الطرق وأصحّها وأوضحها، ولا تجد باباً من أبواب المعارف الإلهية وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها إلاّ وفي فاتحة الكتاب مفتاحه وموضع الدِّلالة عليه، ولا منزلاً من منازل السائرين إلى ربّ العالمين إلاّ وبدايته ونهايته فيها، ولَعَمْرُ اللهِ إنَّ شأنها لأعظمُ من ذلك، وهي فوق ذلك، وما تحقّق عبدٌ بها واعتصم بها وعقل عمّن تكلّم بها، وأنزلها شفاءً تاماً، وعصمةً بالغةً، ونورًا مبينًا، وفهمها وفهم لوازمها كما ينبغي ووَقَع في بدعةٍ ولا شركٍ ولا أصابه مرضٌ من أمراض القلوب إلاّ لماماً غير مستقرّ »(١).

وبهذا نأتي إلى نهاية ما قُصد بيانه هنا، حامدين لله، مثنين عليه بما هو أهله، وبما أثنى به على نفسه، حمداً غيرَ مكفيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودعٍ، ولا مستغناً عنه ربنا.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨).

١٥/ فضل آية الكرسي، وسورة الإخلاص، وسُوَر أخرى

نواصل الحديث عن تفضيل بعض سور القرآن وآياته، حيث سبق تناول شيء ممّا ورد في فضل سورة الفاتحة التي هي أفضل سور القرآن وأعظمُها على الإطلاق.

وقد صحّ عن النبيِّ ﷺ أنَّ أفضل آية في القرآن الكريم هي آيةُ الكرسي، ففي صحيح مسلم من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: {**اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ**}، قال: فضرب في صدري وقال: واللهِ لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر »(١). أي: ليكن العلمُ هنيئًا لك.

وهذه الآية الكريمة إنّما كانت بهذه المنزلة لعظم ما دلّت عليه من توحيد الله وتمجيده وحسن الثناء عليه، وذِكْرِ نعوت جلاله وكماله، فتضمّنت من أسماء الله خمسة أسماء، وتضمّنت من الصفات ما يزيد على العشرين صفة للربّ تبارك وتعالى، فهي قد اشتملت من ذلك على ما لم تشتمل عليه آية أخرى في القرآن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وليس في القرآن آية واحدة تضمّنت ما تضمّنته آيةُ الكرسي، وإنّما ذَكَرَ اللهُ في أوّل سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدّة آيات لا آيةً واحدةً »(٢).

ولهذا كان من فضل هذه الآية الكريمة أنَّ مَن قرأها في ليلة لم يزل عليه

(١) صحيح مسلم (رقم:٨١٠).
(٢) جواب أهل العلم والإيمان (ص:١٣٣).

من الله حافظ، ولا يَقْرَبُه شيطان حتى يُصبح، وهو في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في سياق طويل[١].

ومن فضلها ما ثبت في سنن النسائي وغيره من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: « من قرأ آية الكرسي في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ لم يمنعه من دخول الجنة إلاّ أن يموت »[٢]، يعني لم يكن بينه وبين دخول الجنة إلاّ الموت، قال ابن القيّم رحمه الله: « بلغني عن شيخنا أبي العباس ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ أنَّه قال: ما تركتها عقيب كلِّ صلاة »[٣].

وقد صحّ عن النبي ﷺ تفضيل سورة الإخلاص، وأنَّها تعدلُ ثلُث القرآن، ففي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رجلا سمع رجلاً يقرأ {**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**} يردّدها، فلمّا أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له وكأنَّ الرجل يتقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده إنَّها لتعدل ثلث القرآن »[٤].

وروى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال النّبيُّ ﷺ لأصحابه: « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة »، فشقّ ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال: « الله الواحد الصمد ثلثُ

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٢٣١١).

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٦/رقم:٩٩٢٨)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:٩٧٢).

(٣) زاد المعاد (١/ ٣٠٤).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٥٠١٣).

القرآن »[١].

وأهل العلم قد تكلّموا في بيان وجه كون هذه السورة تعدل ثلث القرآن، وذكروا في ذلك أجوبةً عديدةً، وأحسنها كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو الجواب المنقول عن أبي العباس بن سريج حيث قال: « معناه أُنزل القرآن على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات »[٢].

قال شيخ الإسلام: « وإذا كانت {**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**} تعدل ثلث القرآن، لم يلزم من ذلك أنَّها أفضلُ من الفاتحة ولا أنَّها يكتفى بتلاوتها ثلاث مرّات عن تلاوة القرآن، بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرئ القرآنُ كلُّه إلاّ مرّة واحدة كما كتبت في المصحف، فإنَّ القرآن يقرأ كما كتب في المصحف لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه ... ولكن إذا قُرئت {**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**} مفردةً تقرأ ثلاث مرّات وأكثر من ذلك، ومن قرأها فله من الأجر ما يعدل ثلث القرآن، لكن عدلَ الشيء يكون من غير جنسه »[٣].اهـ.

ثمّ إنَّ الأحاديث المشتملة على ذكر فضائل السور وثواب من قرأها كثيرة، وجملة منها لا تخلو من ضعف، بل إنَّ فيها ما هو كذب على رسول الله ﷺ؛ ولهذا فإنه يتأكّد على المسلم تحرّي معرفة الصحيح في ذلك، بسؤال أهل العلم، ومدارسة أهل الاختصاص، قال ابن القيِّم رحمه الله في كتابه

(١) صحيح البخاري (رقم:٥٠١٥).
(٢) جواب أهل العلم والإيمان (ص:١١٣).
(٣) جواب أهل العلم والإيمان (ص:١٣٣،١٣٤).

المنار المنيف في الصحيح والضعيف:

« ومنها: ـ أي الأحاديث الموضوعة ـ ذكر فضائل السور وثواب من قرأ سورة كذا، فإنّ أجره كذا، من أوّل القرآن إلى آخره، كما ذكر ذلك الثعلبي والواحدي في أوّل كلِّ سورة، والزمخشري في آخرها، قال

عبد الله بن المبارك: أظن الزنادقة وضعوها.

والذي صحّ في أحاديث السُوَر، حديث فاتحة الكتاب، وأنّه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلُها، وحديث البقرة وآل عمران أنهما الزهراوان، وحديث آية الكرسي وأنها سيِّدة آي القرآن، وحديث الآيتين من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلةٍ كفتاه، وحديث سورة البقرة لا تقرأ في بيت فيقربه شيطان، وحديث العشر آيات من أوّل سورة الكهف من قرأها عصم من فتنة الدّجّال، وحديث ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ وأنّها تعدل ثلث القرآن، ولم يصح في فضائل سورةٍ ما صحّ فيها، وحديث المعوّذتين وأنّه ما تعوّذ المتعوِّذون بمثلها، وقوله ﷺ: « أنزل عليَّ آيات لم يُر مثلُهنَّ، ثمّ قرأها ».

ويلي هذه الأحاديث وهو دونها في الصحة حديث ﴿**إِذَا زُلْزِلَتْ**﴾ تعدل نصف القرآن، وحديث ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ**﴾ تعدل ربع القرآن، وحديث ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ**﴾ هي المنجية من عذاب القبر. ثم سائر الأحاديث بعدُ، كقوله: من قرأ سورة كذا أعطي ثواب كذا فموضوعةٌ على رسول الله ﷺ، وقد اعترف بوضعها واضعُها، وقال: قصدت أن أشغل الناس بالقرآن عن غيره، وقال بعض جهلاء الوضّاعين في هذا النوع: نحن نكذب لرسول الله ﷺ ولا نكذب عليه، ولم يعلم هذا الجاهل أنّه من قال

عليه ما لم يقل فقد كذب عليه واستحقّ الوعيد الشديد »[١]. اهـ كلام ابن القيّم رحمه الله.

وممّا ينبغي أن يعلم هنا أن فضل القراءة لهذه السور وغيرها يختلف باختلاف حال التّالي لتلك السور، فالقراءة بتدبّر أفضل من القراءة بلا تدبّر، فقد يكون حال بعض الناس في قراءة بعض السور وما يصاحبهم حال القراءة من خشوع وتدبّر وتفهّم لكلام الله وعزم صادق على العمل به، خيرًا وأفضل من حال غيرهم ممن ليسوا كذلك، وإن كانت السور التي يقرؤها هؤلاء أفضل، بل إنَّ الإنسان الواحد يختلف حاله فقد يفعل العمل المفضول على وجه كامل فيكون به أفضل من سائر أعماله الفاضلة.

قال شيخ الإسلام: « وكان بعضُ الشيوخ يرقي بـ{**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**} وكان لها بركةٌ عظيمة، فيرقي بها غيرُه فلا يحصل ذلك، فيقول ليس {**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**} من كلِّ أحد تنفع كلَّ أحد»[٢].

وإنّما اختلف أثر هاتين القراءتين مع أنَّ السورةَ المقروءة واحدةٌ، بسبب اختلاف ما قام بالقلب من صدق وإخلاص وتدبّر ويقين ورغبة وخشوع.

واللهَ نرجو أن يوفّقنا وإيّاكم لتحقيق ذلك وحسن القيام به، فهو تبارك وتعالى وحده الموفق لكل خير.

١٦/ *وَسَطِيَّةُ أهلِ القرآن*

مرّ معنا أنَّ خير الذكر وأجلّه وأفضله هو القرآن الكريم، ومرّ معنا فضل حملته فهم أهل الله وخاصّته، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، ولا ريب أنَّ

(١) المنار المنيف (ص:١١٥ ـ ١١٧).
(٢) جواب أهل العلم والإيمان (ص:١٤١).

لحملة القرآن صفاتٍ جليلةً ونعوتا كريمةً وهي كثيرة جدا، إلا أن أهمّ نعوتهم وأجلّ صفاتهم وأبرز علامتهم التوسطُ والاعتدالُ، وذلك بلزوم ما جاء في القرآن والوقوف عنده، دون غلو أو جفاء، ودون إفراطٍ أو تفريطٍ، أو زيادةٍ أو تقصير.

يقول الله تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**}(١)، فلما جعل الله هذه الأمة أمةَ محمد ﷺ أمةً وسطاً أي خياراً عدولاً، خصّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، وجعل كتابه المبين يهدي للتي هي أقوم ويدعو للتي هي أرشد وأحكم، كما قال سبحانه: {**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**}(٢).

ولم ينزل اللهُ هذا القرآن الكريم ليشقى به الناس، وإنما أنزله ليسعدوا به سعادة لا شقاء بعدها، وليهتدوا به هداية لا ضلال بعدها، كما قال سبحانه: {**طَهَ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى، تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**}(٣)، وقد ذكر المفسِّرون في سبب نزول هذه الآيات، أنَّ الله لمّا أنزل القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه خير قيام، فقال المشركون: ما أنزل هذا القرآن على محمّد إلاّ ليشقى، فأنزل الله تعالى قوله: {**طَهَ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ**

(١) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (٩).

(٣) سورة طه، الآيات: (١ ـ ٥).

لِتَشْقَى، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى} أي: فليس الأمر كما زعمه هؤلاء المبطلون، بل من آتاه الله العلم بوحيه والفقه في تنزيله فقد أراد به خيراً كثيراً، قال قتادة رحمه الله في قوله: **{مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}** قال: « لا والله ما جعله شقاءً، ولكن جعله رحمة ونورًا ودليلاً إلى الجنّة »(١).

فحقيقٌ بحامل القرآن بل وبكلِّ مسلم أن يقف عنده فيحلّ حلاله ويحرِّم حرامه ويصدّق بأخباره، ولا يتجاوز بغلوٍّ وإفراط، أو يَقْصِرُ عنه بجفاء وتفريط، بل يكون في ذلك وسطًا.

روى أبو داود في سننه، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وذي السلطان المقسط »، وإسناده حسن، حسّنه الذهبي في الميزان، وابن حجر في التلخيص الحبير وغيرُهما من أهل العلم(٢).

فوصف ﷺ أهلَ القرآن حقًّا وحملته صدقاً الذين يستحقون الإجلال والإكرام، بأنَّ حالهم فيه بين الغلوّ والجفاء، وأخبر أنَّ إكرام هؤلاء أي أهل هذا الوصف من إجلال الله تبارك وتعالى، وما من ريبٍ أنَّ هذه درجةٌ منيفة، ومنزلة شريفة تبوّأها هؤلاء بسبب لزومهم القرآن، وعدم تجانفهم عنه بغلوٍّ أو جفاء أو زيادة أو تقصير.

قال أبو عبيد القاسم بن سلاّم رحمه الله في بيان معنى حديث أبي

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٦٧).

(٢) سنن أبي داود (رقم:٤٨٤٣)، وشعب الإيمان (رقم:٢٤٣١)، والميزان (٢/ ١١٨)، والتلخيص الحبير (٤/ ٥٦٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم:٢١٩٩).

موسى المتقدّم: « فالغالي المفرط في اتباعه حتى يخرجه إلى إكفار النّاس مثل الخوارج، والجافي عنه المضيّع لحدوده المستخفّ به. وفي معنى هذا الحديث قولُ رابعِ الخلفاء الراشدين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: « إنَّ دين الله بين الغالي والمقصِّر، فعليكم بالنُّمرقة الوسطى، فإنَّ بها يلحق المقصّر وإليها يرجع الغالي ».

وهو كلام حسن عظيم الفائدة، قال فيه ثعلب اللغوي المشهور: « ما روي في التوسُّط أحسن من قول أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه » ـ يشير إلى كلامه هذا المتقدّم ـ.

إنّ الشيطان أحرصُ ما يكون على صرف المسلم عن الجادة وإبعاده عن الصراط المستقيم، إمّا إلى غلوّ أو إلى الجفاء، ولا يبالي عدوُّ الله بأيِّ الأمرين منهما ظفر. قال بعض السلف: « ما أمر الله تعالى بأمر إلاّ وللشيطان فيه نزغتان: إمّا إلى تفريط وتقصير، وإمّا إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيِّهما ظفر »[1]. ولِعَدوِّ الله في هذا الأمرِ مكرٌ عجيبٌ وكيدٌ غريبٌ.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه العظيم إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: « ومن كيده ـ أي الشيطان أعاذنا الله وإيّاكم منه ـ أنّه يشامُّ النفس حتى يعلم أي القوّتين تغلب عليها قوّة الإقدام والشجاعة، أم الانكفاف والإحجام والمهانة، فإن رأى الغالبَ على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همّته وإرادته عن المأمور به، وثقله عليه، فهوّن عليه تركه حتى يتركه جملةً أو يقصّر فيه ويتهاون، وإن رأى الغالب عليه قوّة الإقدام

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٣٦).

وعلوّ الهمّة، أخذ يقلّل عنده المأمور به، ويوهمه أنّه لا يكفيه، وأنّه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة فَيَقْصُرُ بالأوّل ويتجاوز بالثاني ... وقد اقتطع أكثر الناس إلاّ أقلّ القليل في هذين الواديين وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدّي، والقليل منهم جدًّا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ... »(١).

ثم أطال رحمه الله في ضرب الأمثلة على ذلك ثم قال: « وهذا باب واسع جدًّا لو تتبّعناه لبلغ مبلغاً كثيرًا »(٢).

وقد صحّ في الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال: « القصدَ القصدَ تبلغوا »(٣)، أي عليكم بالقصد من الأمور في الأقوال والأفعال، والقصد هو الوسط بين الطرفين، وصحّ عن النبي ﷺ أنّه قال كما في المسند وغيره: « عليكم هديًا قاصدًا، فإنّه من يشادّ الدّين يغلبه »(٤)، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: « الاقتصاد في سنّة خيرٌ من الاجتهاد في بدعة »(٥).

قال ابن القيّم رحمه الله: « فدينُ الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسّطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٣٦).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٣٨).

(٣) صحيح البخاري (رقم:٦٤٦٣).

(٤) المسند (٥/ ٣٦١،٣٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم:٤٠٨٦).

(٥) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (١/ ٨٨).

والتفريط، والآفات إنّما تتطرّق إلى الأطراف والأوساط محميةٌ بأطرافها فخيار الأمور أوساطها »[١].

فنسأل الله أن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يجنِّبنا الزلل في القول والعمل، وأن يوفِّقنا للعمل بكتابه واتّباع سنّة رسول الله ﷺ.

۞۞۞

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٠١).

١٧/ أفضليَّةُ القرآن على مجرَّدِ الذكر

إنَّ ملازمة ذكر الله دائماً هي أفضل ما شغل العبد به وقته وصرف فيه أنفاسه، بعد قيامه بفرائض الله التي افترضها على عباده. والذِّكر شاملٌ لكلِّ قول صالحٍ يحبّه الله ويرضاه من تلاوةٍ لكلام الله أو تسبيحٍ أو تحميدٍ أو تكبيرٍ أو تهليلٍ أو دعاءٍ أو غيرِ ذلك، وما من شكٍّ في أنَّ أفضلَ هذه الأذكار وأجلِّها وأعظمها وأرفعها قدراً قراءة القرآن الكريم كلام ربّ العالمين، كما في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: « أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر »[١]، وفي لفظٍ كما في المسند للإمام أحمد عن النبي ﷺ أنّه قال: « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهنَّ من القرآن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر »[٢].

وفي سنن الترمذي وحسّنه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين »[٣]. وكما في الحديث الذي في السنن في الذي سأل النبي ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخذ شيئا من القرآن، فعلِّمني ما يجزئني في صلاتي، قال: « قل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر »[٤].

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢١٣٧).
(٢) المسند (٥/ ٢٠).
(٣) سنن الترمذي (رقم:٢٩٢٦).
(٤) سنن أبي داود (رقم:٨٣٢)، سنن النسائي (٢/ ١٤٣)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح أبي داود (١/ ١٥٧).

ولهذا كانت القراءةُ واجبةً في الصلاة، ولا يُعدلُ عنها إلى الذِّكر إلاّ عند العجز عن ذلك، وهذا واضحٌ في الدِّلالة على أفضلية قراءة القرآن، ويدل على ذلك أيضاً أنَّ القراءة يشترط لها الطهارة الكبرى دون الذِّكر فإنَّه لا يشترط فيه ذلك، وما لم يشرع إلاّ على الحال الأكمل فهو أفضل، كما أنَّ الصلاة لّما اشترط لها الطّهارتان كانت أفضل من مجرّد القراءة، كما قال النبي ﷺ: « استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أنَّ خيرَ أعمالكم الصلاة »(١)، ولهذا نصّ العلماء على أنَّ أفضل تطوّع البدن الصلاة، وأيضاً فما يكتب فيه القرآن لا يمسّه إلاّ طاهر دون ما يكتب فيه الذِّكر فإنَّه لا يشترط فيه ذلك.

فهذا كلّه يدلّ على أن قراءة القرآن الكريم هي أفضل من التسبيح والتحميد والتكبير وغير ذلك من الأذكار، هذا من حيث الجملة، وإلاّ فإنَّه قد يقترن بالعمل المفضول ما يجعله أفضل.

وقد أوضح هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وبيَّنه بيانًا وافيًا في جوابٍ له عن هذه المسألة(٢)، يقول رحمه الله:

« وتحقيق ذلك أنَّ العمل المفضول قد يقترن به ما يصيّره أفضل من ذلك وهو نوعان:

أحدهما: ما هو مشروع لجميع الناس.

والثاني: ما يختلف باختلاف أحوال الناس.

أما الأوّل: فمثل أن يقترن إما بزمان أو بمكان أو عمل يكون (به)

---

(١) المسند للإمام أحمد (٥/ ٢٧٦، ٢٨٢)، وصححه العلاَّمة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٩٥٢).

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٢٣٣ وما بعدها).

أفضل، مثل ما بعد الفجر والعصر ونحوهما من أوقات النهي عن الصلاة، فإنَّ القراءة والذِّكر والدعاء أفضلُ في هذا الزمان، وكذلك الأمكنةُ التي نُهي عن الصلاة فيها كالحمّام وأعطانِ الإبل، فالذِّكرُ والدعاء فيها أفضل، وكذلك الجنب الذِّكر في حقّه أفضل، فإذا كُره الأفضل في حال حصول مفسدة كان المفضول هناك أفضل بل هو المشروع.

وكذلك حال الركوع والسجود، فإنَّه قد صحّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: « نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، أما الركوع فعظِّموا فيه الرّب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم »(١).

وقد اتّفق العلماء على كراهة القراءة في الركوع والسجود، وتنازعوا في بطلان الصلاة بذلك على قولين هما وجهان في مذهب الإمام أحمد، وذلك تشريفاً للقرآن وتعظيماً له أن لا يقرأ في حال الخضوع والذُّلّ، وما بعد التشهّد هو حال الدعاء المشروع بفعل النبي ﷺ وأمره، والدعاءُ فيه هو الأفضل، بل هو المشروع دون القراءة والذِّكر، وكذلك حال الطّواف، وبعرفة ومزدلفة وعند رمي الجمار المشروع هناك هو الذكر والدعاء.

ثم ذكر رحمه الله **النوع الثاني**: وهو أن يكون العبد عاجزاً عن العمل الأفضل، إما عاجزاً عن أصله كمن لا يحفظ القرآن ولا يستطيع حفظه كالأعرابي الذي سأل النبي ﷺ، أو عاجزاً عن فعله على وجه الكمال مع قدرته على فعل المفضول على وجه الكمال، إلى أن قال:

وليس كلُّ ما كان أفضل يشرع لكلِّ أحد، بل كلُّ واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له، فمن الناس من تكون الصدقة أفضل له من الصيام

(١) رواه مسلم (رقم:٤٧٩).

وبالعكس، وإن كان جنس الصدقة أفضل، ومن الناس من يكون الحج أفضل له من الجهاد كالنساء وكمن يعجز عن الجهاد، وإن كان جنس الجهاد أفضل، ثم قال:

إذا عُرف هذا فيقال: الأذكار المشروعة في أوقات متعيّنة، مثل ما يقال عند جواب المؤذّن هو أفضل من القراءة في تلك الحال، وكذلك ما سنّه النبي ﷺ فيما يقال عند الصباح والمساء وإتيان المضطجع هو مقدّمٌ على غيره، وأما إذا قام من الليل فالقراءة له أفضل إذا أطاقها، وإلاّ فليعمل ما يطيق، والصلاةُ أفضل منهما، ولهذا نقلهم عند نسخ وجوب قيام الليل إلى القراءة فقال: {**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**}[١] ». اهـ.

وبهذا التحقيق الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله يتبيّن القول الفصل في هذه المسألة العظيمة، فتلاوة القرآن الكريم هي أفضل الأذكار، ومقدَّمة على التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والدعاء والاستغفار وغير ذلك من الأدعية والأذكار، إلاّ أنَّ هناك حالات معيَّنة تقترن بالعمل الفاضل يكون بها أفضل من غيره، وقد أشار شيخ الإسلام في تحقيقه المتقدّم إلى أمثلة عديدة لذلك.

روى الطبري عن عمرو بن أبي سلمة، قال: « سألتُ الأوزاعي عن قراءة القرآن أعْجَبُ إليك أم الذكر؟ فقال: سل أبا محمّد ـ يعني سعيد بن المسيّب ـ فسألته؟ فقال: بل القرآن. فقال الأوزاعي: إنّه ليس شيءٌ يعدل

(١) سورة المزّمّل، الآية: (٢٠).

القرآن، ولكن إنَّما كان هدي من سلف يذكرون الله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل الغروب »[١].

فأشار رحمه الله إلى أنَّ القرآن هو أفضل الأذكار ولا يعدله شيء، لكنَّ الأذكار الواردة في الصباح والمساء وأدبار الصلوات وغيرها تكون في وقتها أفضل، والله أعلم، وصلّى الله وسلّم على نبيِّنا محمّد وآله وصحبه.

۞۞۞

(١) أورده القرطبي في التذكار في أفضل الأذكار (ص:٥٩).

١٨/ فضلُ طلب العلم

ما من شكٍّ في أنَّ الاشتغال بطلب العلم وتحصيله، ومعرفة الحلال والحرام، ومدارسة القرآن الكريم، وتدبُّره، ومعرفة سنّة رسول الله ﷺ وسيرته وأخباره هو خيرُ الذكر وأفضلُه، ومجالسه خير المجالس، وهي أفضل من مجالس ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير؛ لأنّها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية، والذكر المجرّد تطوّع محض.

ولهذا فقد ثبت عن النبي ﷺ في تفضيل العلم وتقديمه على العبادة، وتقديم العالم على العابد أنّه قال: « وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » خرّجه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم من حديث أبي الدرداء(١).

وقد تضمّن هذا الحديث مثلاً بديعاً يتضّح من خلاله مدى الفرق بين العالم والعابد، حيث شبّه ﷺ العالم بالقمر ليلة البدر، أي ليلة الخامسَ عشر والتي فيها يكون نهاية كمال القمر وتمام نوره، وشبّه العابد بالكواكب، وفي هذا التشبيه سرٌّ لطيف نبّه عليه أهل العلم.

يقول الإمام ابن رجب رحمه الله: « والسّر في ذلك والله أعلم، أنَّ الكوكب ضوءه لا يعدو نفسه، وأما القمر ليلة البدر فإنَّ نوره يشرقُ على أهل الأرض جميعًا فيعمّهم نورُه، فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في سيرهم، وإنّما قال على سائر الكواكب، ولم يقل على سائر النّجوم؛ لأنَّ الكواكب

---

(١) المسند (٥/ ١٩٦)، وسنن الترمذي (رقم:٢٦٨٢)، وسنن ابن ماجه (رقم:٢٢٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٦٢٩٧).

هي التي تسير ولا يُهتدى بها، فهي بمنزلة العابد الذي نفعه مقصور على نفسه »[١].

فدلّ الحديث على تفضيل العلم على العبادة تفضيلاً بيِّناً، وثبت عن النبي ﷺ في مسند البزار، ومستدرك الحاكم وغيرهما، من حديث سعد ابن أبي وقّاص رضي الله عنه أنّه قال: « فضل العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع »[٢].

ومما يدلّ على تفضيل العلم على جميع النوافل والمستحبّات، بما فيها الذِّكر، أنَّ العلم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرّقة، روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: « تعلّموا العلم فإنَّ تعلُّمه حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنّه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل أهل الجنّة، وهو الأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السّرّاء والضّرّاء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاّء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادةً وأئمّةً، تُقتصُّ آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كلّ رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامّه، وسباع البرّ وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل

(١) شرح حديث أبي ذر في طلب العلم (ص:٣٣).

(٢) مسند البزار (٧/ رقم:٢٩٦٩) من حديث حذيفة بن اليمان ، والمستدرك (١/ ٩٢) من حديث سعد، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٤٢١٤).

الصيام، ومدارسته تعدل القيام، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهَمه السعداء ويُحرمه الأشقياء ». رواه ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله، وقال: « وهو حديث حسن جداً، ولكن ليس له إسنادٌ قويٌّ »[١].

وقد جاء عن السلف الصالح رحمهم الله في تفضيل العلم آثارٌ كثيرةٌ[٢]، يقول الثوري رحمه الله: « ما يُراد الله ﷻ بشيء أفضلُ من طلب العلم، وما طُلب العلم في زمان أفضلَ منه اليوم ».

وقال ميمون بن مهران: « إنَّ مثل العالم في البلد كمثل عين عذبة في البلد ».

وقال الحسن البصري: « العالم خيرٌ من الزاهد في الدنيا المجتهد في العبادة، ينشر حكمة الله فإن قبلت حمد الله، وإن رُدّت حمد الله ».

وقال الإمام الشافعي: « طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ».

وسئل الإمام أحمد: « أيُّما أحبُّ إليك أن أصلّي بالليل تطوُّعاً أو أجلس أنسخ العلم؟ قال: إذا كنت تنسخ ما تعلم من أمر دينك فهو أحبُّ إليّ ». وقال أيضا: « العلم لا يعدله شيء ».

وإذا كان أهل العلم بهذه المنزلة الرفيعة والدرجة العالية فإنَّ الواجب على من سواهم أن يحفظ لهم قدرهم ويعرف لهم مكانتهم وينزلهم منازلهم، فقد رُوي عن النبي ﷺ أنَّه قال: « ليس منّا من لم يرحم صغيرنا ويوقّر كبيرنا،

---

(١) جامع بيان العلم (١/ ٦٥).

(٢) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٩٩ وما بعدها)، وشرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم (ص:٣٦،٣٧).

ويعرف لِعالمنا [حقَّه] »[١].

هذا وإنَّ من عدم معرفة قدر أهل العلم وحفظ مكانتهم الإدّعاءَ بأنَّ علماءَ الأمّة وفقهاءَ الملّة وأهل الحلّ والعقد فيها لا يفقهون غير علم الحيض والنفاس، ممّا يترتّب على ذلك الحطُّ من شأنهم والتقليلُ من قدرهم، وصرفُ النّاس عن الإفادة منهم، وهي مقالةٌ فاسدةٌ وكلمةٌ خطيرةٌ، نشأت قديما عند أرباب البدع وأهل الأهواء، ولكلِّ قومٍ وارثٌ، وفي الغالب أنَّ أهلَ هذه المقالة لا يسلم الواحد منهم من أحد توجهين:

ـ إما توجّه صوفيٌّ، ينحى بهذه المقالة إلى الحطِّ من قدر العلم والتنقيص من مكانته، ليخلص من ذلك إلى تفضيل العبادة والذكر عليه، وربّما استشهد بعض هؤلاء على هذا بما يحكى عن رابعة العدوية أنّها أتت ليلة بالقدس تصلّي حتى الصباح، وإلى جانبها بيت فيه فقيه يكرر على باب الحيض إلى الصباح، فلمّا أصبحت رابعة قالت له: يا هذا وصل الواصلون إلى ربّهم، وأنت مشتغل بحيض النّساء؟[٢]. ولهذا دأب هؤلاء على النهي عن العلم والتحذير منه وعدّه آفة من الآفات، كما يقول أحدهم: « آفة المريد ثلاث: التزوّج، وكتابة الحديث، والأسفار ».

ـ وإما توجّه فكريٌّ ينحى بهذه المقالة إلى إقحام الناس في متاهاتٍ فكريةٍ وتخرُّصاتٍ عقليةٍ وظنونٍ وأوهامٍ، وهذا يكثر عند أهل الكلام الباطل كالمعتزلة وغيرهم.

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٢٣٥)، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (رقم:٢١٩٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/ ٣٩٦).

روي عن إسماعيل بن علَيَّة، قال حدّثني اليسع، قال: تكلّم واصل ابن عطاء يومًا، فقال عمرو بن عبيد: « ألا تسمعون؟ ما كلام الحسن وابن سيرين عندما تسمعون إلاّ خرقة حيض ملقاة ».

وروي أنَّ زعيمًا من زعماء أهل البدع كان يريد تفضيل الكلام على الفقه فكان يقول: « إنَّ علم الشافعي وأبي حنيفة جملته لا يخرج من سراويل امرأة ». ذكر هذا والذي قبله الشاطبي في كتابه الاعتصام[(١)]، ثم قال: « هذا كلام هؤلاء الزائغين قاتلهم الله ».

ولا ريب أنَّ هذه توجُّهاتٌ متحلّلةٌ من ربقة العلم مستحكمةٌ في الهوى والباطل، فنسأل الله أن يحفظنا وإيّاكم من الأهواء المطغية، والفتن المردية، بمنّه وكرمه، كما نسأله أن يحفظ علينا علماءنا الذين هم أمناء الشريعة وحفّاظ الدّين وأنصار الملّة، وأن يجزيهم عن الإسلام وأهله خير الجزاء، وأن يعلي قدرهم في الدنيا والآخرة، وأن ينصر بهم دينه ويعلي بهم كلمته إنّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

۞۞۞

(١) (٢/ ٢٣٩).

١٩/ أركانُ التعبّد القلبيَّة للذكر وغيره من العبادات

إنَّ ذكر الله ﷻ والتقرّب إليه بما يحبّ من صالح الأعمال والأقوال لا يكون مقبولاً عند الله إلاّ إذا أقامه العابد على أركان ثلاثة، وهي الحب والخوف والرّجاء.

فهذه الأركان الثلاثة هي أركان التعبّد القلبية التي لا قبول لأيِّ عبادة إلاّ بها، فالله جلّ وعلا، يعبد حبًّا فيه ورجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه، وقد جمع الله تبارك وتعالى بين هذه الأركان الثلاثة في سورة الفاتحة التي هي أفضل سور القرآن، فقوله سبحانه: {**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} فيه المحبّة؛ لأنَّ الله منعم، والمنعم يُحب على قدر إنعامه؛ ولأنَّ الحمد هو المدح مع الحبّ للممدوح. وقوله: {**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**} فيه الرجاء، فالمؤمن يرجو رحمة الله ويطمع في نيلها، وقوله: {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**} فيه الخوف، ويوم الدّين هو يوم الجزاء والحساب، ثمّ قال تعالى: {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**} أي أعبدك يا ربّ بما مضى بهذه الثلاث: بمحبّتك ورجائك وخوفك، فهذه الثلاث هي أركان العبادة التي عليها قيام {**إِيَّاكَ نَعْبُدُوَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**} فـ {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**} لا تقوم إلاّ على المحبّة التي دلّ عليها قوله {**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} والرّجاء الذي دلّ عليه قوله {**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**} والخوف الذي دلّ عليه قوله {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**}[(١)].

وقد جمع الله أيضًا بين هذه الأركان في قوله: {**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**

(١) انظر: مؤلّفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية، ص:٣٨٢،٣٨٣).

يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ}[١]، فإنَّ ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبّه وفعل ما يحبّه، ثم قال: {**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**} فذكر الحبّ والخوف والرّجاء[٢]، وكذلك في قوله: {**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**}[٣].

ولذا يجب أن يكون العبد في عبادته وذكره لله جامعًا بين هذه الأركان الثلاثة المحبّة والخوف والرّجاء، ولا يجوز له أن يعبد الله بواحد منها دون باقيها، كأن يعبد الله بالحبّ وحده دون الخوف والرّجاء، أو يعبد الله بالرّجاء وحده، أو بالخوف وحده، ولذا قال بعض أهل العلم: « من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرّجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرّجاء فهو مؤمن موحّد »[٤].

وأعظم هذه الأركان الثلاثة وأجلّها هو الحبّ، حبُّ الله تبارك وتعالى الذي هو أصل دين الإسلام وقطب رحاه، والمحبّة منزلةٌ شريفةٌ فيها يتنافس المتنافسون، وإليه شمّر المسابقون، وهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون، وروح الإيمان والعمل، ومن لم يظفر بها في هذه الحياة فحياته كلُّها شقاءٌ وألمٌ.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٥٧).
(٢) انظر: طريق الهجرتين لابن القيم (ص:٤٦٥).
(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٩٠).
(٤) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ٨١).

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أسبابًا عظيمة جالبة للمحبّة فقال: « إنَّ الأسباب الجالبة للمحبّة عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبّر، والتفهُّم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرُّب إلى الله تعالى بالنّوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كلّ حال باللّسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبّة على قدر هذا.

الرّابع: إيثار محابّه على محابّك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلّبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة برّه وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهو أعجبها، انكسار القلب بين يديه.

الثّامن: الخلوة وقت النزول الإلهي، وتلاوة كتابه ثمّ ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبّين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلّم إلاّ إذا ترجّحت مصلحة الكلام، وعلمت أنَّ فيه مزيدًا لحالك ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ ».

ثم قال: « فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبّون إلى منازل المحبّة »[(١)].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٧، ١٨).

ثم مع المحبّة يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله راجيًا له راغبًا راهبًا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدّة عقابه خشي ربّه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشّامل رجا وطمع، إن وُفِّق لطاعة رجا من ربّه تمام النِّعمة بقبولها، وخاف من ردّها بتقصيره في حقِّها، وإن ابتلي بمعصية رجا من ربّه قبول توبته ومحوها وخشي بسبب ضعف التّوبة والالتفات للذّنب أن يعاقب عليها، وعند النّعم والمسارّ يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلّها، ويرجو أيضًا أن يثيبه عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفّق للقيام بالصبر الواجب. فالمؤمن الموحّد ملازم في كل أحواله للخوف والرّجاء، وهذا هو الواجب وهو النّافع، وبه تحصل السعادة، لكن يخشى على العبد من خُلُقين مذمومين:

إمّا أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله، أو يتجارى به الرّجاء حتى يأمن من مكر الله وعقوبته، ومتى بلغت الحال بالعبد إلى هذا فقد ضيّع واجب الخوف والرّجاء اللّذين هما من أكبر أصول الدّين ومن أعظم واجباته(١).

إنَّ الخوف المحمود الصادق هو ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه أن يقع صاحبه في اليأس من رَوْح الله والقنوط من رحمة الله، والرّجاء المحمود الصادق هو الرّجاء الذي يكون مع عملٍ بطاعة الله على نور من الله، أمّا إذا كان الرّجل متمادياً في التفريط والخطايا،

---

(١) انظر: القول السديد لابن سعدي (ص:١٢٠،١١٩).

مُنْهَمِكا في الذنوب والمعاصي، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمنّي والرّجاء الكاذب، ولذا قال بعض السّلف: « الخوف والرّجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النّقص وإذا ذهبا صار الطائر في حدّ الموت ».

هذا واللهَ الكريمَ أسأل أن يوفّقنا وإيّاكم لتحقيق هذه المقامات العظيمة المحبّة والخوف والرّجاء، وأن يجعلنا ممن عبد الله حبًّا فيه، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه، وأن يعيننا على تكميل ذلك وحسن القيام به، إنَّه سميع الدعاء، وهو أهل الرّجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

۞۞۞

٢٠/ ذكرُ الله بذكرِ أسمائه وصفاته

إنّ من أجلّ الذكر وأفضله ذِكْرَ الربّ تبارك وتعالى بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة، والثناء عليه بما هو أهله، بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى عليه به عبده ورسوله محمّد ﷺ من نعوت الجلال وصفات الكمال وأنواع المحامد ونحو ذلك.

إذ إنَّ الذكر نوعان:

أحدهما: ذكر أسماء الربّ الحسنى وصفاته العظيمة والثناء عليه بها، وتنزيهه سبحانه وتقديسه عمّا لا يليق به تبارك وتعالى. وهذا أيضًا نوعان:

أحدهما: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث المشتملة على الحثّ على حمد الله وتكبيره وتسبيحه وحسن الثناء عليه، ومن ذلك قوله ﷺ: « أحبّ الكلام إلى الله بعد القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر »[(١)]، وقوله ﷺ: « من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرّة حُطَّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »[(٢)]، وكذلك قوله ﷺ: « كلمتان خفيفتان على اللّسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان للرّحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم »[(٣)]، ونحو هذه الأحاديث.

وأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمُّه نحو قول: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، فهذا أفضل من مجرّد:

(١) رواه مسلم (رقم:٢١٣٧).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٥)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩١).

(٣) صحيح البخاري (رقم:٦٠٤٩)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩٤).

سبحان الله.

وكذلك قول: الحمد لله عدد ما خلق، والحمد لله ملء ما خلق، والحمد لله عدد ما في السموات والأرض، والحمد لله ملء ما في السموات والأرض، فهذا أفضل من مجرّد قول: الحمد لله.

روى مسلم في صحيحه عن جويرية رضي الله عنها أنَّ النبيّ ﷺ خرج من عندها بُكرةً حين صلّى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسةٌ فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، قال النبي ﷺ: « لقد قلت بعدك أربعَ كلمات ثلاث مرّات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهنَّ: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته »(١).

وروى الإمام أحمد، والطبراني، والحاكم، وغيرهم بإسناد جيّد، عن أبي أمامة الباهلي أنَّ رسول الله ﷺ مرّ به وهو يحرّك شفتيه فقال: « ماذا تقول يا أبا أمامة؟ قال: أذكر ربي، قال: ألا أخبرك بأكثر أو أفضل من ذكر اللّيل مع النّهار والنّهار مع اللّيل أن تقول: سبحان الله عدد ما خلق، وسبحان الله ملء ما خلق، وسبحان الله عدد ما في الأرض والسماء، وسبحان الله ملء ما في الأرض والسماء، وسبحان الله عدد ما أحصى كتابه، وسبحان الله عدد كلِّ شيء، وسبحان الله ملء كلِّ شيء، وتقول: الحمد لله مثل ذلك »(٢).

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٧٢٦).

(٢) المسند (٥/ ٢٤٩)، والمعجم الكبير (٨/رقم:٨١٢٨)، والمستدرك (١/ ٥١٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٢٦١٥).

فهذا جميعه من ذكر أسماء الرب وصفاته.

والنوع الثاني من هذا: هو الخبر عن الربّ تعالى بأحكام أسمائه وصفاته نحو قولك: الله ﷻ يسمع أصوات عباده، ويرى حركاتهم، ولا تخفى عليه من أعمالهم خافية، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمّهاتهم وهو على كلِّ شيء قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته، ونحو ذلك من الثناء عليه بما هو أهله ممّا أثنى به على نفسه، وما أثنى به عليه عبده ورسوله محمّد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل.

وهذا النوع يندرج تحته ثلاثة أنواع: حمدٌ وثناءٌ وتمجيدٌ.

فالحمد: الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى مع محبّته والرضى به، فلا يكون المحبّ الساكت حامدًا، ولا المثني بلا محبّة حامداً حتى يجمع له المحبّة والثناء، فإن كرّر المحامد شيئاً بعد شيء كانت ثناء، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً.

وقد جمع الله تعالى الأنواع الثلاثة في أوّل سورة الفاتحة، فإذا قال العبد: {**الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**} قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: {**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**} قال الله: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**} قال الله: مجّدني عبدي.

إنّ ما تقدّم هو النوع الأوّل من أنواع الذّكر، وهو ذكر الرب بذكر أسمائه وصفاته، وهو نوعان كما سبق، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا النوع من الذّكر لاحقاً إن شاء الله.

أما النوع الثاني: فهو ذكر أمر الربّ ونهيه وأحكامه، وهو أيضاً نوعان:

ـ أحدهما: ذكره سبحانه بذلك إخبارًا عنه بأنّه أمر بكذا ونهى عن

كذا، وأحبّ كذا، وسخط كذا، ورضي كذا، فكلُّ هذا من ذكر الله تبارك وتعالى، ولهذا فإنَّ مجالس العلم التي يبيَّن فيها الحلال والحرام، وتوضّح فيها الأحكام مجالس ذكر لله. قال عطاء الخرساني: « مجالس الذّكر مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع،وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلّق وتحجّ وأشباه هذا ».

وكان أحد السلف وهو أبو السُّوَار العدوي في حلقة يتذاكرون العلم ومعهم فتى شاب فقال لهم: قولوا: سبحان الله والحمد لله، فغضب أبو السُّوار، وقال: « ويحك في أيِّ شيء كنّا إذًا »[١].

فليست مجالس الذكر مختصّة بالمجالس التي يذكر فيها اسم الرّبّ بالتسبيح والتحميد والتكبير ونحو هذا، بل هي شاملةٌ للمجالس التي يذكر فيها أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وما يحبّه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، بل ربَّما كان هذا الذكر أنفع من ذلك.

ـ والنوع الثاني: ذكره سبحانه عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، فامتثال العبد لأوامر الله وانقياده لشرعه وإذعانه لحكمه واجتنابه لنواهيه، كلُّ ذلك من إقامة ذكر الله تعالى، فذكر أمره ونهيه شيءٌ، وذكره عند أمره ونهيه شيءٌ آخر.

وقد أوضح هذه الأقسام المتقدّمة ابنُ القيِّم رحمه الله في كتابه الوابل

---

(١) أورد هذا الأثر والذي قبله ابنُ رجب في شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم (ص:٢٣).

الصيّب[1]، وذكر أنَّها إذا اجتمعت للذاكر فذِكْرُه أفضلُ الذكر وأجلّه وأعظمه.

فنسأل الله الكريم أن يحقّق لنا ولكم ذلك، وأن يعيننا جميعاً على ذكره وشكره وحسن عبادته إنَّه سميعٌ مجيبٌ قريبٌ.

❁❁❁

(١) (ص:١٧٨ ـ ١٨١).

٢١ / أهمّيَّةُ العلم بأسماء الله وصفاته

لقد مرّ معنا بيانُ فضل ذِكر الله بذِكر أسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وما من ريبٍ في فضل ذلك وعِظم شأنه وكثرة عوائده وفوائده، وكم للاشتغال بهذا الأمر من الفوائد المغدقة والثمار اليانعة، والأجر الدائم والخير المستمر في الدنيا والآخرة، وهذا الفضل يرجع إلى أسبابٍ عديدةٍ، أهمُّها:

أوّلاً: أنَّ علم توحيد الأسماء والصفات أشرفُ العلوم وأفضلُها وأعلاها مكانةً وأجلُّها شأناً، وشرف العلم وفضلُه من شرف معلومه، ولا أشرف وأفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، ولهذا فإنَّ الاشتغال بفهمه والعلم به والبحث عنه اشتغال بأشرف المطالب وأجَلِّ المقاصد.

ثانياً: أنَّ معرفة الله والعلم به تدعو العبد إلى محبّته وتعظيمه وإجلاله وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له، وحاجة العبد إلى هذا وتحصيله هي أعظمُ الحاجات وأفضلها وأجلها، قال ابن القيم رحمه الله: « وليست حاجة الأرواح قطُّ إلى شيءٍ أعظمَ منها إلى معرفة باريها وفاطرها ومحبّتِهِ وذِكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلّما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكلّما كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد، والله ينزِل العبد من نفسه حيث يُنزله العبدُ من نفسه »[1]. اهـ كلامه رحمه الله.

---

(1) مفتاح دار السعادة (ص:٢٠٢).

ولا سبيل لنيل هذا وتحصيله إلا بمعرفة أسماء الله وصفاته والتفقّه فيها والفهم لمعانيها.

ثالثاً: أنَّ الله خلق الخلق وأوجدَهم من العَدَم، وسخّر لهم السموات والأرض وما فيهما ليعرفوه ويعبدوه، كما قال سبحانه: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}(١)، وقال سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}(٢)، فهذه الغاية التي خُلق الخلقُ لأجلها وأوجِدوا لتحقيقها، فالاشتغال بمعرفة أسماء الله وصفاته اشتغال بما خُلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خُلق له، ولا ينبغي لعبد فضلُ الله عليه عظيم، ونِعَمُه عليه متوالية أن يكون جاهلاً بربّه معرضاً عن معرفته سبحانه.

رابعاً: أنَّ أحد أركان الإيمان الستة، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمانُ مجرّدَ قول العبد آمنت بالله من غير معرفته بربّه، بل حقيقة الإيمان أن يعرف ربّه الذي يؤمن به ويَبذل جهدَه في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربّه يكون إيمانُه، فكلما ازداد معرفة بأسمائه وصفاته ازداد معرفةً بربِّه، وازداد إيمانُه، وكلما نقص نقص، ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}(٣) قال ابن كثير رحمه الله: « أي إنَّما يخشاه حق خشيته العلماءُ العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما

(١) سورة الطلاق، الآية: (١٢).

(٢) سورة الذاريات، الآيات: (٥٦ ـ ٥٨).

(٣) سورة فاطر، الآية: (٢٨).

كانت المعرفةُ به أتمَّ والعلمُ به أكملَ، كانت الخشيةُ له أعظمَ وأكثر »[١]. اهـ.

وقد جمع هذا المعنى أحدُ السلف في عبارة مختصرة فقال: « من كان بالله أعرف كان له أخوف »[٢].

ولا ريب أنَّ معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة تثمر في العبد أنواعاً كثيرةً من العبادة والطاعة وابتغاء الوسيلة إلى الله، وتقوي فيه جانب الخوف والمراقبة، وتعظم فيه الرجاء، وتزيد في إيمانه ويقينِه وثقتِه بربِّه سبحانه.

خامساً: أنَّ العلم به تعالى أصلُ الأشياء كلِّها، حتى إنَّ العارفَ به حقيقة المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام؛ لأنَّه سبحانه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرةٌ بين العدل والفضل والحكمة، ولذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلاّ على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلُّها حقٌ وصدقٌ، وأوامره ونواهيه كلُّها عدلٌ وحكمةٌ؛ ولهذا فإنَّ العبدَ إذا تدبّر كتاب الله وما تعرَّف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزّه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه، وتدبّر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصَّها على عباده وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على أنَّه إلهُهُم الحق المبين، الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له، ويستدلوا بها على أنَّه على كلِّ شيء قدير، وأنَّه بكلِّ شيء عليم، وأنَّه شديد العقاب، وأنَّه غفور رحيم، وأنَّه العزيز الحكيم، وأنَّه الفعّال

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٣٠).

(٢) وهو من قول أبي عبد الله الأنطاكي كما في الرسالة للقشيري (ص:١٤١).

لما يريد، وأنَّه الذي وسع كلَّ شيء رحمةً وعلماً، وأنَّ أفعالَه كلَّها دائرةٌ بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة، لا يخرج شيءٌ منها عن ذلك، فإذا تدبّر العبدُ ذلك أورثه ولا ريب زيادةً في اليقين، وقوّةً في الإيمان، وتماماً في التوكّل.

فهذه خمسةُ أسبابٍ عظيمةٍ[1] تدلُّ على فضل العلم بأسماء الله وصفاته وشدّة حاجة العباد إليه، بل ليس هناك حاجةٌ أعظمَ من حاجة العباد إلى معرفة ربِّهم وخالقهم ومليكهم ومُدبِّر شئونهم ومُقدِّر أرزاقهم، الذي لا غنى لهم عنه طرفة عين، ولا أقَلّ من ذلك، ولا صلاح لهم ولا زكاء إلا بمعرفته وعبادته والإيمان به وحده سبحانه، ولهذا فإنَّ حظَّ العبد من الصلاح واستحقاقه من المدْح والثناء إنَّما يكون بحسب معرفته بربه سبحانه [وعمله بذلك]، وذلك بتدبُّر أسمائه الحسنى وصفاته العليا الواردة في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وفهمَها فهما صحيحاً سليماً دون أن يجحد شيئاً منها، أو يحرِّفه عن مراده ومدلوله، أو يُشبِّهه بشيءٍ من صفات الخلق تعالى الله عن ذلك وتنزَّه وتقدّس، فالله جلّ وعلا {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[2] فله الحمد كلُّه على أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة وآلائه الجسيمة، وله الثناء الحسن لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه.

---

(1) انظر: تفسير ابن سعدي (١/ ١٠)، وخلاصته (ص:١٥).

(2) سورة الشورى، الآية : (١١).

٢٢ / اقتضاء الأسماء والصفات لآثارها من العبوديّة لله

لا يزال الحديثُ ماضياً بنا في بيان أهمِّية ذِكر الله بذكر أسمائه وصفاته الواردة في الكتاب وسنة رسوله ﷺ، وقد مرّ بنا جملةٌ طيّبةٌ من الفوائد المترتّبة على ذلك، ومن هذه الفوائد أيضاً أنَّ معرفةَ أسماء الله الحسنى وصفاته العلى مقتضيةٌ لآثارها من العبودية كالخضوع والذلّ والخشوع والإنابة والخشية والرهبة والمحبة والتوكل وغير ذلك من أنواع العبادات الظاهرة والباطنة، بل إنَّ لكل صفة من صفات الربّ تبارك وتعالى عبوديةً خاصةً هي من مقتضياتها وموجبات العلم بها والتحققِ بمعرفتها، وهذا مُطَّرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح[١].

وبيان ذلك أنَّ العبد إذا علم بتفرّد الربّ تعالى بالضُرّ والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة فإنَّ ذلك يُثمرُ له عبودية التوكّل على الله باطناً، ولوازم التوكّل وثمراته ظاهراً.

قال الله تعالى: {**وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ**}[٢]، وقال تعالى: {**وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ**}[٣]، وقال تعالى: {**رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**}[٤]، وقال تعالى: {**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً**}[٥].

وإذا علم العبد بأنَّ الله سميعٌ بصيرٌ عليمٌ لا يخفى عليه مثقالُ ذرةٍ في

---

(١) وانظر في هذا: مفتاح دار السعادة لابن القيم (ص:٤٢٥،٤٢٤).
(٢) سورة الفرقان، الآية: (٥٨).
(٣) سورة الشعراء، الآية: (٢١٧).
(٤) سورة المزمل، الآية: (٩).
(٥) سورة النساء، الآية: (٨١).

السموات والأرض، وأنَّه يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، وأنَّه تبارك وتعالى أحاط بكلِّ شيء علماً، وأحصى كلَّ شيء عددًا، فمن عرَّف نفسه باطلاع الله عليه ورؤيته له وإحاطته به، فإنَّ ذلك يُثمرُ له حفظ اللسان والجوارح وخطرات القلب عن كل ما لا يُرضي الله، وجَعْلَ تعلّقات هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه.

قال الله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى}(١)، وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}(٢)، وقال تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}(٣)، وقال تعالى: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}(٤)، وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}(٥)، فلا ريب أنَّ هذا العلم يورث عند العبد خشيةَ الله ومراقبتَه والإقبالَ على طاعته والبعدَ عن مناهيه.

قال ابن رجب: « راودَ رجلٌ امرأةً في فلاة ليلاً فأبت، فقال لها: ما يرانا إلا الكواكب فقالت: فأين مُكَوكِبُها »(٦). أي أين الله ألا يرانا، فمنعها هذا العلم اقتراف هذا الذنب والوقوع في هذه الخطيئة.

وإذا علم العبد بأنَّ الله غنيٌّ كريمٌ، بَرٌّ رحيمٌ، واسعُ الإحسان، وأنَّه تبارك وتعالى مع غناه عن عباده فهو محسنٌ إليهم رحيمٌ بهم، يريد بهم الخيرَ، ويكشف عنهم الضرَّ، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل

---

(١) سورة العلق، الآية: (١٤).
(٢) سورة الفجر، الآية: (١٤).
(٣) سورة الحجرات، الآية: (١).
(٤) سورة فصلت، الآية: (٤٠).
(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٣٥).
(٦) شرح كلمة الإخلاص (ص:٤٩).

رحمةً منه وإحساناً، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثّر بهم من قلّة، ولا ليعتزّ بهم من ذِلَّة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا يدفعوا عنه كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينِ}(١)، وقال تعالى: {وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً}(٢)، وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ: « يا عبادي إنَّكم لن تبلُغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلُغوا ضَرِّي فتضروني »(٣).

فإذا عَلِم العبد ذلك أثمر فيه قوَّةَ الرّجاء ـ قوَّةَ رجائه بالله ـ وطمعه فيما عنده، وإنزال جميع حوائجه به، وإظهار افتقاره إليه واحتياجه له {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ}(٤)، والرجاء يُثمر أنواعَ العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفة العبد وعلمه.

وإذا علِم العبدُ بعدلِ الله وانتقامه وغضبه وسخطه وعقوبته فإنَّ هذا يثمر له الخشية والخوفَ والحذرَ والبعدَ عن مساخط الرب، قال الله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ}(٥)، وقال الله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}(٦)، وقال تعالى: {فَإِن زَلَلْتُم مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ البَيِّنَاتِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ

(١) سورة الذاريات، الآيات: (٥٦ ـ ٥٨).
(٢) سورة الإسراء، الآية: (١١١).
(٣) جزء من حديث أبي ذر رضي الله عنه، أخرجه مسلم في صحيحه (برقم:٢٥٧٧).
(٤) سورة فاطر، الآية: (١٥).
(٥) سورة البقرة، الآية: (١٩٦).
(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٠٣).

حَكِيمٌ}(١).

وإذا علِمَ العبدُ بجلال الله وعظمته وعلوِّه على خلقه ذاتاً وقهراً وقدراً فإنَّ هذا يثمر له الخضوعَ والاستكانةَ والمحبةَ وجميعَ أنواع العبادة، قال الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ}(٢)، وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِياً كَبِيراً}(٣)، وقال: {عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ}(٤)، وقال: {وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ}(٥)، وقال: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}(٦).

وإذا علِمَ العبدُ بكمال الله وجماله، أوجبَ له هذا محبّةً خاصةً وشوقاً عظيماً إلى لقاء الله « ومن أحبّ لقاء الله أحبّ اللهُ لقاءَه »، ولا ريب أنَّ هذا يُثمر في العبد أنواعاً كثيرةً من العبادة، ولهذا قال تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}(٧).

وبهذا يُعلم أنّ العبودية بجميع أنواعها راجعةٌ إلى مقتضيات الأسماء والصفات، ولهذا فإنّه يتأكّد على كلِّ عبد مسلم أن يعرف ربَّه ويعرفَ أسماءه وصفاته معرفةً صحيحةً سليمةً، وأن يعلم ما تضمّنته، وآثارَها،

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٠٩).

(٢) سورة الحج، الآية: (٦٢).

(٣) سورة النساء، الآية: (٣٤).

(٤) سورة الرعد، الآية: (٩).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٥٥).

(٦) سورة الزمر، الآية: (٦٧).

(٧) سورة الكهف، الآية: (١١٠).

وموجبات العلم بها، فبهذا يعظُم حظ العبد ويكمل نصيبه من الخير.

قال الإمام أبو عمر الطلمنكي رحمه الله: « من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسولُ الله ﷺ المعرفةُ بالأسماء والصفات وما تتضمّن من الفوائد وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء ولا مستفيداً بذكرها ما تدل عليه من المعاني »(١). اهـ.

والله المرجو أن يوفِّقنا وإياكم لتحقيق ذلك والقيام به على أحسن حال، فهو سبحانه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

۞۞۞

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٢٦).

٢٣ / العلمُ بأسماء الله وصفاته ومنهج أهل السنة في ذلك

إنَّ من مقامات الدين الرفيعة ومنازله العالية العظيمة، العلم بكمال الربّ الكريم، وما يجب له من صفاته العظيمة وأسمائه الحسنى الكريمة الواردة في كتابه وسنة رسوله ﷺ، والتي أثنى بها على نفسه وأثنى عليه بها عبدُه ورسولُه محمد ﷺ، بل إنَّ هذا العلم والإيمان أصلٌ من أصول الدين، وركنٌ من أركان التوحيد، وأساسٌ من أُسُسِ الاعتقاد.

ولهذا ندب الله عباده وحثّهم ورغّبهم في مواطن كثيرة من القرآن الكريم على تعلّم أسماء الرب وصفاته، ومعرفتها معرفةً صحيحةً سليمةً، دون مَيْل بها عن وجهها، أو صرفٍ لها عن مقصودها بتحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل أو نحو ذلك.

يقول الله تعالى: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}(١)، وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّامًّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى}(٢)، وقال تعالى: {هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}(٣)، وقال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (١١٠).

(٣) سورة الحشر، الآيات:(٢٢ ـ ٢٤).

{لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}(١)، وقال تعالى: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(٢) وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(٣)، وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}(٤)، وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}(٥)، وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}(٦)، وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}(٧)، وقال: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(٨)، وقال: {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}(٩)، وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}(١٠)، وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}(١٠)، وقال: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}(١١)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

إنَّ هذه الآيات وما ورد في معناها لَتدلُّ أوضحَ دلالة على عِظم شأن العلم بأسماء الله تبارك وتعالى الحسنى، وصفاته العظيمة على وفق ما جاء في النصوص، وعلى ضوء ما ورد في الأدلة، فلا يُتجاوز في ذلك القرآن والحديث؛ إذ أسماء الربّ وصفاته توقيفيةٌ لا مجال إلى العلم به ومعرفتها إلا

---

(١) سورة الطلاق، الآية: (١٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٠٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٢٣١).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٣٣).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٢٣٥).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٢٤٤).

(٧) سورة البقرة، الآية: (٢٦٧).

(٨) سورة المائدة، الآية: (٩٨).

(٩) سورة الأنفال، الآية: (٤٠).

(١٠) سورة البقرة، الآية: (١٩٤)، والآية: (٢٣٥).

(١١) سورة محمد، الآية: (١٩).

من خلال ما ورد في الكتاب والسنة، كما قال الإمام أحمد: « لا يُوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يُتجاوز القرآن والحديث »[١].

وقال ابن عبد البر رحمه الله: « ليس في الاعتقاد كلِّه في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء به منصوصاً في كتاب الله أو صحَّ عن رسول الله ﷺ، أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كلِّه أو نحوه يُسلّم له ولا يُناظر فيه »[٢].

إنَّ وصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ يُعدُّ من أصول الإيمان الراسخة، وأسسِه العظيمة التي لا إيمان إلا بها، فمن جحد شيئاً من صفاته سبحانه ونفاها وأنكرها فليس بمؤمن، وكذلك من عطّلها أو شبَّهَها بصفات المخلوقين، سبحان الله عما يصفون، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

قال نعيم بن حماد الخزاعي رحمه الله: « من شبّه الله بشيء من خلقه فقد كَفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسَه فقد كفر، فليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ تشبيه »[٣].

ولهذا فإنَّ مذهب أهل السنة والجماعة يقوم في هذا الباب على أصلين عظيمين وأساسين متينين، هما: الإثبات بلا تمثيل، والتنزيه بلا تعطيل، فلا يُمثِّلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يُمثِّلون ذاته سبحانه بذواتهم، ولا

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٢٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٣).

(٣) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (رقم:٩٣٦).

ينفون عنه صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة في كتابه وسنة رسوله ﷺ، بل يؤمنون بأنَّ الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والواجب على كلِّ مسلم في هذا الباب العظيم أن يقف مع نصوص الكتاب والسنة دون زيادة أو نقصان، بل يؤمن بما ورد فيهما، ولا يحرِّف كلام الله عن مواضعه، ولا يُلحد في أسمائه وآياته، ولا يُكيِّف صفاته، ولا يمثل شيئاً بشيءٍ من صفات خلقه؛ لأنَّ سبحانه لا سَمِيَّ له ولا كفؤ ولا نِدّ، ولا يُقاس بخلقه، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من خلقه، وكذلك رسله الذين أخبروا عنه بتلك الصفات صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، فسبَّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلّم على المرسلين، لسلامة ما قالوه من النقص والعيب؛ ولهذا فإنَّ أهل السنة والجماعة المتَّبِعين لمحمّد وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه، يُثبتون ما أثبته رسل الله لربهم من صفات الكمال ونعوت الجلال، كتكليم الله لعباده ومحبّته لهم، ورحمته بهم، وعُلوِّه عليهم، واستوائه على عرشه، ونحو ذلك مما ورد من نعوت الرب الكريمة وصفاته الجليلة، فآمنوا بما قال الله سبحانه في كتابه وصحّ عن نبيّه ﷺ وأمرّوه كما جاء من غير تعرض لكيفيةٍ أو اعتقاد مشابهةٍ أو مثليةٍ، أو تأويلٍ يؤدي إلى تعطيل صفات رب البرية، بل وسعتهم السنةُ المحمدية والطريقة المرضية، ولم يتجاوزوها إلى ضلالات بدعية أو أهواء رديَّة، فحازوا بسبب ذلك الرتب السَّنية والمنازل

(١) سورة الصافات، الآيات :(١٨٠ ـ ١٨٣).

العليَّة في الدنيا والآخرة[1].

رزقنا الله وإياكم حسن اتباعهم والسَير على نهجهم وترسّم خطاهم إنَّه سميع مجيب قريب.

۞۞۞

(1) انظر: عقيدة الحافظ تقي الدِّين عبد الغني المقدسي (ص:٣٩).

٢٤ / وصفُ أسماء الله بأنَّها حسنى ومدلول ذلك

لقد ورد في القرآن الكريم الترغيبُ في دعاء الله بأسمائه الحسنى العظيمة، والتحذيرُ الشديدُ من سبيل الملحدين في أسمائه، وأنَّ الله سيحاسبهم على ذلك الحساب الشديد، وذلك في قوله سبحانه: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[1]، ولذا فإنَّه يتأكّد على كلِّ مسلم أن يُعنى بأسماء الله الحسنى، وفهمها فهماً صحيحاً بعيداً عن سبيل الملحدين في أسماء الله الذين توعّدهم في هذه الآية بقوله: {سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وتوعّدهم على ذلك في آية أخرى بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[2]، والإلحاد في أسماء الله إلحاد في آياته.

وقد دلّت الآية الكريمة المتقدّمة على أنَّ أسماء الله كلَّها حسنى، إذ إنَّ الله تبارك وتعالى لكماله وجلاله وجماله وعظمته لا يُسمى إلا بأحسن الأسماء، كما أنَّه لا يُوصف إلا بأحسن الصفات، ولا يُثنى عليه إلا بأكمل الثناء وأحسنه وأطيبه، فأسماؤه جلّ وعلا هي أحسن الأسماء وأكملُها، وليس في الأسماء أحسنُ منها ولا يقوم غيرُها مقامها ولا يؤدي معناها، ولا يسدّ مسدّها، وقد وصف الرب تبارك وتعالى أسماءه بأنَّها حسنى في القرآن الكريم في أربعة مواضع، في الآية المتقدمة، وفي قوله: {قُلْ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: (٤٠).

الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى} (١)، وقوله: {اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى} (٢)، وقوله: {هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى} (٣).

فهذه أربعة مواطن في القرآن وُصفت فيها أسماء الله تبارك وتعالى بهذه الصفة العظيمة، والحسنى في اللغة: جمع أحسن، وليست جمع حسن، فهي أحسن الأسماء وأكملها وأعظمها، كما قال تعالى: {وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى} (٤)، أي له سبحانه الكمال الأعظم في ذاته وأسمائه وصفاته، ولذا كانت أسماؤه أحسن الأسماء.

وأسماء الله إنَّما كانت حسنى لكونها قد دلت على صفة كمال عظيمة لله، فإنَّها لو لم تدل على صفة بل كانت علَماً محضاً لم تكن حسنى، ولو دلّت على صفةٍ ليست بصفة كمال لم تكن حسنى، ولو دلّت على صفةٍ ليست بصفة كمالٍ بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح لم تكن حسنى، فأسماء الله جميعها دالةٌ على صفات كمال ونعوت جلال للرب تبارك وتعالى، وكلُّ اسم منها دالٌ على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر (٥)، فالرّحمن مثلاً يدل على صفة الرحمة، والعزيز يدل على صفة العزة، والخالق يدل على صفة الخلق، والكريم يدل على صفة الكرم، والمحسن يدل على صفة الإحسان، وهكذا وإن كانت جميعها متفقةً في

(١) سورة الإسراء، الآية: (١١٠).

(٢) سورة طه، الآية: (٨).

(٣) سورة الحشر، الآية: (٢٤).

(٤) سورة النحل، الآية: (٦٠).

(٥) انظر: الحق الواضح المبين لابن سعدي (ص:٥٥).

الدلالة على الرب تبارك وتعالى، ولهذا فهي من حيث دلالتُها على الذات مترادفةٌ، ومن حيث دلالتُها على الصفات متباينةٌ؛ لدلالة كل اسم منها على معنى خاص مستفاد منه.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: « أسماء الرب تبارك وتعالى كلُّها أسماء مدح، ولو كانت ألفاظاً مجرّدةً لا معاني لها لم تدل على المدح، وقد وصفها الله بأنَّها حسنى كلُّها فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١) فهي لـم تكن حسنى لمجرّد اللفظ، بل لدلالتها على أوصاف الكمال، ولهذا لما سمع بعضُ العرب قارئاً يقرأ: ﴿والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ﴾ (والله غفور رحيم). قال: ليس هذا كلامَ الله تعالى، فقال القارئ: أتُكذّب بكلام الله؟ فقال: لا، ولكن ليس هذا بكلام الله، فعاد إلى حفظه، وقرأ:﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢)، فقال الأعرابي: صدقتَ، عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع. ولهذا إذا خُتمت آية الرحمة باسم العذاب أو بالعكس ظهر تنافرُ الكلام وعدمُ انتظامه»(٣). اهـ.

وبهذا يتبيّن أنَّ فهم أسماء الله الحسنى والعلم بمعانيها أساس لا بد منه لتحقيق قول الله: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾(٤) فدعاء الله بأسمائه الذي أمر الله به في هذه الآية إنَّما يكون ويتحقق إذا علم الداعي معاني هذه الأسماء

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٣٨).

(٣) جلاء الأفهام (ص:١٠٨).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (١٨٠).

التي دعا الله بها، فإن لم يكن عالماً بمعانيها فإنَّه يجعل في دعائه الاسم في غير موطنه كأن يختم طلب الرحمة باسم العذاب أو العكس، فيظهر التنافر في الكلام وعدمُ الانتظام، ومن يتدبرّ الأدعية الواردة في القرآن أو في سنة النبي ﷺ يجد أنَّه ما من دعاء منها يختم بشيءٍ من أسماء الله الحسنى إلا ويكون في ذلك الاسم ارتباطٌ وتناسبٌ مع الدعاء المطلوب كقوله تعالى: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}(١)، وقوله: {رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}(٢)، وقوله: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ}(٣)، ونحو ذلك من الآيات.

ثم إنَّ دعاء الله بأسمائه يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبّد، وفي بيان ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: « وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظِّهم من عبوديّتها، وهو سبحانه يحبّ موجب أسمائه وصفاته، فهو عليمٌ يحب كلَّ عليم، وجوادٌ يحب كلَّ جواد، وِترٌ يحب الوتر، جميلٌ يحب الجمال، عَفُوٌّ يحب العفو وأهله، حَيِيٌّ يحبُّ الحياء وأهله، برٌّ يحب الأبرار، شكورٌ يحب الشاكرين، صبورٌ يحب الصابرين، حليمٌ يحب أهل الحلم ... »(٤)، إلى آخر كلامه رحمه الله.

ثم أيضاً من أهم ما ينبغي أن يتنبّه له المسلم في هذا الباب العظيم أن يحذر أشدّ الحذر من سبيل الملحدين في أسماء الله الذين توعّدهم الله في هذه الآية بأنّهم سيُجزون ما كانوا يعملون، وهم أصنافٌ وأنواع، جَمَعَهم وصْفُ

(١) سورة البقرة، الآية: (١٢٧).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: (١٠٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٨٩).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٢٠).

الإلحاد وتفرّقت بهم طرقُه، وعن هذا الموضوع الهام سيكون الحديث الآتي إن شاء الله وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

۞۞۞

٢٥ / التحذير من الإلحاد في أسماء الله

كان الحديث في ما مضى عن قول الله تبارك وتعالى: { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[١]، وقد بقي معنا من معنى الآية تحذيرُ الله من الإلحاد في أسمائه، وتوعّده الملحدين فيها بأنّه سيجازيهم على أعمالهم، ويُحاسبهم عليها أشدّ الحساب، فهو سبحانه يُمهِل ولا يُهمِل.

وقد تهدّد الله في هذه الآية الذين يلحدون في أسمائه بتهديدين:

الأول: صيغة الأمر في قوله: {وَذَرُوا} فإنّها للتهديد.

الثاني: في قوله: {سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٢].

والإلحاد في اللغة هو الميل والعدول، ومنه اللّحد، وهو الشقّ في جانب القبر الذي مال عن الوسط، ومنه المُلحد في الدين، أي: المائل عن الحق إلى الباطل، قال ابن السِّكِّيت: « الملحد العادل عن الحق المُدخل فيه ما ليس منه »[٣].

والإلحاد في أسماء الله سبحانه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو أنواع عديدة يجمعها هذا الوصف، ولما حذّر الله في هذه الآية من الإلحاد في أسمائه هذا التحذير كان متأكّداً على المسلم أن يعرف الإلحاد في أسمائه وأنواعَه؛ لئلا يقع فيه كما قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ

(١) سورة: الأعراف، الآية: (١٨٠).

(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٢/ ٣٢٩).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٤/ ٤٢١).

نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} (١)، أي: تتضحُ للناس فيكونون منها على حذر وحيطة، وقد قيل:

تـعلَّم الشـرَّ لا للـشرِّ ولـكن لتَوَقِّيه

فإنَّ من لم يعرف الشرَّ من النَّاس يَقع فيه

والإلحاد في أسماء الله كما تقدّم أنواع (٢):

أحدها: أن يسمَّى الأصنام والأوثان بها، كتسمية المشركين اللاَّت من الإله، والعُزَّى من العزيز، ومنَاةَ من المنَّان، وتسميتهم الصنم إلهاً، قال ابن جرير في تفسير قوله: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}: « يعني به المشركين، وكان إلحادهم في أسماء الله أنَّهم عدلوا بها عما هي عليه، فسمّوا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسمّوا بعضها اللاَّت اشتقاقاً منهم لها من اسم الله الذي هو الله، وسمّوا بعضها العزى اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو العزيز » (٣). ثم روى عن مجاهد في معنى الآية أنَّه قال: « اشتقوا العزى من العزيز، واشتقوا اللات من الله ». اهـ.

فهذا إلحاد حقيقة فإنَّهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

النوع الثاني: تسمية الله بما لا يليق بجلاله وكماله، وأسماءُ الله الحسنى توقيفيةٌ لا يجوز لأحد أن يتجاوز فيها القرآن والسنة، ولهذا فإنَّ من أدخل فيها ما ليس منها فهو ملحدٌ في أسماء الله، قال الأعمش رحمه الله في تفسير

(١) سورة الأنعام، الآية: (٥٥).
(٢) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ١٦٩).
(٣) جامع البيان (٦/ ١٣٣).

الآية المتقدمة: « تفسيرها: يُدخلون فيها ما ليس منها »[١]. اهـ.

ومن ذلك تسمية النصارى له أباً، وتسمية الفلاسفة إياه العلةَ الفاعلة بالطبع، وتسمية بعض أهل الضلال له بمهندس الكون ونحو ذلك، فكلُّ ذلك من الإلحاد في أسماء الله.

النوع الثالث: تعطيل الأسماء عن معانيها وجَحدُ حقائقها، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: « الإلحاد التكذيب »[٢]، ولا ريب أنَّ من أنكر معاني هذه الأسماء وجحد حقائقها فهو مكذبٌ بها ملحدٌ في أسماء الله، ومن ذلك قول من يقول من المعطلة: إنَّها ألفاظٌ مجرّدةٌ لا تدل على معاني، ولا تتضمّن صفات، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع له، ولا بصر له، ولا رحمة، تعالى الله عما يقولون، وسبحان الله عما يصفون، ولا ريب أنَّ هذا من الإلحاد في أسماء الله، ثم إنَّ هؤلاء المعطلين متفاوتون في هذا التعطيل، فمنهم من تعطيله جزئيٌّ، بمعنى أنَّه يعطّل بعضاً ويثبت بعضاً، ومنهم من تعطيله كليٌّ، بمعنى أنَّه يعطل الجميعَ فلا يُثبت شيئاً من الصفات التي تدل عليها أسماء الله الحسنى، وكلُّ من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فقد ألحد في ذلك، وحظّه من هذا الإلحاد بحسب حظِّه من هذا الجحد.

النوع الرابع: تشبيه ما تضمّنته أسماء الله الحسنى من صفاتٍ عظيمةٍ كاملةٍ تليق بجلال الله وجماله بصفات المخلوقين، تعالى الله عما يقول

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٣٤).

المشبّهون علوًّا كبيرًا، والله يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}(١)، ويقول سبحانه: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}(٢)، فالله سبحانه لا سميّ له ولا شبيه ولا مثيل، فهو سبحانه لا يشبه شيئاً من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه، والمشَبِّه كما يقول الإمام أحمد رحمه الله هو الذي يقول: « يد الله كيَدِي، وسمعه كسمعي، وبصره كبصري تعالى الله عن ذلك »(٣)، أما من يُثبت أسماء الله وصفاته على وجه يليق بجلال الله وكماله فهو بريء من التشبيه، وسالم من التعطيل.

فهذه أنواعٌ أربعةٌ للإلحاد في أسماء الله الحسنى، وقد وقع في كل منها جماعات من المبطلين حَمَانا الله وإياكم، وَوَقَانا ووقاكم بمنّه وكرمه من كل ضلال وباطل، وقد برّأ الله أتباع رسله وورثته القائمين بسنته من ذلك كلِّه فلم يصفوا الله إلا بما وصف به نفسه ووصفه به نبيّه ﷺ، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبّهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لا لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتُهم برياً من التشبيه، وتنزيهُهم خليًا من التعطيل، كما قال سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}.

وبهذه الآية الكريمة نختم الحديث هنا حامدين لله، مُثنين عليه بما هو أهله، وبما أثنى به على نفسه، حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى.

---

(١) سورة الشورى، الآية: (١١).
(٢) سورة مريم، الآية: (٦٥).
(٣) انظر: نقض التأسيس لابن تيمية (١/ ٤٧٦).

٢٦ / تدبّرُ أسماء الله وصفاته وعدم تعطيلها وعِظم أثر ذلك على العبد

لا يخفى أنَّ حاجة العباد إلى معرفة ربهم وخالقهم ومليكهم هي أعظمُ الحاجات، وضرورتهم إلى ذلك هي أعظم الضرورات، وكلما كان العبدُ أعرفَ بأسماء ربه وما يستحقه من صفات الكمال ونعوت الجلال، وما يتنزّه عنه مما يضاد ذلك من النقائص والعيوب كان حظُّه من الثناء ونصيبه من المدح بحسب ذلك، والسبيل إلى تحقيق هذا المطلب الجليل والمقصد النبيل أن يتدبّر العبد أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، ويتأمّلها اسماً اسماً، ويثبت ما دلّت عليه من معنى على وجه يليق بجلال الرب وكماله وعظمته، ويعتقد أنَّ هذا الكمال والعظمة ليس له منتهى، ويؤمن أنَّ كلَّ ما ناقض هذا الكمال بوجه من الوجوه فإنَّ الله تعالى منزّهٌ مقدّسٌ عنه، ويبذل ما استطاع من وسعه في معرفة أسماء الله وصفاته، ويجعل هذه المسألة العظيمة الجليلة أهم المسائل وأولاها بالعناية وأحقها بالتقديم ليفوز من الخير بـأوفر نصيب.

روى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ بعث رجلاً على سريّة، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: « سلوه لأي شيء كان يصنع ذلك؟ »، فسألوه فقال: لأنّها صفةُ الرّحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: « أخبروه أنَّ الله يحبّه »[1].

فهذه السورة الكريمة أُخلصت لذِكر أوصاف الرّحمن ونعوت كماله

(١) صحيح البخاري (رقم:٧٣٧٥)، وصحيح مسلم (رقم:٨١٣).

وجلاله، فأحب هذا الصحابي رضي الله عنه الإكثار من قراءتها، ولهذا لما سأله النبي ﷺ عن سبب ملازمته لقراءتها قال: لأنَّها صفة الرّحمن وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال: « أخبروه أنَّ الله يحبّه »، وفي رواية أنَّ النبي ﷺ قال: « حُبُّك إياها أدخلك الجنة ».

فدل ذلك على أنَّ حب العبد لصفات الرحمن وملازمتَه تذكّرها واستحضار ما دلّت عليه من المعاني الجليلة اللائقة بكمال الرب وجلاله، والتفقّه في معانيها سببٌ عظيم من أسباب دخول الجنة، ونيل رضى الرب تبارك وتعالى ومحبته كما هو الحال في قصة هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه وأرضاه.

إنَّ الواجب على كل مسلم أن يقف مع جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة موقف الرضا والقبول والتسليم، كما قال الإمام الزهري رحمه الله: « مِن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم »[1]. ولا يجوز لمسلم قَدَرَ الله حقّ قدْرِه أن يُقابل شيئاً منها برَدٍّ أو استنكارٍ أو تعطيلٍ أو نحو ذلك.

روى عبد الرزاق في مصنفه عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما: « أنَّه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه »[2].

وصفات الله في القرآن والسنة من المحكم، إلا أنَّ هذا الرجل لقلة علمه

---

(1) أورده البخاري في صحيحه (١٣/ ٥٠٣ ـ فتح).

(2) المصنف (١١/ ٤٢٣)، وأورده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتابه التوحيد، وانظر شرحه في تيسير العزيز الحميد (ص:٥٧٨).

وضعف تفريقه اشتبه عليه الأمر فبادر إلى الاستنكار، فأنكر عليه ابن عباس رضي الله عنهما ذلك وأخبر أنَّ هذا الاستنكار سبيلُ هلكه.

فتبيّن بذلك أنَّ الواجب في الأسماء والصفات هو التسليم والقبول، وأن يحذر المسلمُ أشدّ الحذر من سبيل من يُلحدون في أسماء الله وصفاته إما بتعطيل لها، أو تكذيب لبعضها، أو تحريف لمعانيها، أو تمثيل لها بصفات المخلوقين، أو نحو ذلك من سبل الضلال، تعالى الله وتقدّس عن ذلك.

وأهل السنة والجماعة منهجهم في هذا الباب العظيم: هو إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال، دون تحريف أو تعطيل، ودون تكييف أو تمثيل، ونفي ما نفاه الله عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، ولا يتجاوزون في ذلك القرآن والحديث.

ولا ريب أنَّ لهذا المنهج العظيم آثاراً كثيرةً على العبد في صلاحه واستقامته وخوفه من ربّه ومراقبته له؛ إذ إنَّ العبد كلّما كان بالله وبأسمائه وصفاته أعلم كان من الله أخوف، وله أطلب، وإليه أقرب.

أما من خالف هذا المنهج وتَنَكَّبَ هذه الجادة وسلك طرقَ أهل الزيغ في أسماء الله وصفاته فما أبعده عن معرفة ربه وخالقه، بل إنَّه يكون أضعف الناس معرفة بالله، وأقلّهم خوفاً وخشيةً منه.

ولذا يقول ابن القيم رحمه الله بعد أن بيّن أنَّ تفاوت الناس في معرفة الله يرجع إلى تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها: « وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم، الذي ذمّه السلف لجهلهم بالنصوص ومعانيها، وتمكُّنِ الشُّبه الباطلة من

قلوبهم ».

ثم بيّن رحمه الله أنَّ العوام أحسنُ حالاً من هؤلاء وأقوى معرفة بربهم منهم فقال: « وإذا تأملت حال العامة الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم ـ أي عند أكثر المتكلمين ـ رأيتهم أتمّ بصيرةً منهم وأقوى إيماناً وأعظم تسليماً للوحي وانقياداً للحق »[١] اهـ.

ولهذا وجب على كلِّ مسلم أن يكون في هذا الباب وفي جميع أبواب الدين على سنن أهل السنة والجماعة ووَفْق منهجهم، وأن يحذر سبل الضلال كلّها وأبواب الباطل جميعها، والتوفيق بيد الله وحده، فنسأله سبحانه أن يوفّقنا وإياكم لكل خير يحبه ويرضاه، وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، إنّه سميعٌ مجيبٌ قريبٌ.

۞۞۞

(١) مدارج السالكين (١/ ١٢٥).

٢٧ / أسماءُ الله الحسنى غيرُ محصورة بِعددٍ معيَّنٍ وبيانُ المراد بقوله: « مَنْ أحصاها دخل الجنّة »

لقد صحّ عن النبي ﷺ فيما خرّجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: « إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة »[١].

ولا ريب أنَّ هذا الفضل العظيم ألا وهو دخول الجنة المترتِّب على إحصاء هذا العدد من أسماء الله ليحرك في النفس الجِدّ في نيل هذا المطلب العظيم والسعي في تكميله، والحرص الشديد على تحقيقه.

ولقد ظن بعضُ النّاس خطأً أنَّ المرادَ بإحصاء أسماء الله المرغب فيه في هذا الحديث هو عدُّ ألفاظ تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله، واستظهارها في القلب، والتلفّظ بها في أوقات معيّنة مخصوصة، وربما جعلها بعضهم في جملة ذكره لله في صباحه ومسائه دون فقه من هؤلاء لهذه الأسماء الجليلة العظيمة، أو تدبّر لمدلولاتها، أو تحقيق لموجباتها ومستلزماتها، أو عمل بمقتضياتها ومتطلباتها.

ولقد نبّه العلماء رحمهم الله أنّه ليس المراد بإحصاء أسماء الله عدّ حروفها فقط، بلا فقه لها أو عمل بها، بل لا بد في ذلك من فهم معناها والمراد بها فهماً صحيحاً سليماً، ثم العمل بما تقتضيه.

قال أبو عمر الطلمنكي رحمه الله: « من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله ﷺ، المعرفة بالأسماء والصفات وما تتضمّن من الفوائد، وتدل عليه من الحقائق، ومن لم

(١) صحيح البخاري (رقم:٢٧٣٦)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٧٧).

يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء، ولا مستفيداً بذكرها ما تدل عليه من المعاني »[١].

فنبّه رحمه الله إلى أنَّ تمام المعرفة بالأسماء الحسنى والتي ينال بها الداعي لله بها هذا الثواب العظيم الوارد في الحديث إنَّما يكون بالمعرفة بالأسماء والصفات وبما تتضمّنه من فوائد وتدل عليه من الحقائق، لا عدّها فقط دون فهم لها أو علم بما تدل عليه.

وقد ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله أنَّ لإحصاء أسماء الله الحسنى ثلاثَ مراتبَ بتكميلها وتحقيقها ينال العبدُ ثوابَ الله العظيم المذكور في حديث رسول الله ﷺ المتقدم:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولاتها.

المرتبة الثالثة: دعاء الله بها، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة[٢].

فبتحقيق هذه المراتب الثلاثة العظيمة يكون الإحصاء الصحيح لهذا القدر من أسماء الله الحسنى.

ومما ينبغي أن يُعلم هنا أنَّ أسماء الله الحسنى ليست محصورةً في هذا العدد المعيّن المذكور في قوله ﷺ: « إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة »، فالكلام في هذا الحديث جملة واحدة، فقوله:
« من أحصاها » صفةٌ، وليس خبراً مستقلاً، والمعنى أنَّ لله تسعة وتسعين من شأنها أنَّ من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينافي أن يكون له أسماءٌ غيرها،

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٢٦).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٦٤).

ولهذا نظائر كثيرة في لغة العرب كما تقول: إنَّ عندي تسعة وتسعين درهماً أعددتها للصدقة، فإنَّ هذا لا ينافي أن يكون عندك غيرها معدةً لغير ذلك، وهذا أمر معروف لا خلاف فيه بين العلماء.

بل لقد ورد في السنة ما يدل على أنَّ أسماء الله غيرُ محصورة ولا تُحدّ بعدد معيّن، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان،
وهو يقول: « اللّهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1]، فأخبر ﷺ أنّه لا يحصي ثناء عليه، ولو أحصى جميع أسمائه لأحصى الثناء عليه.

ومن ذلك أيضاً ما ورد في حديث الشفاعة الطويل أنّه ﷺ قال: « ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبلي »، فدل الحديث على أنَّ هناك محامد من أسماء الله وصفاته يفتح الله بها على رسوله ﷺ في ذلك اليوم، وهي بلا شك غير المحامد المأثورة في الكتاب والسنة.

وأيضاً فقد ثبت في المسند وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: « ما أصاب عبداً همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إنِّي عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ
فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك،

(١) صحيح مسلم (رقم:٤٨٦).

أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همّي، إلا أذهب الله همّه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً »[١].

قال ابن القيم رحمه الله: « فجعل أسماء الله ثلاثة أقسام:

قسم: سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه.

وقسم: أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده.

وقسم: استأثر به في علم غيبه فلم يُطلِع عليه أحداً من خلقه، ولهذا قال: « استأثرت به » أي: تفردت بعلمه »[٢].

وبهذا يتبيّن أنَّ أسماء الله غيرُ محصورة في هذا العدد المعيّن، بل هي في القرآن والسنة أكثرُ من ذلك، وقصارى الحديث الدلالة على فضيلة إحصاء هذا العدد من أسماء الله.

ومما ينبّه عليه هنا أنّه لم يرد عن النبي ﷺ حديثٌ صحيحٌ في عدّ هذه الأسماء وسردها، وأما ما ورد في سنن الترمذي وسنن ابن ماجه وغيرهما من ذكرٍ لهذه الأسماء مسرودةً عَقِبَ حديث أبي هريرة المتقدّم[٣] فإنَّ هذا باتفاق أهل المعرفة والعلم بالحديث ليس من كلام النبي ﷺ، وإنّما هو مدرجٌ من بعض الرواة في حديث الرسول ﷺ، ولذا خرّجه البخاري ومسلم دون

---

(١) المسند (١/ ٣٩١)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:١٩٩).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٦٦).

(٣) انظر: سنن الترمذي (رقم:٣٥٠٧)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٦١).

ذكر لها لضعفها ولعدم ثبوتها عن النبي ﷺ، وتفاصيل ذلك يجدها طالب العلم مبسوطة في مظانها من كتب أهل العلم[١].

ثم إنَّ هذه الأسماء موجودة كما تقدّم في الكتاب والسنة، فمن قرأهما وعوّل عليهما في دينه، واجتهد في تدبر أسماء الله الحسنى الواردة فيهما فقد ظفر بالمراد، وحصل المقصود، وبالله وحده التوفيق.

۞۞۞

(١) وانظر في ذلك: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢١٥ وما بعدها).

٢٨ / تفاضلُ الأسماء الحسنى، وذكرُ الاسم الأعظم

لقد مرّ معنا بيانُ أنَّ أسماء الله الحسنى غيرُ محصورةٍ في عدد معيّن، وأنَّ قول النبي ﷺ: « إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجَنَّة » لا يفيد حصر الأسماء الحسنى في هذا العدد، وأنَّ قصاراه الدلالةُ على فضيلة هذه الأسماء التسعة والتسعين، وأنَّها اختصت بأنَّ من أحصاها دخل الجنة.

وفي هذا دلالةٌ على تفاضل الأسماء الحسنى خلافاً لمن نفى ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وقول من قال صفات الله لا تتفاضل ونحو ذلك قولٌ لا دليل عليه ...، وكما أنَّ أسماءه وصفاته متنوعة فهي أيضا متفاضلة كما دلَّ على ذلك الكتابُ والسنةُ والإجماعُ مع العقل »(١). اهـ.

ومما يدل على تفاضل الأسماء الحسنى ما ثبت عن النبي ﷺ في الأخبار الصحيحة أنَّ لله اسماً أعظم إذا سُئل به أَعطى، وإذا دُعيَ به أجاب، ولا ريب أنَّ هذه فضيلةٌ عظيمةٌ اختص بها هذا الاسم الذي وُصف بأنَّه اسم الله الأعظم، ولعلنا نستعرض بعض الأحاديث الواردة في ذلك، ثم نقف بعد ذلك على كلام بعض أهل العلم في تعيينه.

روى الإمام أحمد في المسند، وأهل السنن الأربعة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللّهم إنِّي أسألك بأنَّ لك الحمد، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنانُ بديعُ السموات والأرض ذو الجلال والإكرام، فقال النبي ﷺ: « لقد سألتَ الله باسمه الأعظم الذي

---

(١) انظر: جواب أهل العلم والإيمان (ص:١٩٧ ـ ٢٠٠).

إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى »، وزاد أبو داود والنسائي في آخره: « يا حيّ يا قيّوم »[١].

وروى ابن ماجه، والحاكم وغيرهما عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث سور من القرآن، في البقرة، وآل عمران، وطه »[٢].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ قال: « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[٣]، وفاتحة آل عمران: {الم اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ} »[٤].

وروى أصحاب السنن، وابن حبان عن بريدة رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهمّ إنّي أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله لا إله أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال رسول الله ﷺ: « لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا

(١) المسند (٣/ ٢٦٥)، وسنن أبي داود (رقم:١٤٩٥)، وسنن النسائي (٣/ ٥٢)، وسنن الترمذي (رقم:٣٥٤٤)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٥٨)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الأدب المفرد (رقم:٥٤٣).

(٢) سنن ابن ماجه (رقم:٣٨٥٦)، ومستدرك الحاكم (١/ ٥٠٦)، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (رقم:٧٤٦).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٦٣).

(٤) المسند (٦/ ٤٦١)، وسنن أبي داود (رقم:١٤٩٦)، وسنن الترمذي (رقم:٣٤٧٨)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٩٨٠).

سئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب »[١].

فهذه بعض الأحاديث الثابتة في ذكر اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، ولأجل ذا فقد كان لهذا الاسم ومعرفته والبحث عنه شأن عظيم عند أهل العلم، ولهم في هذا أبحاثٌ كثيرةٌ مطولةٌ ومختصرةٌ، قال الإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه تحفة الذاكرين: « وقد اختلف في تعيين الاسم الأعظم على نحو أربعين قولا، قد أفردها السيوطي بالتصنيف »[٢] اهـ.

ولم يذكر السيوطي في كتابه الذي أفرده في ذلك والذي أسماه « الدر المنظم في الاسم الأعظم » سوى عشرين قولاً، وكثيرٌ منها ظاهرٌ ضعفُه لعدم قيام دليلٍ صحيحٍ صريحٍ على صحته وثبوته، وبعض المتصوفة لهم في هذا الباب أباطيل كثيرةٌ لا يلتفت إلى شيءٍ منها، ويروون في ذلك أحاديثَ موضوعةً وآثارًا مخترعةً، وقصصاً منكرةً يخدعون بها عوام المسلمين ويغرون بها جهالهم، والواجب على كلِّ مسلم أن يكون في دينه على حيطة وحذر من الوقوع في إفك هؤلاء وباطلهم، فكم غرّ هؤلاء من عوام المسلمين، وكم خدعوا من جهالهم، وكم من ضلال وشر وباطل انتشر بسببهم، والله المستعان.

إنَّ أشهر الأقوال في تعيين الاسم الأعظم وأولاها بالصواب وأقربها للأدلة هو أنَّ اسم الله الأعظم هو « الله »، وإلى هذا القول ذهب جمعٌ كبيرٌ

---

(١) سنن أبي داود (رقم:١٤٩٣)، وسنن الترمذي (رقم:٣٤٧٥)، والسنن الكبرى للنسائي (رقم:٧٦٦٦)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٥٧)، وصحيح ابن حبان (رقم:٨٩١،٨٩٢)،

(٢) تحفة الذاكرين (ص:٦٧).

من أهل العلم.

قال الإمام أبو عبد الله بن منده في كتابه التوحيد، وقد اختار فيه أنَّ اسم الله الأعظم هو الله، قال: « فاسمه الله معرفة ذاته، منع الله ﷻ خلقَه أن يتسمّى به أحدٌ من خلقه، أو يدعى باسمه إله من دونه، جعله أول الإيمان وعمود الإسلام، وكلمة الحق والإخلاص، ومخالفة الأضداد والإشراك فيه، يحتجز القائل من القتل، وبه تفتتح الفرائض وتنعقد الأيمان، ويُستعاذ من الشيطان، وباسمه يفتتح ويُختم الأشياء، تبارك اسمه ولا إله غيره »[١] اهـ.

ولهذا الاسم الكريم من الخصائص ما ليس لغيره من الأسماء، ومن خصائصه أنَّ الله يضيف سائر الأسماء إليه كقوله: { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى }، ويقال: العزيز والرحمن والكريم والقدوس من أسماء الله، ولا يُقال: الله من أسماء الرحمن، بل إنَّ هذا الاسم الكريم مستلزمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى دالٌ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيلٌ وتبيينٌ لصفات الإلهية، فلهذه المعاني العظيمة وغيرها مما اختص به هذا الاسم صار غير واحد من أهل العلم إلى اختيار أنَّ الاسم الأعظم هو الله، ومما يُقوي هذا أنَّ هذا الاسم الكريم قد ورد في جميع الأحاديث التي فيها إشارة إلى الاسم الأعظم.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أنَّ الاسم الأعظم هو « الحي القيوم »، قال ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد: « فإنَّ صفة الحياة متضمّنةٌ لجميع صفات الكمال، مستلزمةٌ لها، وصفة القيومية متضمّنةٌ لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسمُ الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به

---

(١) التوحيد (٢/ ٢١).

أعطى هو اسم الحي القيوم ». اهـ[١].

وقد ورد هذا الاسم في أكثر الأحاديث التي فيها إشارةٌ إلى الاسم الأعظم، فهذا القول والذي قبله هما أقوى ما قيل في الاسم الأعظم[٢]، وعلى كلِّ حالٍ فهذه مسألة اجتهاد، لعدم ورود دليلٍ قطعي الدلالة على التعيين يجب أن يُصار إليه، إلا أنَّ من دعا الله بالأدعية المتقدّمة فقال في دعائه: « اللهم إنِّي أسألك بأنَّ لك الحمد، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنانُ بديعُ السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام »، أو قال: « اللهمّ إنِّي أسألك بأنِّي أشهد أنَّك أنت الله لا إله ألا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد »، فقد دعا الله باسمه الأعظم لإخبار النبي ﷺ عمّن دعا الله بذلك بأنّه دعاه باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب.

على أنّه ينبغي أن نتذكّر أنَّ لقبول الدعاء شروطاً عديدةً وردت في الكتاب والسنة، وسيأتي لها بسط إن شاء الله.

وفي الختام أسأل الله الكريم لي ولكم التوفيق لكل خير يحبه ويرضاه.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٠٤).

(٢) علّق سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله على هذا الموطن بقوله: ((والصواب أنَّ الأعظم بمعنى العظيم، وأنَّ أسماءَ الله سبحانه كلّها حسنى، وكلّها عظيمة، ومَن سأل الله سبحانه بشيء منها صادقاً مخلصاً سالماً من الموانع رُجيت إجابتُه، ويدلُّ على ذلك اختلاف الأحاديث الواردة في ذلك؛ ولأنَّ المعنى يقتضي ذلك، فكلُّ أسمائه حسنى، وكلُّها عظمى ﷻ، والله وليُّ التوفيق)).

٢٩ / فضائل الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر

إنَّ خير الكلام وأفضل الذِكر بعد القرآن الكريم أربعُ كلمات، لهنَّ قدرٌ رفيعٌ وشأنٌ عظيمٌ ومكانةٌ عاليةٌ في دين الله، هنّ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله ، والله أكبر.

وقد ورد في فضل هذه الكلمات الأربع نصوصٌ كثيرةٌ تدل دلالةً قويةً على عظم شأن وقدر هذه الكلمات، وما يترتّب على القيام بهنَّ من أجورٍ عظيمةٍ وأفضالٍ كريمةٍ، وخيراتٍ متواليةٍ في الدنيا والآخرة.

ولعلنا نستعرض بعضَ فضائل هذه الكلمات من خلال بعض النصوص الواردة في ذلك:

١ ـ فمن فضائل هذه الكلمات: أنّهنَّ أحب الكلام إلى الله،

فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أحب الكلام إلى الله تعالى أربع، لا يضرك بأيّهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر »[١]، ورواه الطيالسي في مسنده بلفظ: « أربع هنَّ من أطيب الكلام، وهنّ من القرآن، لا يضرك بأيِّهنَّ بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر »[٢] .

٢ ـ ومن فضائلهنَّ: أنَّ النبي ﷺ أخبر أنّهنَّ أحبُّ إليه مما طلعت عليه الشمس (أي من الدنيا وما فيها)، لما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢١٣٧).
(٢) مسند الطيالسي (ص:١٢٢).

هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحبُّ إلي ممّا طلعت عليه الشمس »[١].

٣ ـ ومن فضائلهن: ما ثبت في مسند الإمام أحمد، وشعب الإيمان للبيهقي بإسناد جيّد عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: مرّ بي رسول الله ﷺ فقلتُ: إنّي قد كبرتُ وضعُفت ـ أو كما قالت ـ فمُرني بعمل أعمله وأنا جالسة. قال:

« سبّحي اللهَ مائة تسبيحة، فإنَّها تعدل لك مائة رقبة تعتقينها من ولد إسماعيل، واحمدي الله مائة تحميدة، تعدل لكِ مائة فرس مُسرجة ملجمة تحملين عليها في سبيل الله، وكَبِّري اللهَ مائة تكبيرة فإنَّها تعدل لك مائة بدَنة مُقلّدة متقبّلَة، وهلِّلي مائة تهليلة ـ قال ابن خلف (الراوي عن عاصم) أحسبه قال ـ: تملأ ما بين السماء والأرض، ولا يرفع يومئذ لأحدٍ عملٌ إلا أن يأتي بمثل ما أتيتِ به »[٢]. قال المنذري: رواه أحمد بإسناد حسن[٣]. وحسّن إسناده العلامة الألباني حفظه الله[٤].

وتأمّل هذا الثواب العظيم المترتّب على هؤلاء الكلمات، فمن سبّح اللهَ مائة، أي قال: سبحان الله مائة مرّة فإنَّها تعدل عِتق مائة رقبة من ولد إسماعيل، وخصَّ بني إسماعيل بالذِّكر لأنَّهم أشرفُ العرب نَسباً، ومن حَمِد الله مائة، أي من قال: الحمد لله مائة مرّة كان له من الثواب مثل ثواب من

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٦٩٥).

(٢) المسند (٦/ ٣٤٤)، شعب الإيمان (رقم:٦١٢).

(٣) الترغيب والترهيب (٢/ ٤٠٩).

(٤) السلسلة الصحيحة (٣/ ٣٠٣).

تصدّق بمائة فرس مسرجةٍ ملجمةٍ، أي عليها سراجها ولجامها لحمل المجاهدين في سبيل الله، ومن كبّر اللهَ مائة مرّة، أي قال: الله أكبر مائة مرّة كان له من الثواب مثلُ ثواب إنفاق مائة بدنةٍ مقلّدةٍ متقبّلةٍ، ومن هلّل مائة، أي قال: لا إله إلا الله مائة مرة فإنّها تملأ ما بين السماء والأرض، ولا يُرفع لأحدٍ عملٌ إلا أن يأتي بمثل ما أتى به.

٤ ـ ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنّهنّ مكفِّرات للذنوب، فقد ثبت في المسند، وسنن الترمذي، ومستدرك الحاكم من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كُفِّرت عنه ذنوبُه ولو كانت أكثر من زَبَد البحر »، حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقرَّه الذهبي، وحسّنه الألباني(١).

والمراد بالذنوب المكفَّرة هنا أي الصغائر، لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتُنبت الكبائر »(٢)، فقيّد التكفير باجتناب الكبائر؛ لأنَّ الكبيرة لا يُكفِّرها إلا التوبة.

وفي هذا المعنى ما رواه الترمذي وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ مرّ بشجرة يابسة الورق فضربها بعصاه فتناثر الورق،

---

(١) المسند (٢/ ١٥٨،٢١٠)، وسنن الترمذي (رقم:٣٤٦٠)، ومستدرك الحاكم (١/ ٥٠٣)، وصحيح الجامع (رقم:٥٦٣٦).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٣٣).

فقال رسول الله ﷺ: « إنَّ الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر لَتُساقط من ذنوب العبد كما تَساقط ورق هذه الشجرة »، وحسّنه الألباني[١].

٥ ـ ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنَّهنَّ غرس الجنة، روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنَّه قال: « لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلامَ، وأخبِرهم أنَّ الجنةَ طيِّبةُ التربة، عذبةُ الماء، وأنَّها قيعان، غِراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر »[٢]، وفي إسناد هذا الحديث عبد الرحمن بن إسحاق، لكن للحديث شاهدان يتقوى بهما من حديث أبي أيوب الأنصاري، ومن حديث عبد الله بن عمر.

والقيعان جمع قاع، وهو المكان المستوي الواسع في وطأة من الأرض يعلوه ماء السماء، فيمسكه ويستوي نباته، كذا في النهاية لابن الأثير[٣]، والمقصود أنَّ الجنة ينمو غراسها سريعاً بهذه الكلمات كما ينمو غراس القيعان من الأرض ونبتها.

٦ ـ ومن فضائلهنَّ: أنَّه ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام يكثر تكبيره وتسبيحه وتهليله وتحميده، روى الإمام أحمد، والنسائي في عمل اليوم والليلة بإسناد حسن عن عبد الله بن شداد: أنَّ نفرًا من بني

---

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٥٣٣)، وصحيح الجامع (رقم:١٦٠١).
(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٤٦٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:١٠٥).
(٣) (٤/ ١٣٢).

عُذْرَة ثلاثةً أتوا النبيَّ ﷺ فأسلموا قال: فقال النبي ﷺ: « من يكفينيهم » قال طلحةُ: أنا، قال: فكانوا عند طلحة فبعث النبي ﷺ بعثاً فخرج فيه أحدُهم فاستشهدَ، قال: ثم بَعَثَ بعثاً آخر، فخرج فيهم آخر فاستشهد، قال: ثم مات الثالثُ على فراشه، قال طلحة: فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استُشهد أخيرًا يليه، ورأيت الذي استُشهد أولَهم آخرَهم، قال: فدخلني من ذلك، قال: فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، قال: فقال رسول الله ﷺ: « ما أنكرتَ من ذلك، ليس أحدٌ أفضل عند الله من مؤمن يُعمّرُ في الإسلام يَكثُر تكبيرُه وتسبيحُه وتهليله وتحميده »[1].

وقد دلّ هذا الحديث العظيم على عِظم فضل من طال عمرُه وحسُن عملُه، ولم يزل لسانُه رَطْباً بذكر الله ﷻ، وللحديث صلة وبالله وحده التوفيق.

---

(1) المسند (١/ ١٦٣)، والسنن الكبرى للنسائي كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/ رقم:١٠٦٧٤)، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (رقم:٦٥٤).

٣٠ / فضائل أخرى لهؤلاء الكلمات الأربع

لقد مرّ معنا ذكرُ جملة من الفضائل لكلمات أربع هنَّ أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

ونواصل هنا ذِكْر جملةٍ أخرى من فضائل هؤلاء الكلمات من خلال أحاديث رسول الله ﷺ الواردة في ذلك:

٧ ـ فمن فضائلهنَّ: أنَّ الله اختار هؤلاء الكلمات واصطفاهنَّ لعِباده، ورتّب على ذِكر الله بهنّ أجورًا عظيمةً، وثواباً جزيلاً، ففي المسند للإمام أحمد ومستدرك الحاكم بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « إنَّ الله اصطفى من الكلام أربعاً: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فمن قال: سبحان الله كُتب له عشرون حسنة، وحُطّت عنه عشرون سيّئة، ومن قال: الله أكبر فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين مِن قِبَل نفسِهِ كُتبت له ثلاثون حسنة، وحُطّ عنه ثلاثون خطيئة »[١].

وقد زاد في ثواب الحمد عندما يقوله العبد مِن قِبَل نفسه عن الأربع؛ لأنَّ الحمد لا يقع غالباً إلا بعد سبب كأكلٍ أو شُربٍ، أو حدوث نعمة، فكأنَّه وقع في مقابلة ما أُسديَ إليه وقت الحمد، فإذا أنشأ العبد الحمد من قِبَل نفسه دون أن يدفعه لذلك تجدُّدُ نعمةٍ زاد ثوابه.

٨ ـ ومن فضائلهنَّ: أنّهنَّ جُنّةٌ لقائلهنّ من النار، ويأتين يوم القيامة

(١) المسند (٢/ ٣٠٢)، والمستدرك (١/ ٥١٢)، وقال العلاّمة الألباني في صحيح الجامع (رقم:١٧١٨): صحيح.

مُنجيات لقائلهنّ ومقدّمات له، روى الحاكم في المستدرك، والنسائي في عمل اليوم والليلة، وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « خُذوا جُنّتَكم »، قلنا: يا رسول الله من عدو قد حضر! قال: « لا، بل جُنَّتُكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنَّهنّ يأتين يوم القيامة منجيات ومقدّمات، وهنّ الباقيات الصالحات ». قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححّه العلامة الألباني حفظه الله[١].

وقد تضمّن هذا الحديث إضافة إلى ما تقدّم وصفَ هؤلاء الكلمات بأنَّهنَّ الباقيات الصالحات، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[٢] والباقيات أي التي يبقى ثوابُها، ويدوم جزاؤُها، وهذا خيرُ أمَلٍ يؤمِّله العبد وأفضل ثواب.

٩ ـ ومن فضائلهنَّ: أنَّهنَّ يَنعَطِفْن حول عرش الرحمن ولهنّ دويٌّ كدويِّ النحل، يذكرن بصاحبهنّ، ففي المسند للإمام أحمد، وسنن ابن ماجه، ومستدرك الحاكم عن النعمان بن بَشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ مما تذكرون من جلال الله التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، يَنعَطِفْن حول العرش لهنّ دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل، تذكر بصاحبها، أما يحب أحدكم أن يكون له، أو لا يزال له من يذكر به ». قال البوصيري في زوائد

---

(١) المستدرك (١/ ٥٤١)، السنن الكبرى كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/ ٢١٢)، صحيح الجامع (رقم:٣٢١٤).

(٢) سورة الكهف، الآية: (٤٦).

سنن ابن ماجه: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وصحّحه الحاكم[١].

فأفاد هذا الحديث هذه الفضيلة العظيمة، وهي أنَّ هؤلاء الكلمات الأربع يَنعَطِفْن حول العرش أي يَمِلن حوله، ولهنّ دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل أي صوتٌ يشبه صوتَ النحل يُذَكِّرن بقائلهنّ، وفي هذا أعظم حضٍّ على الذِّكر بهذه الألفاظ، ولهذا قال في الحديث: « ألا يحب أحدكم أن يكون له أو لا يزال له من يذكر به ».

١٠ ـ ومن فضائلهنَّ: أنَّ النبي ﷺ أخبر أنَّهنّ ثقيلاتٌ في الميزان، روى النسائي في عمل اليوم والليلة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وغيرهم عن أبي سلمى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بَخٍ بَخٍ، ـ وأشار بيده بخمس ـ ما أثقلهنّ في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولدُ الصالح يُتوفى للمرء المسلم فيحتسبُه »، صححه الحاكم، ووافقه الذهبي[٢]، وللحديث شاهد من حديث ثوبان رضي الله عنه، خرّجه البزار في مسنده، وقال: إسناده حسن[٣].

وقوله في الحديث: « بَخٍ بَخٍ » هي كلمة تُقال عند الإعجاب بالشيء وبيان تفضيله.

١١ ـ ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنَّ للعبد بقول كلِّ واحدة منهنّ صدقة، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه: أنَّ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدُّثور

---

(١) المسند (٤/ ٢٦٨،٢٧١)، سنن ابن ماجه (رقم:٣٨٠٩)، المستدرك (١/ ٥٠٣).
(٢) السنن الكبرى كتاب: عمل اليوم واليلة (٦/ ٥٠)، صحيح ابن حبان (الإحسان) (٣/ ١١٤/ رقم:٣٣٨)، المستدرك (١/ ٥١١،٥١٢).
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار (٤/ ٩/ رقم:٣٠٧٢).

بالأجور، يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضولِ أموالهم. قال: « أوَ ليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون؟ إنَّ بكلِّ تسبيحة صدقة، وكلِّ تكبيرة صدقة، وكلِّ تحميدة صدقة، وكلِّ تهليلةٍ صدقة، وأمرٍ بالمعروف صدقة، ونهيٍ عن منكرٍ صدقة، وفي بُضعِ أحدكم صدقة ». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوتَه ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ »[1].

وقد ظنّ الفقراء أن لا صدقة إلا بالمال، وهم عاجزون عن ذلك، فأخبرهم النبي ﷺ أنَّ جميع أنواع فعل المعروف والإحسان صدقةٌ، وذكر في مقدّمة ذلك هؤلاء الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

١٢ ـ ومن فضائل هؤلاء الكلمات: أنَّ النبي ﷺ جعلهنّ عن القرآن الكريم في حقِّ من لا يُحسنه، روى أبو داود، والنسائي، والدارقطني، وغيرهم عن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنِّي لا أستطيع أن أتعلّمَ القرآنَ، فعلِّمني شيئا يُجزيني. قال: « تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله ». فقال الأعرابي: هكذا ـ وقبض يديه ـ فقال: هذا لله، فمَا لي؟ قال: « تقول: اللّهمّ اغفر لي وارْحمني وعافِني وارْزقني واهْدِني »، فأخذها الأعرابيُّ وقبض كفّيه، فقال النبي ﷺ: « أما هذا فقد مَلأَ يديه بالخير

(١) صحيح مسلم (رقم:١٠٠٦).

»[1].

قال المحدّث أبو الطيّب العظيم آبادي في تعليقه على سنن الدارقطني: سنده صحيح. وقال الألباني حفظه الله: سنده حسن[2].

فهذه بعض الفضائل الواردة في السنة النبوية لهؤلاء الكلمات الأربع، وقد ورد لكلِّ كلمة منهن فضائلُ مخصوصةٌ سيأتي تفاصيلها إن شاء الله، ومن يتأمل هذه الفضائل المتقدّمة يجد أنّها عظيمةٌ جدًا، ودالّةٌ على عظيم قدرِ هؤلاء الكلمات، ورِفعة شأنهنّ وكثرة فوائدهنّ وعوائدهنّ على العبد المؤمن، ولعلّ السر في هذا الفضل العظيم والله أعلم ما ذُكر عن بعض أهل العلم أنَّ أسماء الله تبارك وتعالى كلَّها مندرجةٌ في هذه الكلمات الأربع، فسبحان الله يندرج تحته أسماء التنزيه كالقدّوس والسلام، والحمد لله مشتملة على إثبات أنواع الكمال لله تبارك في أسمائه وصفاته، والله أكبر فيها تكبير الله وتعظيمه، وأنّه لا يُحصي أحدٌ الثناءَ عليه، ومن كان كذلك فـ لا إله إلا هو أي لا معبود حق سواه[3].

فللّه ما أعظمَ هؤلاء الكلمات، وما أجلَّ شأنهنَّ، وما أكبرَ الخير المترتّب عليهنّ، فنسأل الله أن يوفقنا للمحافظة والمداومة عليهنّ، وأن يجعلنا من أهلهنّ الّذين ألسنتهم رطبةٌ بذلك، إنّه وليّ ذلك والقادر.

---

(١) سنن أبي داود (رقم:٨٣٢)، سنن النسائي (٢/ ١٤٣)، سنن الدارقطني (١/ ٣١٣،٣١٤).

(٢) صحيح أبي داود (١/ ١٥٧).

(٣) انظر: جزء في تفسير الباقيات الصالحات للعلائي (ص:٤٠).

۞۞۞

٣١ / فضائل كلمة التوحيد لا إله إلاّ الله

كان الحديث فيما سبق حول ذِكرِ جملةٍ من النصوص النبوية الدالّة على فضل الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وفيما يلي سيكون الحديث في ذكر فضائل كلمة التوحيد لا إله إلاّ الله، التي هي أفضل هؤلاء الكلمات الأربع، وأجلّهنّ وأعظمهنّ؛ فلأجل هذه الكلمة خُلقت الخليقةُ، وأُرسلت الرسلُ، وأُنزلت الكتبُ، وبها افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار، فهي العروة الوثقى، وهي كلمة التقوى، وهي أعظم أركان الدِّين وأهم شعب الإيمان، وهي سبيل الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي كلمة الشهادة، ومفتاح دار السعادة، وأصل الدين وأساسه ورأس أمره، وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدين فوق ما يصفُه الواصفون ويعرفه العارفون {**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**}(١).

إنَّ لهذه الكلمة الجليلة فضائلَ عظيمةً، وفواضلَ كريمةً، ومزايا جمّةً، لا يُمكن لأحد استقصاؤها، ومما ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنَّ الله تبارك وتعالى جعلها زبدةَ دعوة الرسل، وخلاصةَ رسالاتهم، قال الله تعالى: {**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**}(٢)، وقال تعالى: {**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**}(٣)، وقال تعالى في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٢٥).

(٣) سورة النحل، الآية: (٣٦).

أول سورة النحل: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ}(١)، وهذه الآية هي أول ما عدّد الله على عباده من النعم في هذه السورة، فدلّ ذلك على أنَّ التوفيق لذلك هو أعظم نعم الله تعالى التي أسبغها على عباده كما قال سبحانه: {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}(٢). قال مجاهد: « لا إله إلا الله »(٣).

وقال سفيان بن عيينة: « ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرّفهم لا إله إلا الله »(٤).

ـ ومن فضائلها: أنَّ الله وصفها في القرآن بأنَّها الكلمة الطيّبة، قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}(٥).

ـ وهي القول الثابت في قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}(٦).

وهي العهد في قوله تعالى: {لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا}(٧)، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال:

---

(١) سورة النحل، الآية: (٢).

(٢) سورة لقمان، الآية: (٢٠).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (١١/ ٧٨).

(٤) ذكره ابن رجب في ((كلمة الإخلاص)) (ص:٥٣).

(٥) سورة إبراهيم، الآية: (٢٤).

(٦) سورة إبراهيم، الآية: (٢٧).

(٧) سورة مريم، الآية: (٨٧).

« العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويتبرّأ إلى الله ﷻ من الحول والقوة، وهي رأس كلِّ تقوى »[١].

ـ ومن فضائلها: أنّها العروة الوثقى التي من تمسّك بها نجا، ومن لم يتمسّك بها هلك، قال تعالى: {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}[٢]، وقال تعالى:{ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}[٣].

ـ ومن فضائلها: أنّها الكلمة الباقية التي جعلها إبراهيم الخليل عليه السلام في عقبِه لعلهم يرجعون، قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[٤].

ـ وهي كلمة التقوى التي ألزمها الله أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا أحقَّ بها وأهلَها، قال الله تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[٥].

روى أبو إسحاق السبيعي ، عن عمرو بن ميمون قال: ما تكلّمَ الناس بشيء أفضل من لا إله إلا الله، فقال سعد بن عياض: « أتدري ما هي يا أبا عبد الله؟ هي والله كلمة التقوى ألزمها الله أصحاب محمد ﷺ، وكانوا أحقّ

---

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٣/ ١٥١٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٥٦).

(٣) سورة لقمان، الآية: (٢٢).

(٤) سورة الزخرف، الآية: (٢٦ ـ ٢٨).

(٥) سورة الفتح، الآية: (٢٦).

بها وأهلَها رضي الله عنهم »[١].

ـ ومن فضائل هذه الكلمة: أنَّها منتهى الصواب وغايته، قال الله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً}[٢].

روى علي بن طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً} أنَّه قال: « إلا من أذنَ له الربّ ﷻ بشهادة أن لا إله إلا الله، وهي منتهى الصواب »[٣].

وقال عكرمة: « الصواب: لا إله إلا الله »[٤].

ـ ومن فضائلها: أنَّها هي دعوة الحق المرادة بقوله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ}[٥].

ـ ومن فضائلها: أنَّها هي الرابطة الحقيقية التي اجتمع عليها أهل دين الإسلام، فعليها يُوالون ويعادون، وبها يُحبّون ويُبغضون، وبسببها أصبح المجتمع المسلم كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص يَشُدُّ بعضها بعضاً.

قال الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في كتابه أضواء البيان: « والحاصل أنَّ الرابطة الحقيقية التي تَجمع المفترقَ وتؤلف المختلف هي رابطة لا إله إلا الله، ألا ترى أنَّ هذه الرابطة التي تجمع المجتمع الإسلامي

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٣/ ١٥٣٣).

(٢) سورة النبأ، الآية: (٣٨).

(٣) رواه الطبراني في الدعاء (٣/ ١٥٢٠).

(٤) رواه الطبراني في الدعاء (٣/ ١٥٢٠).

(٥) سورة الرعد، الآية: (١٤).

كلَّه كأنَّه جسدٌ واحدٌ، وتجعله كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، عطفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف، قال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}(١)، فقد أشار تعالى إلى أنَّ الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومن حوله وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم إنَّما هي الإيمان بالله جلّ وعلا.

إلى أن قال رحمه الله: وبالجملة فلا خلاف بين المسلمين أنَّ الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة لا إله إلا الله، فلا يجوز ألبتة النداء برابطة غيرها »(٢) اهـ.

ـ ومن فضائل هذه الكلمة: أنَّها أفضل الحسنات، قال الله تعالى: {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا}(٣).

وقد ورد عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وغيرهم: أنَّ المراد بالحسنة: « لا إله إلا الله »(٤)، وعن عكرمة رحمه الله في قول الله ﷻ: {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا} قال: « قول: لا إله إلا الله. قال: له منها خير؛ لأنَّه لا

---

(١) سورة غافر، الآية: (٧ ـ ٩).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٤٤٨،٤٤٧).

(٣) سورة النمل، الآية: (٨٩)، القصص، الآية: (٨٤).

(٤) انظر: الدعاء للطبراني (٣/ ١٤٩٨،١٤٩٧).

شيء خير من لا إله إلا الله »[١].

وقد ثبت في المسند وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله عَلِّمني عملاً يُقرّبني من الجنة ويُباعدني من النار. فقال: « إذا عملتَ سيِّئةً فاعمل حسنةً فإنَّها عشر أمثالها ». قلت: يا رسول الله، أفَمِنَ الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: « نعم هي أحسن الحسنات »[٢].

فهذه بعض فضائل هذه الكلمة العظيمة،من خلال ما ورد في القرآن الكريم، وسوف نستكمل ذكر بعض فضائلها من خلال ما وَرَد من ذلك في حديث رسول الله ﷺ والتوفيق بيد الله وحده.

۞۞۞

(١) أورده ابن البنا في ((فضل التهليل وثوابه الجزيل)) (ص:٧٤).
(٢) المسند (٥/ ١٦٩).

٣٢ / فضائلُ أخرى لكلمة التوحيد لا إله إلاّ الله

تحدّثنا فيما سبق عن فضائل كلمة التوحيد: لا إله إلا الله من خلال ما ورد من ذلك في القرآن الكريم، تلك الكلمة العظيمة التي لأجلها قامت الأرض والسماوات، وخُلقت جميعُ المخلوقات، وبها أُرسل الرسلُ، وأُنزلت الكتبُ، وشُرعت الشرائعُ، ولأجلها نُصبت الموازين، ووُضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وانقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجّار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي الحق الذي أسست عليه الملّة ونُصبت القبلة، وعنها يُسأل الأولون والآخرون يوم القيامة، فلا تزول قَدَما عبدٍ بين يدي الله حتى يُسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسَلِين؟

فجواب الأولى: بتحقيق كلمة التوحيد لا إله إلا الله علماً وإقرارًا وعملاً.

وجواب الثاني: بتحقيق أنَّ محمدا رسول الله علماً وإقرارًا وانقيادًا وطاعةً[١].

إنَّ فضائل كلمة التوحيد لا إله إلاّ الله لا يُمكن لمخلوق عدُّها، إذ يترتّبُ عليها من الأجر والثواب والفوائد الجمّة في الدنيا والآخرة ما لا يخطر ببال ولا يدور في خيال، ولعَلّي أستعرضُ جملةً من فضائل هذه الكلمة من خلال ما ورد من ذلك في حديث رسول الله ﷺ.

ـ فمن فضائلها: أنّها أفضلُ الأعمال وأكثرُها تضعيفاً، وتَعدِلُ عِتقَ

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم (١/ ٣٤).

الرِّقاب، وتكون لقائلها حِرزًا من الشيطان، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيء قديرٌ في يوم مائة مرّة كانت له عِدْل عشرِ رقاب، وكُتب له مائة حسنة، ومُحي عنه مائة سيّئة، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به، إلا أحدٌ عملَ أكثرَ من ذلك »(١).

وفيهما أيضاً عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من قالها عشرَ مرات كان كمن أَعتقَ أربعة أنفس من وَلَدِ إسماعيل »(٢).

ـ ومن فضائلها: أنَّها أفضل ما قاله النبيّون، لما ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: « أفضل ما قلتُ أنا والنبيّون عشيةَ عَرَفَةَ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيء قدير »(٣)، وفي لفظ: « خيرُ الدعاءِ دعاءُ يوم عرفة، وخيرُ ما قلته أنا والنبيُّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيء قدير »(٤).

ـ ومن فضائلها: أنَّها ترجحُ بصحائف الذنوبِ يوم القيامة كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما المُخرَّج في المسند، وسنن النسائي، والترمذي، وغيرهما بإسناد جيّد عن النبي ﷺ أنَّه قال: «

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٣٢٩٣)، و(رقم:٦٤٠٣)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩١).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٤)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء (رقم:٨٧٤) من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (رقم:٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو. وحسنه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٧،٨)، وقال: الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد.

يُصاح برجل من أمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامةِ، فيُنشرُ له تسعةٌ وتسعون سِجِلاً، كلُّ سِجِلٍ منها مدّ البصر، ثم يقول الله تبارك وتعالى له: أتُنكر من هذا شيئا؟ فيقول: لا يا ربّ. فيقول ﷻ: أَلَكَ عُذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب. فيقول ﷻ: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنَّه لا ظلم عليك، فتُخرجُ له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السِجِلاَّت؟ فيقول ﷻ: إنَّك لا تُظلم، قال: فتُوضَع السجلات في كِفَّة والبطاقة في كِفَّة، فطاشت السِجِلاَّت وثقُلت البطاقة »[1].

ولا ريب أنَّ هذا قد قام بقلبه من الإيمان ما جعل بطاقته التي فيها لا إله إلا الله تطيش بتلك السِجلاّت، إذ الناس متفاضلون في الأعمال بحسب ما يقوم بقلوبهم من الإيمان، وإلا فكم من قائل لا إله إلا الله لا يحصل له مثل هذا لضعف إيمانه بها في قلبه، فقد ورد في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قال: « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرةٍ من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برّة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير »[2]، فدلّ ذلك على أنَّ أهل لا إله إلا الله متفاوتون فيها بحسب ما قام في قلوبهم من إيمان.

ـ ومن فضائل هذه الكلمة: أنَّها لو وُزِنت بالسموات والأرض

---

(١) المسند (٢/ ٢١٣)، سنن الترمذي (رقم:٢٦٣٩)، سنن ابن ماجه (رقم:٤٣٠٠).
وقال العلامة الألباني: صحيح. صحيح الجامع (رقم:٨٠٩٥)

(٢) صحيح البخاري (رقم:٤٤)، وصحيح مسلم (رقم:١٩٣) (٣٢٥).

رجحت بهنّ كما في المسند عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: « أنَّ نوحاً قال لابنه عند موته: آمُرُك بلا إله إلا الله، فإنَّ السموات السبع والأرضين السبع لو وُضعت في كفة، ووُضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهنّ لا إله إلا الله، ولو أنَّ السموات السبع في حلقة مبهمة لقصمتهنّ لا إله إلا الله »(١).

ـ ومن فضائلها: أنَّها ليس لها دون الله حجاب، بل تخرق الحُجب حتى تصل إلى الله ﷻ، ففي الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: « ما قال عبدٌ لا إله إلا الله مخلصاً إلا فُتحت له أبواب السماء حتى تُفضي إلى العرش ما اجتَنَب الكبائر »(٢).

ـ ومن فضائلها: أنَّها نجاة لقائلها من النار، ففي صحيح مسلم: أنَّ النبي ﷺ سمع مؤذِّناً يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: « خرج من النار »(٣)، وفي الصحيحين من حديث عِتبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: « إنَّ الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله »(٤).

ـ ومن فضائل هذه الكلمة: أنَّ النبي ﷺ جعلها أفضل شُعب الإيمان، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: « الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى

---

(١) المسند (٢/ ١٧٠)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:١٣٤).
(٢) سنن الترمذي (٣٥٩٠)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٥٦٤٨).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٣٨٢).
(٤) صحيح البخاري (رقم:٦٩٣٨)، وصحيح مسلم (رقم:٣٣) (٢٦٣).

عن الطريق »[١].

ـ ومن فضائلها: أنَّ النبي ﷺ أخبر أنَّها أفضلُ الذِّكر كما في الترمذي وغيره من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أفضل الذِّكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله »[٢].

ـ ومن فضائلها: أنَّ من قالها خالصاً من قلبه يكون أسعد الناس بشفاعة الرسول الكريم ﷺ يوم القيامة، كما في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: قيل: يا رسول الله من أَسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لما رأيت من حِرصك على الحديث، أَسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه »[٣].

وفي قول النبي ﷺ في هذا الحديث: « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » دليلٌ على أنَّ لا إله إلا الله لا تُقبل من قائلها بمجرّد قوله لها بلسانه فقط، بل لا بدّ من استيفاء شروطها والإتيان بقيودها الواردة في الكتاب والسنة، إذ هي لا تُقبل من قائلها إلا بذلك، وعن هذا الموضوع الهام سيكون الكلام القادم إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٩)، وصحيح مسلم (رقم:٣٥).

(٢) سنن الترمذي (رقم:٣٣٨٣)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:١١٠٤).

(٣) صحيح البخاري (رقم:٩٩).

۞۞۞

٣٣ / شروط لا إله إلاّ الله

لقد تقدّم معنا ذكرُ شيء من فضائل كلمة التوحيد لا إله إلا الله التي هي خير الكلمات وأفضلُها وأجلُّها، وذِكرُ ما يترتّبُ عليها من أجورٍ كريمةٍ، وفضائلَ عظيمةٍ، وثمارٍ نافعةٍ في الدنيا والآخرة، لكن يجب على المسلم أن يعلمَ أنَّ لا إله إلا الله لا تُقبل من قائلها بمجرّد نطقه لها باللسان فقط، بل لا بدّ من أداء حقّها وفرضها، واستيفاء شروطها الواردة في الكتاب والسنة، وكلُّ مسلمٍ يعلم أنَّ كلَّ طاعةٍ يتقرّب بها إلى الله لا تُقبل منه إلا إذا أتى بشروطها، فالصلاة لا تُقبل إلا بشروطها المعلومة، والحج لا يُقبل إلا بشروطه، وجميع العبادات كذلك لا تُقبل إلاّ بشروطها المعلومة من الكتاب والسنة، وهكذا الشأن في لا إله إلا الله لا تُقبل إلا إذا قام العبد بشروطها المعلومة في الكتاب والسنة.

وقد أشار سلفُنا الصالح رحمهم الله إلى أهميّة العناية بشروط لا إله إلا الله ووجوب الالتزام بها، وأنّها لا تُقبل إلا بذلك، ومن ذلك ما جاء عن الحسن البصري رحمه الله: أنّه قيل له: إنَّ ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة. فقال: من قال لا إله إلا الله فأدّى حقّها وفرضَها دخل الجنة.

وقال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته: ما أعددتَّ لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. فقال الحسن: نِعمَ العُدّة، لكن للا إله إلا الله شروطاً فإياك وقذف المحصنات.

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مفتاح الجَنَّة لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فُتح لك،

وإلا لم يُفتح. يشير بالأسنان إلى شروط لا إله إلا الله[١].

ثم إنَّه باستقراء أهل العلم لنصوص الكتاب والسنة تبيّن أنَّ لا إله إلا الله لا تُقبل إلا بسبعة شروط وهي:

١ ـ العلم بمعناها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل.

٢ ـ اليقين المنافي للشك والريب.

٣ ـ الإخلاص المنافي للشرك والرياء.

٤ ـ الصدق المنافي للكذب.

٥ ـ المحبّة المنافية للبغض والكره.

٦ ـ الانقياد المنافي للترك.

٧ ـ القبول المنافي للردّ.

وقد جمع بعضُ أهل العلم هذه الشروط السبعة في بيتٍ واحدٍ فقال:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقُك معْ ... محبّةٍ وانقيادٍ والقبولُ لها

ولنقِف وقفةً مختصرةً مع هذه الشروط لبيان المراد بكلٍّ واحدٍ منها، مع ذِكر بعض أدلّتها من الكتاب والسنة[٢].

ـ **أما الشرط الأول**: وهو العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل، وذلك بأن يعلم من قالها أنَّها تنفي جميع أنواع العبادة عن كلِّ من سوى الله، وتُثبت ذلك لله وحده، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي نعبدُك ولا نعبد غيرَك، ونستيعن بك ولا نستعين بسواك.

(١) أورد هذه الآثار ابن رجب في ((كلمة الإخلاص)) (ص:١٤).

(٢) وانظر شرحها موسعاً في: معارج القبول للشيخ حافظ حكمي (١/ ٣٧٧ وما بعدها).

قال الله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ}[١]، وقال تعالى: {إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[٢] قال المفسِّرون: إلا من شهد بـ لا إله إلا الله، {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي: معنى ما شهدوا به في قلوبهم وألسنتهم.

وثبت في صحيح مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من مات وهو يعلم أنَّه لا إله إلا الله دخل الجنة »[٣]، فاشترط عليه الصلاة والسلام العلمَ.

ـ **أما الشرط الثاني**: فهو اليقين المنافي للشك والريب، أي أن يكون قائلها موقناً بها يقيناً جازماً لا شك فيه ولا ريب، واليقين هو تمام العلم وكماله، قال الله تعالى في وصف المؤمنين: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[٤]، ومعنى قوله: {ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} أي أيقنوا ولم يشكّوا.

وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرُ شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة »[٥].

وثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: « من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله

---

(١) سورة محمد، الآية: (١٩).
(٢) سورة الزخرف، الآية: (٨٦).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٦).
(٤) سورة الحجرات، الآية: (١٥).
(٥) صحيح مسلم (رقم:٢٧).

إلاَّ الله مستيقناً بها قلبه فبشِّره بالجنة »[1]، فاشترط اليقين.

ـ **والشرط الثالث**: هو الإخلاص المنافي للشرك والرياء، وذلك إنَّما يكون بتصفية العمل وتنقيته من جميع الشوائب الظاهرة والخفيّة، وذلك بإخلاص النية في جميع العبادات لله وحده، قال تعالى: {**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**}[2]، وقال تعالى: {**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**}[3]، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: « أسعدُ الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه »[4]، فاشترط الإخلاص.

ـ **والشرط الرابع**: هو الصدق المنافي للكذب، وذلك بأن يقولَ العبدُ هذه الكلمة صادقاً من قلبه، والصدق هو أن يواطئ القلبُ اللسانَ، ولذا قال الله تعالى في ذمِّ المنافقين: {**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**}[5]، فوصفهم سبحانه بالكذب؛ لأنَّ ما قالوه بألسنتهم لم يكن موجوداً في قلوبهم، وقال سبحانه وتعالى: {**الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**}[6]، وثبت في الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٣١).

(٢) سورة الزمر، الآية: (٣).

(٣) سورة البينة، الآية: (٥).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٩٩).

(٥) سورة المنافقون، الآية: (١).

(٦) سورة العنكبوت، الآية: (١ ـ ٣).

ﷺ قال: « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله صادقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار »(١)، فاشترط الصدق.

ـ **الشرط الخامس**: المحبَّة المنافية للبغض والكره، وذلك بأن يحب قائلُها اللهَ ورسولَه ودينَ الإسلام والمسلمين القائمين بأوامر الله الواقفين عند حدوده، وأن يُبغض من خالف لا إله إلا الله وأتى بما يُناقضها من شرك وكفر، وممّا يدل على اشتراط المحبة في الإيمان قول الله تعالى: {**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً للهِ**}(٢)، وفي الحديث: « أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله »(٣).

ـ **والشرط السادس**: القبول المنافي للردّ، فلا بدّ من قبول هذه الكلمة قبولاً حقاً بالقلب واللسان، وقد قصّ الله علينا في القرآن الكريم أنباء من سبق ممّن أنجاهم لقبولهم لا إله إلا الله، وانتقامه وإهلاكه لمن ردّها ولم يقبلها، قال تعالى: {**ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ**}(٤)، وقال سبحانه في شأن المشركين: {**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ**}(٥).

ـ **الشرط السابع**: الانقياد المنافي للترك؛ إذ لا بد لقائل لا إله إلا الله أن ينقاد لشرع الله، ويُذعنَ لحكمه ويسلمَ وجهه إلى الله إذ بذلك يكون متمسكاً بـ لا إله إلا الله، ولذا يقول تعالى: {**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ**

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٢٨)، وصحيح مسلم (رقم:٣٢).
(٢) سورة البقرة، الآية: (١٦٥).
(٣) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٨٦)، وحسّنه العلاّمة الألباني في الصحيحة (رقم:١٧٢٨).
(٤) سورة يونس، الآية: (١٠٣).
(٥) سورة الصافات، الآية: (٣٥،٣٦).

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}[١]، أي فقد استمسك بـ لا إله إلا الله، فاشترط سبحانه الانقياد لشرع الله، وذلك بإسلام الوجه له سبحانه.

فهذه هي شروط لا إله إلا الله، وليس المرادُ منها عدَّ ألفاظها وحفظَها فقط، فكم من عاميٍّ اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له: اعددها لم يُحسن ذلك، وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها، فالمطلوب إذاً العلم والعمل معاً ليكون المرء بذلك من أهل لا إله إلا الله صدقاً، ومن أهل كلمة التوحيد حقاً، والموفَّق لذلك والمعين هو الله وحده، فنسأله سبحانه أن يوفِّقنا وإياكم لتحقيق ذلك، والحمد لله وحده.

❁❁❁

(١) سورة لقمان، الآية: (٢٢).

٣٤ / مدلولُ ومعنى كلمة التوحيد لا إله إلاّ الله

إنَّ كلمة التوحيد لا إله إلا الله التي هي خير الذِّكر وأفضله وأكمله لا تكون مقبولة عند الله بمجرّد التلفّظ بها باللسان فقط، دون قيامٍ من العبدِ بحقيقة مدلولها، وتطبيق لأساس مقصودها من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله، مع الاعتقاد الجازم لما تضمّنته من ذلك والعمل به، فبذلك يكون العبد مسلماً حقاً، وبذلك يكون من أهل لا إله إلا الله.

وقد تضمّنت هذه الكلمة العظيمة أنَّ ما سوى الله ليس بإله، وأنَّ إلهية ما سواه أبطلُ الباطلِ، وإثباتَها أظلمُ الظلم، ومنتهى الضلال، قال الله تعالى: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِن مَن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}**(١)، وقال تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ}**(٢)، وقال تعالى: **{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}**(٣)، وقال تعالى: **{وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}**(٤)، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ولا ريب أنَّ صرف العبادة لغير الله ظلم؛ لأنَّه وضع لها في غير موضعها، بل إنَّه أظلم الظلم وأخطره.

إنَّ لِـ لاَ إله إلا الله ـ هذه الكلمة العظيمة ـ مدلولاً لا بدّ من فهمه، ومعنىً لا بدّ من ضبطه، إذ غيرُ نافع بإجماع أهل العلم النطقُ بهذه الكلمة

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: (٥،٦).

(٢) سورة الحج، الآية: (٦٢).

(٣) سورة لقمان، الآية: (١٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٥٤).

من غير فهم لمعناها، ولا عمل بما تقتضيه، كما قال الله سبحانه: {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}(١)، ومعنى الآية كما قال أهل التفسير أي: إلا من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم، إذ إنَّ الشهادة تقتضي العلم بالمشهود به، فلو كانت عن جهل لم تكن شهادة، وتقتضي الصدق، وتقتضي العمل بذلك، وبهذا يتبيّن أنّه لا بدّ في هذه الكلمة من العلم بها مع العمل والصدق، فبالعلم ينجو العبد من طريقة النصارى الذين يعملون بلا علم، وبالعمل ينجو من طريق اليهود الذين يعلمون ولا يعملون، وبالصدق ينجو من طريقة المنافقين الذين يُظهرون ما لا يُبطنون، ويكون بذلك من أهل صراط الله المستقيم، من الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

والحاصل أنَّ لا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً، واعتقد ذلك وعمل به، أما من قالها وعمل بها ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وأما من قالها وعمل بضدّها وخلافها من الشرك فهو الكافر، وكذلك من قالها وارتدّ عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنّها لا تنفعه ولو قالها ألف مرّة، وكذلك من قالها وهو يصرف أنواعاً من العبادة لغير الله كالدعاء، والذبح، والنذر، والاستغاثة، والتوكل، والإنابة، والرجاء، والخوف والمحبة، ونحو ذلك، فمن صرفَ مما لا يصلحُ إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك بالله العظيم ولو نطق بلا إله إلا الله؛ إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص الذي هو معنى ومدلول هذه الكلمة

(١) سورة الزخرف، الآية: (٨٦).

العظيمة(١).

فإنَّ لا إله إلا الله معناها: لا معبود حق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له، والإله في اللغة هو المعبود، ولا إله إلا الله: أي لا معبود حق إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢) مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٣)، فتبيّن بذلك أنَّ معنى الإله هو المعبود، وأنَّ لا إله إلا الله معناها إخلاص العبادة لله وحده واجتناب عبادة الطاغوت، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش: قولوا: لا إله إلا الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٤)، وقال قومُ هودٍ لنبيّهم لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾(٥)، قالوا ذلك وهو إنّما دعاهم إلى لا إله إلا الله؛ لأنّهم فهموا أنَّ المراد بها نفي الألوهية عن كلِّ من سوى الله وإثباتُها لله وحده لا شريك له، فـ لا إله إلا الله اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلهية عن كلِّ ما سوى الله تعالى، فكلُّ ما سوى الله من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فليس بإله، وليس له من العبادة شيء، وأثبتت الإلهية لله وحده، بمعنى أنَّ العبد لا يأْلَهُ غيرَه، أي لا يقصده بشيء من التألّه، وهو تعلّق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة كالدعاء

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص:٧٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: (٢٥).

(٣) سورة النحل، الآية: (٣٦).

(٤) سورة ص، الآية: (٥).

(٥) سورة الأعراف، الآية: (٧٠).

والذبح والنذر وغير ذلك.

وقد جاء في القرآن الكريم نصوصٌ كثيرةٌ تُبيّنُ معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وتوضح المراد بها، ومن ذلك قول الله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}(١)، وقوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}(٢)، وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}(٣)، وقال تعالى حكاية عن مؤمن يس~: {وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}(٤)، وقال تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي}(٥)، وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}(٦)، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا، وهي تُبيِّن أنَّ معنى لا إله إلا الله هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفرادُ الله وحده بالعبادة، فهذا هو الهدى ودين الحق الذي أرسل

(١) سورة البقرة، الآية: (١٦٣).

(٢) سورة البينة، الآية: (٥).

(٣) سورة الزخرف، الآية: (٢٦ ـ ٢٨).

(٤) سورة يس، الآية: (٢٢ ـ ٢٤).

(٥) سورة الزمر، الآية: (١١ ـ ١٤).

(٦) سورة غافر، الآية: (٤١ ـ ٤٣).

الله به رسله وأنزل به كتبه، أما قول الإنسان لا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، بل لربما جعل لغير الله حظاً ونصيباً من عبادته من الدعاء والخوف والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادات فإنَّ هذا لا يكفي العبدَ لأن يكون من أهل لا إله إلا الله، ولا ينجيه يوم القيامة من عذاب الله[١].

فليست لا إله إلا الله اسماً لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له، أو لفظاً لا مضمون له، كما قد يظنّه بعض الظانين، الذين يعتقدون أنَّ غاية التحقيق في ذلك هو النطق بهذه الكلمة من غير اعتقاد في القلب بشيء من المعاني، أو التلفظ بها من غير إقامة لشيء من الأصول والمباني، وهذا قطعاً ليس هو شأن هذه الكلمة العظيمة، بل هي اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني، وحاصله كما تقدّم البراءةُ من عبادة كلِّ ما سوى الله، والإقبال على الله وحده خضوعاً وتذلّلاً، وطمعاً ورغباً، وإنابةً وتوكّلاً، ودعاءً وطلباً، فصاحب لا إله إلا الله لا يَسأل إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يتوكّل إلا على الله، ولا يرجو غير الله، ولا يذبح إلا لله، ولا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله، ويكفر بجميع ما يُعبد من دون الله، ويبرأ إلى الله من ذلك.

فيا لها من مسألة ما أجلَّها، ويا له من أمر ما أبيَنَه وأوضَحَه، ولكن التوفيق بيد الله وحده، وهو وحده المستعان.

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص:١٤٠).

۞۞۞

٣٥ / نواقض شهادة أن لا إله إلاّ الله

لقد مرّ معنا شروطُ كلمة التوحيد لا إله إلا الله التي لا بد من توفّرها في العبد لتكون مقبولةً منه عند الله، وهي شروطٌ عظيمةُ الشأن، جليلةُ القدر يجب على كلِّ مسلم أن يُعنى بها عنايةً كبيرةً، ويهتمّ بها اهتماماً بالغاً، وإنَّ مما ينبغي أن يهتم به المسلم في هذا الباب العظيم معرفة نواقض هذه الكلمة ليكون منها في حذر، فإنَّ الله تبارك وتعالى قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين المحقّقين لهذه الكلمة مفصّلة، وبيّن سبيل المجرمين المخالفين لها مفصّلة، وبيّن سبحانه عاقبة هؤلاء وعاقبة هؤلاء، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين في كتابِه وكشفَهما وأوضحَهما وبيّنَهما غايةَ البيان، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[2]، ومن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبِن له طريقهم أوشك أن يقع في بعض ما هم فيه من الباطل، ولذا قال أمير المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: « إنّما تُنقض عرى الإسلام عروةً عروةً إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية »[3].

ولهذا جاءت النصوص الكثيرةُ في الكتاب والسنة المحذرةُ من أسباب

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٥٥).

(٢) سورة النساء، الآية: (١١٥).

(٣) انظر: الفوائد لابن القيم (ص:٢٠١ وما بعدها).

الرِّدة وسائر أنواع الشرك والكفر المناقضة لكلمة التوحيد لا إله إلا الله، وقد ذكر العلماء رحمهم الله في باب حكم المرتدّ من كتب الفقه: أنَّ المسلم قد يرتدُّ عن دينه بأنواعٍ كثيرةٍ من النواقض إذا وقع فيها، أو في أيِّ شيء منها ارتَدَّ عن الدِّين وانتقل من الملّة، ولم ينفعه مجرّد التلفّظ بـ لا إله إلا الله؛ إذ إنَّ هذه الكلمة العظيمة التي هي خير الذِّكر وأفضله لا تكون نافعة لقائلها إلا إذا أتى بشروطها واجتنب كلَّ أمرٍ يُناقضها.

وما من ريب أنَّ في معرفة المسلم لهذه النواقض فائدةً عظيمةً في الدين، إذا عرفها معرفة يقصد من ورائها السلامة من هذه الشرور، والنجاة من تلك الآفات، ولهذا فإنَّ من عَرَفَ الشركَ والكفرَ والباطلَ وطرقَه وأبغضها وحذرها وحذّر منها ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش إيمانه، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لتلك الأمور ونفرةً عنها كان له في معرفته هذه من الفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا الله، والله سبحانه يُحبُّ أن تُعرف سبيلُ الحق لتُحب وتُسلك، ويحب أن تُعرف سبيل الباطل لتُجتنب وتُبغض؛ إذ إنَّ المسلم كما أنَّه مطالب بمعرفة سبيل الخير ليطبّقها، فهو كذلك مطالب بمعرفة سبل الشر ليحذرها، ولهذا ثبت في الصحيحين عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما أنَّه قال: كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني[1]. ولهذا أيضاً قيل:

عرفت الشرَّ لا للشرِّ ولـكن لتوقّيه

ومن لم يعرف الشرَّ من الناس يقع فيه

وإذ كان الأمر بهذه الحال وعلى هذا القدر من الأهمية فإنَّ الواجب

([1]) صحيح البخاري (رقم:٣٦٠٦)، وصحيح مسلم (رقم:١٨٤٧).

على كلِّ مسلم أن يعرف الأمور التي تناقض كلمة التوحيد لا إله إلا الله ليكون منها على حذر، وهي كما تقدّم تنتقض بأمورٍ كثيرةٍ، إلا أنَّ أشدَّ هذه النواقض خطرًا وأكثرها وقوعاً عشرةُ نواقض ذكرها غيرُ واحد من أهل العلم رحمهم الله[١]، وفيما يلي ذكرٌ لهذه النواقض على سبيل الإيجاز، ليحذرها المسلم وليحذّر منها غيره من المسلمين رجاءَ السلامة والعافية منها.

أما الأول: فهو الشرك في عبادة الله، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾[٣]، ومن ذلك دعاءُ الأموات والاستغاثةُ بهم، والنذرُ والذبحُ لهم، ونحو ذلك.

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكّل عليهم فقد كفر إجماعاً، قال الله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[٤].

الثالث: من لم يُكفِّر المشركين أو شَكَّ في كفرهم أو صحّح مذهبهم كَفَر.

الرابع: من اعتقد أنَّ هدي غير النبي ﷺ أكملُ من هديه، أو أنَّ حكم غيره أحسنُ من حكمه، فهو كافرٌ؛ كالذين يفضّلون حكم الطاغوت على

---

(١) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٢٣٢ وما بعدها).
(٢) سورة النساء، الآية: (٤٨).
(٣) سورة المائدة، الآية: (٧٢).
(٤) سورة يونس، الآية: (١٨).

حكمه سبحانه وتعالى.

الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فقد كفر؛ لقوله تعالى: {**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**}(١).

السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: {**قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**}(٢).

السابع: السحرُ، ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تعالى: {**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ**}(٣).

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: {**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**}(٤).

التاسع: من اعتقد أنَّ بعض الناس يَسَعُه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، فهو كافر؛ لقوله تعالى: {**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**}(٥).

العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلّمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: {**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ**}(٦).

---

(١) سورة محمد، الآية: (٩).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٦٥،٦٦).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٠٢).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٥١).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

(٦) سورة السجدة، الآية: (٣٢).

فهذه عشرة أمورٍ من نواقض كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فمن وقع في شيء منها ـ والعياذ بالله ـ انتقض توحيده، وانهدم إيمانه، ولم ينتفع بقوله لا إله إلا الله. وقد نصّ أهل العلم على أنَّه لا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد، والخائف إلا المكره، وجميع هذه النواقض هي من أعظم ما يكون خطرًا، وأكثر ما يكون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، ونسأله سبحانه أن يُوفِّقنا جميعا لما يرضيه، وأن يهدينا وجميع المسلمين صراطه المستقيم، إنَّه سميعٌ مجيبٌ قريبٌ.

۞۞۞

٣٦ / بيان فساد الذّكر بالاسم المفرد مظهَراً أو مضمَراً

كان الحديث فيما مضى في بيانِ فضل كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وأنَّها خيرُ ما ذَكَر به الذاكرون ربَّهم، وأفضلُ ما لهجت به ألسنتهم، وهي كلمةٌ يسيرٌ لفظها، عظيمٌ معناها، وحاجةُ العباد إليها هي أعظم الحاجات، وضرورتُهم إليها هي أعظم الضرورات، بل إنَّ حاجتهم وضرورتهم إليها أعظمُ من حاجتهم وضرورتِهم إلى طعامهم وشرابهم ولباسهم وسائر شؤونهم، ولما كان بالناس ـ بل بالعالـم كله ـ من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية له ولا حَدَّ كانت من أكثر الأذكار وجودًا وأيسرها حصولاً وأعظمها معنى وأجلِّها مكانة، ومع هذا كلِّه إلا أنَّ بعض العوام والجُهال يعدلون عنها وينصرفون إلى دعواتٍ مبتدعةٍ وأذكارٍ مخترعةٍ ليست في الكتاب ولا في السنة، وليست مأثورةً عن أحد من سلف الأُمة[١].

ومن ذلك ما يفعله بعض الطرقيَّة من أهل التصوّف في أذكارهم، حيث يذكرون الاسم المفرد مظهرًا فقط، فيقولون: (الله، الله)، يكرِّرون لفظ الجلالة، وربما أتى بعضهم بدل ذلك بالاسم المضمر (هو) مكرّرًا، وقد يغلو بعضهم في ذلك فيجعل ذكر كلمة التوحيد لا إله إلا الله للعامة، وذِكر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الاسم المضمر لخاصة الخاصة، وربما قال بعضُهم: لا إله إلا الله للمؤمنين، والله للعارفين، وهو للمحققين، فيفضِّلون بذلك ذكرَ الاسم المفرد مظهرًا، أو ذكره مضمرًا على كلمة التوحيد لا إله إلا الله التي وصفها رسول الله ﷺ بأنَّها أفضلُ الذّكر، وأنَّها أفضلُ ما قاله عليه الصلاة

(١) انظر: فتح المجيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ص:٤٥).

والسلام هو والنبيّون من قبله، وقد سبق أن مرَّ معنا بعضُ الأحاديث الدالة على ذلك، هذا مع أنَّ ذِكر الاسم المفرد مظهرًا أو ذِكره مضمرًا ليس بمشروع في الكتاب ولا في السنة، ولا هو مأثورٌ عن أحدٍ من سلف الأمة، وإنَّما لَهَج به قوم من ضلاّل المتأخرين بلا حجة ولا برهان.

وقد فنَّد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله دعاوى هؤلاء في ذكرهم المحدث هذا، وبَيَّن فساد ما قد يتشبّثون به لنصرته وتقريره، قال رحمه الله: « وربما ذكر بعض المصنفين في الطريق تعظيم ذلك واستدل عليه تارةً بوَجدٍ، وتارةً برأيٍ، وتارةً بنقلٍ مكذوبٍ، كما يروي بعضُهم أنَّ النبي ﷺ لقّن عليَّ بن أبي طالب أن يقول: « الله، الله، الله، فقالها النبي ﷺ ثلاثاً ثم أمر عليّاً فقالها ثلاثاً »، وهذا حديثٌ موضوعٌ باتفاق أهل العلم بالحديث، وإنَّما كان تلقين النبي ﷺ للذّكر المأثور عنه، ورأس الذكر لا إله إلا الله، وهي الكلمة التي عرضها على عمِّه أبي طالب حين الموت، وقال: « يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله »، وقال: « إنِّي لأعلمُ كلمةً لا يقولها عبدٌ عند الموت إلا وجد روحُه لها رَوْحاً »، وقال: « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »، وقال: « أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله »، والأحاديثُ كثيرةٌ في هذا المعنى.

ثم قال: فأما ذكر الاسم المفرد فلم يُشرع بحال، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل على استحبابه، وأمَّا ما يتوهّمه طائفةٌ من غالطي المتعبدين

في قوله تعالى: {قُلِ اللهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ}[1]، ويتوهّمون أنَّ المراد قولُ هذا الاسم، فخطأ واضحٌ، ولو تدبّروا ما قبل هذا تبيّن مرادُ الآية، فإنَّه سبحانه قال: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَآؤُكُمْ قُلِ اللهُ}[2]، أي قُلْ الله أنزلَ الكتاب الذي جاء به موسى، فهذا كلامٌ تامٌّ، وجملةٌ اسميّةٌ مركّبةٌ من مبتدأ وخبر، حُذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب، وهذا قياس مطَّرَد في مثل هذا في كلام العرب ...

وذكر أمثلة على ذلك، إلى أن قال رحمه الله: وقد ظهر بالأدلة الشرعية أنَّه غير مستحب ـ أي الذكرُ بالاسم المفرد من غير كـلام تام ـ وكذلك بالأدلية العقلية الذوقية، فإنَّ الاسم وحده لا يُعطي إيماناً ولا كفراً، ولا هدى ولا ضلالاً، ولا علماً ولا جهلاً ...

إلى أن قال: ولهذا اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أنَّ الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه، ولا هو جملةٌ تامة ولا كلاماً مفيداً، ولهذا سمع بعضُ العرب مؤذّناً يقول: أشهد أنَّ محمداً رسولَ الله، قال: فعل ماذا؟ فإنَّه لما نصب الاسمَ صار صفةً ، والصفةُ من تمام الموصوف، فطَلَبَ بصحة طَبْعِه الخبرَ المفيد، ولكن المؤذّن قصد الخبر ولَحَن، ولو كرّرَ الإنسان اسم الله ألف ألف مرّة لم يَصِر بذلك مؤمناً، ولم يستحقّ ثوابَ الله ولا جنّتَه، فإنَّ الكفار من جميع الأديان يذكرون الاسم مفردا، سواءً أقرّوا به وبوحدانيتِه أم لا، حتى إنَّه لما أمرنا بذِكر اسمه كقوله: {فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ

(١) سورة الأنعام، الآية: (٩١).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (٩١).

عَلَيْهِ}[١]، وقوله: {وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ}[٢]، وقوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى}[٣]، وقوله: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ}[٤]، ونحو ذلك كان ذكرُ اسمه بكلام تام مثل أن يقول: باسم الله، أو يقول: سبحان ربي الأعلى، وسبحان ربي العظيم، ونحو ذلك، ولم يُشرع ذكرُ الاسم المجرّد قط، ولا يحصل بذلك امتثالُ أمرٍ، ولا حِلُّ صيدٍ ولا ذبيحةٍ ولا غير ذلك.

إلى أن قال رحمه الله: فثبت بما ذكرناه أنَّ ذكر الاسم المجرّد ليس مستحباً، فضلاً عن أن يكون هو ذِكر الخاصة، وأبعدُ من ذلك ذكر الاسم المضمر، وهو: هو، فإنَّ هذا بنفسه لا يدل على معيّن، وإنَّما هو بحَسَب ما يُفسِّره من مذكورٍ أو معلومٍ فيبقى معناه بحَسَب قصد المتكلّم ونيّته »[٥].

وقال في موضع آخر: « والذِّكرُ بالاسم المضمر المفرد أبعدُ من السنة وأدخلُ في البدعة وأقربُ إلى إضلال الشيطان ...

إلى أن قال: والمقصود هنا أنَّ المشروع في ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامّة، وهو المسمّى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر، والقربُ إلى الله ومعرفتُه ومحبّتُه وخشيتُه، وغيرُ ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية، وأما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرًا أو مضمرًا فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٢١).

(٣) سورة الأعلى، الآية: (١).

(٤) سورة الواقعة، الآية: (٧٤).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٥٦ ـ ٥٦٥).

ذكر الخاصّة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات، وذريعة إلى تصوُّرات فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد ....، وجماع الدين أصلان: أن لا نعبد إلاّ الله ولا نعبده إلاّ بما شرع لا نعبده بالبدع »[١].

اهـ كلامه رحمه الله، وفيه من التحقيق والبيان ما لا يدَعُ مجالاً للتّردد في الأمر، والحقُّ أبلج.

إنَّ تكالب هؤلاء على هذه الأذكار المحدثة، التي لا أصل لها في دين الله، ولا أساس لها من شرعه، وتركهم في مقابل ذلك السُّنن الصحيحة، والأذكار الشرعيّة، ليثير في المسلم تساؤلات وتساؤلات، ما الذي حمل هؤلاء على الانصراف عن هدي النبيّ ﷺ والرغبة عن سنّته، إلى أمورٍ ما أنزل الله بها من سلطان، وأذكارٍ ليس عليها في الشرع أيُّ دليل ولا برهان، ثمّ مع هذا يعظِّمونها غاية التعظيم ويفخِّمون شأنها، ويقلّلون من شأن الأدعية النبويّة والأذكار الشرعيّة التي كان يقولها سيِّد الخلق أجمعين، وخير الأنبياء والمرسلين، وإمام وقدوة المخبتين الذّاكرين، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

٣٧/ فضل التسبيح

لقد كان الحديث فيما سبق عن كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فضلِها ومعناها وشروطها، وأمورٍ أخرى هامّة متعلّقة بها، وفيما يلي ننتقل إلى الحديث عن كلمة: (سبحان الله)، فهي إحدى الكلمات الأربع التي وصفها رسول الله ﷺ بأنّها خيرُ الكلام وأحبُّه إلى الله، وذلك في قوله ﷺ: « أحبّ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٢٧ ـ ١٣٤).

الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، و لا إله إلا الله، والله أكبر »(١)، وقد مرّ معنا جملة طيّبة من أحاديث النبيّ ﷺ في تفضيل هؤلاء الكلمات، وبيان ما لهنّ من منزلةٍ عاليةٍ ومكانةٍ رفيعةٍ.

وكلمة: سبحان الله، التي هي إحدى هؤلاء لها شأن عظيم، فهي من أجلِّ الأذكار المقربة إلى الله، ومن أفضل العبادات الموصلة إليه، وقد جاء في بيان فضلها وشرفها وعِظم قدرها نصوصٌ كثيرة في الكتاب والسنة، بل إنَّ ما ورد في ذلك لا يُمكن حصرُه لكثرته وتعدّده، وقد ورد ذكر التسبيح في القرآن الكريم أكثر من ثمانين مرة، بصِيغ مختلفة وأساليب متنوِّعة، فورد تارة بلفظ الأمر كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}(٢)، وتارة بلفظ الماضي كما في قوله تعالى: {سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}(٣)، وتارة بلفظ المضارع كما في قوله تعالى: {يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ}(٤)، وتارة بلفظ المصدر كما في قوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلاَمٌ عَلَى المُرْسَلِينَ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ}(٥).

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى التسبيح في مُفتتح ثمان سُوَر من القرآن الكريم، فقال تعالى في أول سورة الإسراء: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}(٦)، وقال تعالى

(١) صحيح مسلم (رقم:٢١٣٧).
(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٤١ ـ ٤٢).
(٣) سورة الحشر، الآية: (١).
(٤) سورة الجمعة، الآية: (١).
(٥) سورة الصافات، الآية: (١٨٠ ـ ١٨٢).
(٦) سورة الإسراء، الآية: (١).

في أول سورة النحل: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[١]، وقال تعالى في أوّل سورة الحديد: {سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[٢]، وقال تعالى في أوّل سورة الحشر: {سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[٣]، وقال تعالى في أول سورة الصف: {سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}[٤]، وقال تعالى في أول سورة الجمعة: {يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ}[٥]، وقال تعالى في أول سورة التغابن: {يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٦]، وقال تعالى في أول سورة الأعلى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ المَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى}[٧].

قال بعض أهل العلم[٨]: والتسبيح ورد في القرآن على نحو من ثلاثين وجهاً، ستةٍ منها للملائكة، وتسعةٍ لنبيّنا محمد ﷺ، وأربعةٍ لغيره من الأنبياء، وثلاثةٍ للحيوانات والجمادات، وثلاثةٍ للمؤمنين خاصة، وستةٍ لجميع الموجودات.

---

(١) سورة النحل، الآية: (١ ـ ٢).
(٢) سورة الحديد، الآية: (١).
(٣) سورة الحشر، الآية: (١).
(٤) سورة الصف، الآية: (١).
(٥) سورة الجمعة، الآية: (١).
(٦) سورة التغابن، الآية: (١).
(٧) سورة الأعلى، الآية: (١ ـ ٥).
(٨) انظر: بصائر ذوي التمييز للفبروزابادي (٢/ ٢٨٥ وما بعدها).

أما التي للملائكة فمنها قوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}، الآية[١]، وقوله: {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ}[٢]، وقوله: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ}[٣]، وقوله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}[٤].

وأما التي لنبيّنا ﷺ فمنها قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[٥]، وقوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً}[٦]، وقوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}[٧].

وأما التي للأنبياء فقول الله تعالى لزكريا عليه السلام: {وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ}[٨]، وقوله تعالى عن زكريا عليه السلام في وصيّته لقومه بالمحافظة على التسبيح: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}[٩]، وقوله
تعالى عن يونس عليه السلام في إنجائه من ظلمات البحر وبطن الحوت

---

(١) سورة غافر، الآية: (٧).

(٢) سورة فصّلت، الآية: (٣٨).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: (١٩ ـ ٢٠).

(٤) سورة الصافات، الآية: (١٦٥ ـ ١٦٦).

(٥) سورة الحجر، الآية: (٩٨ ـ ٩٩).

(٦) سورة الإنسان، الآية: (٢٦).

(٧) سورة النصر، الآية: (٣).

(٨) سورة آل عمران، الآية: (٤١).

(٩) سورة مريم، الآية: (١١).

لملازمته للتسبيح: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}(١).

وأما التي للمؤمنين فقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}(٢)، وقوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ}(٣)، وقوله تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ}(٤)، الآية.

وأما التي في الحيوانات والجمادات فمنها قوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}(٥)، وقوله تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}(٦)، وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}(٧).

وأما التي لعموم المخلوقات فمنها قوله تعالى: {سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}(٨)، وقوله تعالى: {يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٩).

---

(١) سورة الصافات، الآية: (١٤٣،١٤٤).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٤١،٤٢).

(٣) سورة السجدة، الآية: (١٥).

(٤) سورة النور، الآية: (٣٦،٣٧).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (٤٤).

(٦) سورة ص، الآية: (١٨،١٩).

(٧) سورة النور، الآية: (٤١).

(٨) سورة الحشر، الآية: (١).

(٩) سورة التغابن، الآية: (١).

وقد ذكر الله تعالى لفظة {سُبْحَانَ} في القرآن في خمسة وعشرين موضعاً، في ضمن كلِّ واحد منها إثباتُ صفة من صفات المدح، أو نفيُ صفة من صفات الذم[١]، ومنها قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}[٢]، وقوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ}[٣]، وقوله تعالى: {سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٤]، وقوله تعالى: {فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِياً وَحِينَ تُظْهِرُونَ}[٥]، وقوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[٦]، وقوله تعالى: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ}[٧].

إنَّ هذه النصوص القرآنية الكريمة وما جاء في معناها في كتاب الله لتدل أوضح دلالة على جلالة قدر التسبيح، وعظيم شأنه من الدين، وأنَّه من أجَلِّ الأذكار المشروعة، ومن أنفع العبادات المقربة إلى الله ﷻ، فسبحان من أفاض على عباده النعمة، وكتب على نفسه الرّحمة، سبحانه وبحمده عددَ خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

وسوف نواصل إن شاء الله بيان فضل التسبيح ومكانته من خلال ما ورد في ذلك من حديث رسول الله ﷺ الذي ترك أمته على المحجة البيضاء

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي (٣/ ١٧٦).
(٢) سورة البقرة، الآية: (١١٦).
(٣) سورة الصافات، الآية: (١٨٠ ـ ١٨٢).
(٤) سورة الطور، الآية: (٤٣).
(٥) سورة الروم، الآية: (١٧،١٨).
(٦) سورة الزخرف، الآية: (٨٢).
(٧) سورة يونس، الآية: (١٠).

والطريقة الواضحة الغراء، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه أعلم الناس بالله، وأتقاهم له، وأكثرهم تسبيحاً وتقديساً وتنزيهاً لربِّه، فصلّى الله وملائكتُه وأنبياؤُه ورسلُه والصالحون من عباده عليه، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

٣٨/ من فضائل التسبيح في السُّنَّة

تناولت فيما سبق بيان فضل التسبيح وعظيم أجره، وأنّه مِن أفضلِ الأذكار المأثورة، ومِن أنفع العبادات المشروعة، ومِن أجلِّ الطاعات التي يحبُّها اللهُ من عباده، وقد أوردتُ جملةً طيِّبةً من النصوص القرآنيَّة الكريمة الدّالة على ذلك.

ولعلّ من المناسب هنا أن نقف على بعض النصوص النبويّة الواردة في فضل التسبيح والدّالة على عظيم شأنه ورفيع مكانته. إذ السنّة مليئةٌ بالنصوص الدّالة على عظيم شأن التسبيح، وشريف قدره، وجزيل ثواب أهله، وبيان ما أعدّ الله لهم من أجورٍ كريمةٍ، وأفضالٍ عظيمةٍ، وعطايا جمَّةٍ. وقد تضمّنت تلك النصوص الدلالةَ على ذلك من وجوهٍ كثيرةٍ:

ومن ذلك أنَّ النبيّ ﷺ أخبر أنَّ التسبيح أفضل الكلام وأحبُّه إلى الله، وقد سبق أنْ مرَّ معنا قولُ النبيِّ ﷺ: « أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر »[١].

وثبت في صحيح مسلم من حديث أبي ذرٍّ أنَّ رسول الله ﷺ سُئِل: أيُّ الكلام أفضل؟ قال: « ما اصطفى الله لملائكته أو لِعباده: سبحان الله وبحمده »[٢].

وفي لفظ آخر للحديث أنَّ أبا ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: « ألا أُخبرُك بأحبِّ الكلام إلى الله؟ قلتُ: يا رسول الله أخبرني

(١) صحيح مسلم (رقم:٢١٣٧).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣١).

بأحبِّ الكلام إلى الله. قال: إنَّ أحبَّ الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده »[١]. فدلّ هذا الحديث على عظيم مكانة هذه الكلمة عند الله ﷻ.

ومِن فضائل التسبيح ما أخبر به النبيُّ ﷺ أنَّ مَن قال: سبحان الله وبحمده في يومٍ مائة مرّة حُطَّت عنه ذنوبُه ولو كثُرت. ففي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « مَن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرّة حُطَّت خطاياه وإن كانت مِثلَ زَبَدِ البحر »[٢].

وثبت عنه ﷺ أنَّ من قالها في الصّباح مائة مرّة وفي المساء مائة مرّة، لم يأتِ أحدٌ يومَ القيامة بأفضلَ مما جاء به، إلاّ مَن قال مثل ذلك وزاد عليه. فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن قال حين يُصبحُ وحين يُمسي: سبحان الله وبحمده مائة مرّة لم يأتِ أحدٌ يومَ القيامة بأفضلَ مما جاء به، إلاّ أَحدٌ قال مثل ما قال أو زاد عليه »[٣].

وثبت عنه ﷺ أنَّ من قالها في يومٍ مائة مرّة كُتبت له ألفُ حسنةٍ أو حُطَّت عنه ألفُ خطيئةٍ، والحسنةُ بِعشر أمثالها. روى مسلم
في صحيحه عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فقال: « أيعجزُ أحدُكم أن يكسب كلَّ يومٍ ألفَ حسنةٍ؟ فسأله سائلٌ من جلسائِه: كيف يكسب أحدُنا ألفَ حسنة؟ قال: يسبِّح مائة تسبيحة فيُكتبُ له

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣١).
(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٥)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩١).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٦٩٢).

ألفُ حسنةٍ أو يُحطُّ عنه ألفُ خطيئةٍ »[١].

ومما ورد في فضل التسبيح إخبار النبيِّ ﷺ عن ثِقل التسبيح في الميزان يوم القيامة مع خفّة ويسر العمل به في الدنيا. ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « كلمتان حبيبتان إلى الرّحمن، خفيفتان على اللّسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم »[٢].

وقوله ﷺ في الحديث: « كلمتان » هي خبرٌ مقَدَّمٌ مُبتَدَؤُه « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم »، قال بعض أهل العلم: « والنكتة في تقديم الخبر تشويقُ السّامع إلى المبتدأ، وكلَّما طال الكلام في وصف الخبر حسُن تقديمه؛ لأنَّ كثرةَ الأوصاف الجميلة تزيد السّامع شوقاً »[٣]. وقد وُصفت الكلمتان في الحديث بثلاثة أوصاف جميلةٍ عظيمةٍ، وهي أنَّهما حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان.

وقد خُصَّ لفظ الرحمن بالذّكر هنا؛ لأنَّ المقصود من الحديث بيانُ سِعة رحمة الله تعالى على عباده حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الجزيل، والأجر العظيم، فما أيسرَ النطق بهاتين الكلمتين على اللسان، وما أعظم أجر ذلك وثوابه عند الكريم الرحمن، وقد وُصفت الكلمتان في الحديث بالخفّة والثقل، الخفّةِ على اللسان والثقلِ في الميزان، لبيان قلّة العمل وكثرة الثواب. فما أوسعَ فضلَ الله، وما أعظمَ عطاءَه.

ومن فضائل هذه الكلمة العظيمة، ما رواه الترمذي، وابن حبّان،

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٦٩٨).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٦)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩٤).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٥٤٠).

والحاكم، وغيرهم، من طريق أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: « مَن قال: سبحان الله العظيم وبحمده غُرست له نخلةٌ في الجنَّةِ »[١]، وله شاهدان:

أحدهما: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ موقوفاً، خرّجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه[٢].

والآخر: من حديث معاذ بن سهل مرفوعاً، خرّجه الإمام أحمد في مسنده[٣].

ومن فضائل هذه الكلمة ما رواه الطبراني، والحاكم، من حديث نافع بن جُبير بن مطعم، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن قال سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها في مجلس ذكرٍ كانت كالطّابع يطبع عليه، ومَن قالها في مجلس لغوٍ كانت كفّارة له ».

قال الحاكم: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبي، وصحّحه العلاّمة الألبانيُّ[٤].

([١]) سنن الترمذي (رقم:٣٤٦٤)، وصحيح ابن حبان (رقم:٨٢٧،٨٢٦)، ومستدرك الحاكم (١/ ٥٠١)، وصححه العلاّمة الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:٦٤).

([٢]) المصنف (٦/ ٥٦).

([٣]) المسند (٣/ ٤٤٠).

([٤]) المعجم الكبير (رقم:١٥٨٦)، والمستدرك (١/ ٥٣٧)، والسلسلة الصحيحة (رقم:٨١).

وروى الترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: « مَن جلس في مجلس فكثُر فيه لغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهمّ ربّنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلاّ غُفر له ما كان في مجلسه ذلك »(١).

فهذه جملةٌ من الأحاديث الواردة في التسبيح والدّالة على عظيم فضله وثوابه عند الله، وفي أكثر هذه الأحاديث قُرن مع التسبيح حمدُ الله تعالى؛ وذلك لأنَّ التسبيح هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب، والتحميدُ فيه إثباتُ المحامد كلّها لله ﷻ، والإثبات أكملُ مِنَ السّلب، ولهذا لم يَرِد التسبيحُ مجرّداً، لكن ورد مقروناً بما يدلّ على إثبات الكمال، فتارةً يُقرنُ بالحمد كما في هذه النصوص، وتارةً يُقرنُ باسم من الأسماء الدّالة على العظمة والجلال، كقول: سبحان الله العظيم، وقول: سبحان ربّي الأعلى، ونحو ذلك(٢).

والتنزيه لا يكون مدحاً إلاّ إذا تضمّن معنىً ثبوتيًّا، ولهذا عندما نزَّه الله تبارك وتعالى نفسه عمّا لا يليق به ممّا وصفه به أعداء الرُّسل سلَّم على المرسلين الذين يثبتون لله صفات كماله ونعوت جلاله على الوجه اللاّئق به، وذلك في قوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(٣)، وفي هذه الآية أيضاً حمد الله نفسه بعد أن نزّهها؛ وذلك لأنَّ الحمدَ

---

(١) سنن الترمذي (رقم:٣٤٣٣)، وصحيح ابن حبان (رقم:٥٩٤)، والمستدرك (١/٥٣٦)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٦١٩٢).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص:٢٠٤).

(٣) سورة الصافات، الآيات (١٨٠ ـ ١٨٢).

فيه إثباتُ كمال الصفات، والتسبيحَ فيه تنزيه الله عن النّقائص والعيوب، فجمع في الآية بين التنزيه عن العيوب بالتسبيح وإثبات الكمال بالحمد، وهذا المعنى يرِد في القرآن والسنّة كثيراً، فالتسبيحُ والحمدُ أصلان عظيمان وأساسان متينان يقوم عليهما المنهجُ الحقُّ في توحيد الأسماء والصفات، وبالله وحده التوفيق.

✡✡✡

٣٩/ تسبيحُ جميع الكائنات لله

إنَّ الله تعالى لكمال عظمته، ولتمام ملكه وعزَّته، تسبِّحُ له جميعُ الكائنات، من سماء، وأرض، وجبال، وأشجار، وشمس، وقمر، وحيوان، وطير، وإنْ مِن شيءٍ إلاّ يُسبِّح بحمده.

يقول الله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}(١)، ويقول تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ}(٢)، ويقول تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}(٣)، وقال تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ}(٤)، فهذه النصوص العظيمة تدلُّ دلالة ظاهرة أنَّ جميعَ الكائنات تسبِّح اللهَ ﷻ، فالحيوانات تسبِّح لله، والنباتات تسبِّح لله، والجمادات تسبِّح لله، وإنْ مِن شيءٍ خلقه الله إلاّ يسبِّح بحمد الله ﷻ، وإنْ كُنَّا لا نفقه تسبيحه، وهو تسبيحٌ حقيقيٌّ يصدر من هذه الكائنات بلسان المقال، وليس بلسان الحال كما يدّعيه بعضهم، واللهُ جلّ وعلا يجعل لهذه الكائنات إدراكات تسبِّح بها يعلمها هو جلّ وعلا ونحن لا نعلمها، كما قال سبحانه: {وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}(٥).

قال الإمام أبو منصور الأزهريُّ رحمه الله في كتابه تهذيبُ اللغة: « وممّا يدلُّك على أنَّ تسبيح هذه المخلوقات تسبيحٌ تُعُبِّدت به، قول الله جلّ وعزّ

(١) سورة الإسراء، الآية: (٤٤).
(٢) سورة سبأ، الآية (١٠).
(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٧٩).
(٤) سورة ص، الآية: (١٨).
(٥) سورة الإسراء، الآية: (٤٤).

للجبال: {يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْر}[١]، ومعنى أوِّبي أي سبِّحي مع داود النّهار كلّه إلى الليل، ولا يجوز أن يكون معنى أمر الله جلّ وعزّ للجبال بالتأويب إلاّ تعبُّداً لها، وكذلك قوله جلّ وعزّ: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ والجِبَالُ والشَّجَرُ والدَّوَابُّ وكَثِيرٌ مِنَ النَّاس}[٢]، فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لا نفقهها عنها كما لا نفقه تسبيحها، وكذلك قوله: {وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ}[٣]، وقد علم الله هبوطها من خشيته، ولم يعرّفنا ذلك، فنحن نؤمن بما أعلمنا ولا ندّعي بما لم نكلّف بأفهامنا، مِن عِلْمِ فِعلِها كيفيّةً نحدّها »[٤] اهـ.كلامه رحمه الله، وهو كلام عظيم وتقرير حسن.

وقال النووي رحمه الله بعد أن أشار إلى ما قيل في المراد بالتسبيح، قال: « والصحيح أنَّه يسبِّح حقيقة، ويجعل الله تعالى فيه تمييزاً بحسبه »[٥].

وهذا القول هو القول الحق في هذه المسألة بلا ريب، فالله تبارك وتعالى هو الذي بيده أزمّةُ الأمور، وهو القادرُ على كلِّ شيء، وهو سبحانه الذي أنطق كلَّ شيء، لا يتعاظمه أمر، ولا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء، إنَّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

---

(١) سورة سبأ، الآية: (١٠).

(٢) سورة الحج، الآية: (١٨).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٧٤).

(٤) تهذيب اللغة (٤/ ٣٤٠).

(٥) شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢٦).

وأمّا قولُ من قال: إنَّ هذا التسبيح ليس حقيقياً وإنّما هو تسبيح بلسان الحال فقط فهو قول مجانبٌ للحقيقةِ، بعيدٌ عن الصواب، ولا يعضُدُه دليل، بل الأدلّةُ صريحةٌ في عدم صحّتِه.

وليس هذا الأمر بأعجب من تسبيح الحصا في يد رسول الله ﷺ، وتسبيحُ الطعام وهو يُؤكل، وقد كان يسمع ذلك الصحابةُ رضي الله عنهم.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « كنّا نعدُّ الآيات بركة وأنتم تعدّونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ فقلَّ الماءُ، فقال: اطلبوا فضلةً من ماء، فجاؤوا بإناء فيه ماءٌ قليل، فأدخل يدَه في الإناء ثم قال: حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل »[1].

فللّه ما أعظمها من آيةٍ تدلّ على كمال المرسِل سبحانه، وصدق المرسَل صلواتُ الله وسلامُه عليه.

وروى الطبراني في المعجم الأوسط، وأبو نعيم في دلائل النبوة عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إنّي لشاهدٌ عند النبي ﷺ في حلقة وفي يده حصى فسبَّحن في يده، وفينا أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ، فسمع تسبيحهنّ مَن في الحلقة، ثمّ دفعهنَّ النّبيُّ ﷺ إلى أبي بكر فسبّحن مع أبي بكر، سمع تسبيحَهنَّ مَن في الحلقة، ثمّ دفعَهنَّ إلى النّبيِّ ﷺ فسبَّحن في يده، ثمّ دفعهنَّ النّبيُّ ﷺ إلى عمر فسبَّحن في يده، وسمع تسبيحَهنَّ مَن في الحلقة، ثم دفعهنَّ النبيّ ﷺ إلى

(١) صحيح البخاري (رقم:٣٥٧٩).

عثمان بن عفّان فسبَّحن في يده، ثمّ دفعهنّ إلينا فلم يسبِّحن مع أحد منّا »[1].

ولا شكّ أنَّ تسبيح الحصى الصغار والطعام أعجبُ وأبلغُ من تسبيح الجبال، ولذا فإنَّ المعجزة لنبيِّنا محمد ﷺ في ذلك أبلغُ من المعجزة لنبيِّ الله داود عليه السلام في تسبيح الجبال معه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: « وأمّا تسبيح الطّير مع داود عليه السلام فتسبيح الجبال الصمّ أعجبُ مِن ذلك، وقد تقدّم في الحديث أنّ الحصا سبّح في كفِّ رسول الله ﷺ، قال ابن حامد: وهذا حديثٌ معروفٌ مشهورٌ، وكانت الحجارُ والأشجارُ والمدرُ تسلِّم عليه ﷺ.

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود قال: « لقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل » يعني بيد النبيِّ ﷺ، وكلّمه ذراعُ الشّاة المسمومة وأعلمه بما فيه من السُّمِّ، وشهدت بنبُوَّته الحيواناتُ الإنسيّة والوحشيّة، والجمادات أيضاً كما تقدّم بسط ذلك كلِّه، ولا شكّ أنَّ صدور التسبيح من الحصا الصغار الصمّ التي لا تجاويف فيها أعجبُ مِن صدور ذلك من الجبال لما فيها من التجاويف والكهوف، فإنّها وما شاكلها تردّد صدى الأصوات العالية غالباً كما قال عبد الله بن الزبير كان إذا خطب وهو أمير المدينة بالحرم الشريف تجاوبه الجبال أبو قبيس وزَرُود، ولكن من غير تسبيح، فإنَّ ذلك من معجزات داود عليه السلام، ومع هذا كان تسبيح الحصا في كفِّ رسول الله ﷺ وأبي

---

(1) المعجم الأوسط (رقم:١٢٤٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٥٥)، وانظر: دلائل النبوة لأبي القاسم التيمي (١/ ٤٠٤ وما بعدها) ـ بتحقيق: الشيخ مساعد الراشد ـ قوله: ((فصل في تسبيح الحصى في يده ﷺ)).

بكر وعمر وعثمان أعجب »[١] اهـ. كلامه رحمه الله.

والشّاهد مِن ذلك كلِّه هو أنَّ هذه الكائنات تسبِّح الله تعالى تسبيحاً حقيقاً لا يفقهه النّاس ولا يسمعونه، وقد يشاء الله فيُسمِع بعض ذلك من يشاء مِن عباده كما في النصوص المتقدّمة.

ولا ريب أنَّ في هذا أَعظمَ عبرةٍ وأجلَّ عِظَةٍ للنّاس إذ تدبّروا في حال هذه الجبال وهي الحجارة الصلبة والصخور الصمّاء كيف أنَّها تسبِّح بحمد ربِّها وتخشع له وتسجد وتشفق وتهبط من خشيته، وكيف أنّها خافت من ربِّها وفاطرها وخالقها على شدّتها وعِظم خلقها من الأمانة إذ عرَضَها عليها وأشفقت من حملها.

قال ابن القيِّم رحمه الله وهو يتحدّثُ عن هذا الباب العظيم:

« فسبحان من اختصَّ برحمته من شاء مِن الجبال والرِّجال ... هذا وإنَّها لَتعلمُ أنَّ لها موعداً ويوماً تنسف فيها نسفاً، وتصير كالعهن من هوله وعظمه، فهي مشفقةٌ من هول ذلك الموعد، منتظرةٌ له ... فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقّتُها وخشيتُها وتدكدكها من جلال ربِّها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرُها وباريها أنَّه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدّعت من خشية الله. فيا عجباً من مضغة لحمٍ أقسى مِن هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويُذكرُ الرّبُّ فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب ... »[٢].

فنسأل الله جلّت قدرته وتبارك اسمه أن يحييَ قلوبَنا بالإيمان، وأن

(١) البداية والنهاية (٦/ ٢٨٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٨٩).

يعمُرَها بذكر الكريم الرحمن، وأن يعيذنا من الرّجيم الشيطان، إنَّه وليٌّ ذلك والقادر عليه.

۞۞۞

٤٠ / معنى التسبيح

لا ريب أنَّ التسبيح يُعدُّ من الأصول المهمّة والأُسُس المتينة التي ينبني عليها المُعتَقَد فيما يتعلّق بمعرفة الربّ تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته، إذ إنَّ المُعتَقَدَ في الأسماء والصفات يقوم على أصلين عظيمين وأساسين متينين هما الإثبات للصفات بلا تمثيل، وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات بلا تعطيل.

والتسبيح هو التنزيه، فأصل هذه الكلمة من السَّبح وهو البُعد، قال الأزهري في تهذيب اللغة: « ومعنى تنزيه الله من السوء تبعيده منه، وكذلك تسبيحه تبعيده، من قولك: سبحتُ في الأرض إذا أبعدتَ فيها، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(١)، وكذلك قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾(٢) »(٣).

فالتسبيح هو إبعادُ صفات النقص من أن تُضافَ إلى الله، وتنزيهُ الربِّ سبحانه عن السوء وعمَّا لا يليقُ به، « وأصلُ التسبيح لله عند العرب التنزيه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبرئة له من ذلك »(٤).

وقد ورد هذا المعنى في تفسير التسبيح في حديث يُرفع إلى النبيِّ ﷺ إلاَّ أنَّ في إسناده كلاماً، فقد روى الحاكمُ في المستدرك عن عبد الرحمن بن حمّاد، ثنا حفص بن سليمان، ثنا طلحة بن يحيى بن طلحة، عن

(١) سورة: يس، الآية: (٤٠).
(٢) سورة: النازعات، الآية: (٣).
(٣) تهذيب اللغة (٤/ ٣٣٨).
(٤) جامع البيان لابن جرير (١/ ٢١١).

أبيه، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: « هو تنزيه الله عن كلِّ سوءٍ ». قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقّبه الذهبي
في تلخيصه للمستدرك بقوله: « بل لم يصح فإن طلحة منكر الحديث، قاله البخاري، وحفصٌ واهي الحديث، وعبد الرحمن قال أبو حاتم: منكر »[١].

ورويَ الحديث من وجه آخر مرسلاً.

وورد في هذا المعنى آثارٌ عديدةٌ عن السلف رحمهم الله، روى جملةً منها الطبريُّ في تفسيره والطبرانيُّ في كتابه الدعاء في باب: تفسير سبحان الله[٢]، وغيرهما من أهل العلم، منها:

ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « سبحان الله: تنزيه الله عزّ وجلّ عن كُلِّ سُوءٍ ».

وعن عبد الله بن بريدة أنَّ رجلاً سأل علياً رضي الله عنه عن سبحان الله فقال: « تعظيم جلال الله ».

وجاء عن مجاهد أنه قال: « التسبيح انكفاف الله من كلِّ سوءٍ ». قال ابن الأثير في النهاية: « أي تنزيهه وتقديسه ».

وعن ميمون بن مهران قال: « سبحان الله اسم يُعظَّمُ الله به، ويحاشى به من السوء ».

وعن أبي عبيدة معمر بن المثنّى قال: « سبحان الله: تنزيه الله وتبرئته ».

وعن محمد بن عائشة قال: « تقول العرب إذا أنكرت الشيء وأعظمته

---

(١) المستدرك (١/ ٥٠٢).

(٢) الدعاء للطبراني (٣/ ١٥٩١ وما بعدها).

سبحان الله، فكأنّه تنزيه الله ﷻ عن كلِّ سوء، لا ينبغي أن يوصف بغير صفته ».

والآثار في هذا المعنى عن السلف كثيرة.

ونقل الأزهري في كتابه تهذيب اللغة عن غير واحد من أئمّة اللغة تفسير التسبيح بالمعنى السابق وقال: « وجِماعُ معناه بُعدُه تبارك وتعالى عن أن يكون له مثلٌ أو شريكٌ أو ضِدٌّ أو نِدٌّ »(١).

وبهذه النقول المتقدِّمة يتبيَّنُ معنى التسبيح والمراد به، وأنَّه تنزيه الله ﷻ عن كلِّ نقص وعيبٍ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « والأمر بتسبيحه يقتضي تنزيهه عن كلِّ عَيبٍ وسُوءٍ، وإثباتَ المحامد التي يُحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده »(٢). اهـ كلامه رحمه الله.

وبه يتبيّن أنَّ تسبيحَ الله إنَّما يكون بتبرئة الله وتنزيهه عن كلِّ سوء وعيبٍ، مع إثبات المحامد وصفات الكمال له سبحانه، على وجهٍ يليقُ به، أمَّا ما يفعله المعطِّلةُ من أهل البدع كالمعتزلة وغيرهم من تعطيل للصفات وعدم إثبات لها وجحدٍ لحقائقها ومعانيها بحجة أنَّهم يسبِّحون الله وينزِّهونه، فهو في الحقيقة ليس من التسبيح في شيء، بل هو إنكارٌ وجحودٌ، وضلالٌ وبهتانٌ، ولذا يقول ابن هشام النحوي في كتابه مغني اللبيب: « ألا ترى أنَّ تسبيحَ المعتزلة اقتضى تعطيل كثير من الصفات »(٣).

---

(١) تهذيب اللّغة (٤/ ٣٣٩).

(٢) دقائق التفسير لابن تيمية (٥/ ٥٩).

(٣) مغني اللبيب (١/ ١٤٠)، مع أنَّه وقع في بعض ذلك، غفر الله له ورحمه.

ويقول ابن رجب رحمه الله في معنى قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}[١] أي: « سبِّحه بما حمد به نفسه؛ إذ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمود، كما أنَّ تسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل كثير من الصفات »[٢].

وقوله رحمه الله: « إذ ليس كلُّ تسبيح بمحمود » كلامٌ في غاية الأهميَّة والدقَّة؛ إذ إنَّ تسبيح الله بإنكار صفاته وجحدها وعدم إثباتها أمرٌ لا يُحمد عليه فاعله، بل يُذمُّ غايةَ الذمِّ، ولا يكون بذلك من المسبِّحين بحمد الله، بل يكون من المعطّلين المنكرين الجاحدين، من الذين نزّه الله نفسه عن قولهم ووصفهم بقوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٣]. فسبّح الله نفسه عمّا وصفه به المخالفون للرسل وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه في الله من النقص والعيب.

إنَّ تسبيحَ الله وتنزيهَه وتقديسَه وتعظيمَه يجب أن يكون وفق الضوابط الشرعيّة، وعلى ضوء الأدلّة النقليّة، ولا يجوز بحال أن يُبنى ذلك على الأهواء المجرّدة، أو الظنون الفاسدة، أو الأقيسة العقليّة الكاسدة كما هو الشأن عند أرباب البدع المعطّلين لصفات الربّ سبحانه، ومن كان يعتمد في باب التعظيم على هواه بغير هدى من الله، فإنّه يزِلُّ في هذا الباب ويقع في أنواع من الباطل وصنوف من الضلال. جاء عن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله وقد ذُكر عنده أنَّ الجهميّة ينفون أحاديث الصفات، ويقولون: الله أعظم

---

(١) سورة: الحِجر، الآية: (٩٨).

(٢) تفسير سورة النصر (ص:٧٣).

(٣) سورة: الصافات، الآيات: (١٨٠ ـ ١٨٢).

من أن يوصف بشيء من هذا أنّه قال: « قد هلك قوم من وجه التعظيم فقالوا: الله أعظم من أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولاً ثم قرأ: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ}[١] ثم قال: هل هلكت المجوس إلاّ من جِهة التعظيم ؟ قالوا: الله أعظم من أنْ نعبُدَه، ولكن نعبدُ من هو أقربُ إليه منّا، فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل الله ﷻ: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}[٢] »[٣].

وفي كلامه هذا رحمه الله إشارة إلى أنّ التعظيم والتنزيهَ إنْ لم يكن على هديِ الكتاب والسنة فإنّه يكون غاية التعطيل، ومنتهى الجحود والعياذ بالله، ومن يتأمّل حالَ الطوائف الضالّة والفرق المنحرفة التي سلكت في التنزيه والتعظيم هذا الطريق يجد أنهم لم يستفيدوا من ذلك سوى التنقّص لربّ العالمين وجحد صفات كماله ونعوت جلاله، حتى آل الأمر ببعضهم في التنزيه إلى الاعتقاد بأنّه ليس فوق العرش إله يُعبد ولا ربٌّ يُصلى له ويُسجدُ تعالى الله عمّا يقولون، وسبحان الله عمّا يصفون.

إنّ التسبيحَ طاعةٌ عظيمةٌ وعبادةٌ جليلةٌ، والله تبارك وتعالى يحبُّ المسبّحين، والواجب على عبد الله المؤمن أن يكون في تسبيحه لربّه على هديٍ مستقيمٍ، فيُسبّح الله وينزّهه عن كلِّ ما لا يليقُ به من النقائص والعيوب ويُثبتُ له مع ذلك نعوتَ جلاله وصفات كماله، ولا يتجاوزُ في ذلك كلِّه كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: « لا

(١) سورة: الأنعام، الآية: (٩١).
(٢) سورة: الزمر، الآية: (٣).
(٣) ذكره التيمي في الحجة في بيان المحجّة (١/ ٤٤٠).

يُوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسولُه ﷺ لا يُتجاوَزُ القرآن والحديث »[١]. ومن كان على ذلك فهو على هدي قويمٍ، وعلى صراطٍ مستقيمٍ.

۞۞۞

(١) ذكره شيخ الإسلام في الحموية، انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦).

٤١ / فضلُ الحمدِ والأدلَّةُ عليه من القرآن الكريم

تناولتُ فيما سبق فضلَ كلمة التوحيد لا إله إلا الله وفضلَ التسبيح، وهما إحدى الكلمات الأربع التي وصفها رسول الله ﷺ بأنّها أحبّ الكلام إلى الله، وتناولتُ فيها جملة من الأمور المهمّة المتعلّقة بهاتين الكلمتين العظيمتين، وأبدأ الحديث هنا عن الحمد (حمد الله تبارك وتعالى)، فإنّ له شأناً عظيماً وفضلاً كبيراً، وثوابُه عند الله عظيمٌ، ومنزلته عنده عالية.

فقد افتتح سبحانه كتابه القرآن الكريم بالحمد فقال: {الحَمْدُ لله رَبّ العَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ}، وافتتح بعض السور فيه بالحمد فقال في أول الأنعام: {الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، وقال في أوّل الكهف: {الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً}، وقال في أول سبأ: {الحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ}، وقال في أول فاطر: {الحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وافتتح خلقَه بالحمد فقال: {الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}[1]، واختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: {وَتَرَى المَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ}[2]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ

(١) سورة: الأنعام، الآية: (١).
(٢) سورة: الزمر، الآية: (٧٥).

العَالَمِينَ}[١].

فالحمد له سبحانه أوَّله وآخره، وله الحمد في الأولى والآخرة أي في جميع ما خلق وما هو خالق، كما قال سبحانه: {وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٢]، وقال سبحانه: {الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[٣]، فهو سبحانه المحمود في ذلك كلِّه كما يقول المصلي: « اللّهمّ ربّنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئتَ من شيء بعد ».

فهذه النصوصُ دالّةٌ على شُمولِ حمده سبحانه لخلقِه وأمرِه، فهو سبحانه حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالَمين، وحمد نفسه على تفرّده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته إليه، كما في قوله تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً}[٤]، وحمد نفسه على علوّه وكبريائه كما قاله سبحانه: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٥]، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي، ونبّه على هذا كلّه في كتابه في آيات

---

(١) سورة: يونس، الآية: (١٠).

(٢) سورة: القصص، الآية: (٧٠).

(٣) سورة: سبأ، الآية: (١).

(٤) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).

(٥) سورة: الجاثية، الآيات: (٣٦،٣٧).

عديدة تدل على تنوّع حمده سبحانه، وتعدّد أسباب حمده، وقد جمعها الله في مواطن من كتابه، وفرّقها في مواطن أخرى ليتعرّف إليه عباده، وليعرفوا كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه، وليتحبّب إليهم بذلك، ويحبّهم إذا عرفوه وأحبّوه وحمدوه[١].

وقد ورد الحمد في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً، جُمع في بعضها أسباب الحمد، وفي بعضها ذُكرت أسبابه مفصّلةً، فمن الآيات التي جُمع فيها أسباب الحمد قوله تعالى: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وقوله: {لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ}[٢]، وقوله: {الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}[٣].

ومن الآيات التي ذُكر فيها أسباب الحمد مفصّلة قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ}[٤]، ففيها حمده على نعمة دخول الجنّة. وقوله تعالى: {فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٥]، ففيها حمده على النصر على الأعداء والسلامة من شرّهم. وقوله تعالى: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٦]، ففيها حمده على نعمة التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده. وقوله تعالى: {الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ

---

(١) انظر: طريق الهجرتين لابن القيّم (ص:٢٢٨).
(٢) سورة: القصص، الآية: (٧٠).
(٣) سورة: سبأ، الآية: (١).
(٤) سورة: الأعراف، الآية: (٤٣).
(٥) سورة: المؤمنون، الآية: (٢٨).
(٦) سورة: غافر، الآية: (٦٥).

الدُّعَاءِ}(١)، ففيها حمده سبحانه على هبة الولد. وقوله تعالى: {الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً}(٢)، ففيها حمده سبحانه على نعمة إنزال القرآن الكريم قيّماً لا عِوج فيه {لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً}(٣). وقوله تعالى: {وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً}(٤) ففيها حمده سبحانه لكماله وجلاله، وتنزّهه عن النقائص والعيوب، والآيات في هذا المعنى كثيرة، فالله تبارك وتعالى هو الحميد المجيد.

و « الحميد » اسم من أسماء الله الحسنى العظيمة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في أكثر من خمسة عشر موضعاً، منها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ}(٥)، وقوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}(٦)، وقوله تعالى: {للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ}(٧)، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ}(٨)، وقوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ

(١) سورة: إبراهيم، الآية: (٣٩).
(٢) سورة: الكهف، الآية: (١).
(٣) سورة: الكهف، الآية: (٢).
(٤) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).
(٥) سورة: فاطر، الآية: (١٥).
(٦) سورة: البقرة، الآية: (٢٦٧).
(٧) سورة: لقمان، الآية: (٢٦).
(٨) سورة: الشورى، الآية: (٢٨).

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيداً} [١]، فهو تبارك وتعالى الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو تبارك وتعالى المستحق لكل حمد ومحبة وثناء لما اتصف به من صفات الحمد التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال، وهو سبحانه حميد من جميع الوجوه: « لأنّ جميع أسمائه تبارك وتعالى حمدٌ، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله حمد، وانتقامه حمد، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد، والخلق والأمر إنما قام بحمده، ووُجد بحمده، وظهر بحمده، وكان الغاية هي حمده، فحمده سبب ذلك وغايته »، « وجميع ما يوصف به ويُذكر به ويُخبر عنه به فهو محامد له وثناءٌ وتسبيح وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقُه، فله الحمد أولاً وآخراً حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما ينبغي لكرم وجهه وعِزّ جلاله ورفيع مجده وعلوّ جدّه » [٢].

وهو سبحانه كما أنَّه محمودٌ على أسمائه وصفاته فهو محمودٌ على فضله وعطائه ونعمائه لما له على عباده « من جزيل مواهبه، وسعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته لهم، وبرّه ولطفه وحنانه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال »، إلى غير ذلك من نعمه وعطائه، وأهمّ ذلك وأعظمه

---

(١) سورة: النساء، الآية: (١٣١).

(٢) انظر: طريق الهجرتين لابن القيّم (ص:٢٣٠،٢٢٠).

« هدايته خاصَّته وعبادَه إلى سبيل دار السلام، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام، وحبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين »[١].

فالحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، كما يحب ربّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعِزّ جلاله، حمداً يملأ السموات والأرض وما بينهما، وما شاء ربنا من شيء بعد، بمجامع حمده كلّها، ما علمنا منها وما لم نعلم، على نعمِه كلّها ما علمنا منها وما لم نعلم، عدد ما حمده الحامدون، وغفل عن ذكره الغافلون، وعدد ما جرى به قلمه، وأحصاه كتابه، وأحاط به علمه.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين لابن القيّم (ص:٢٣١).

٤٢ / الأدلّة من السنة على فضل الحمد

وكما أنّ القرآن الكريم قد دلّ على فضل الحمد وعِظم شأنه بأنواع كثيرة من الأدلة سبق الإشارة إلى طرف منها، فكذلك السنة مليئة بذكر الأدلة على فضل الحمد وعِظم شأنه، وما يترتّب عليه من الفوائد والثمار والفضائل في الدنيا والآخرة، ونبيّنا ﷺ هو صاحب لواء الحمد، وهذه مفخرةٌ عظيمةٌ ومكانةٌ رفيعةٌ حظيَ بها صلوات الله وسلامه عليه، روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواءُ الحمد ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذ آدم فمَن سواه إلاّ تحت لوائي، وأنا أول شافعٍ، وأوّل مشفّعٍ ولا فخر »[1]. فلمّا كان صلوات الله وسلامه عليه أحمدَ الخلائق لله، وأكملَهم قياماً بحمده أُعطي لواءَ الحمد، ليأوي إلى لوائه الحامدون لله من الأولين والآخرين، وإلى هذا أشار ﷺ عندما قال في الحديث:

« وما من نبيٍّ يومئذ آدم فمَن سواه إلاّ تحت لوائي »، وهو لواءٌ حقيقيٌّ يحمله النبيُّ ﷺ يوم القيامة بيده ينضوي تحته وينضمّ إليه جميعُ الحمّادين من الأولين والآخرين، وأقربُ الخلق إلى لوائه أكثرُهم حمداً لله وذِكراً له وقياماً بأمره، وأمّته ﷺ هي خيرُ الأمم، وهم الحمّادون الذين يحمدون الله على السرّاء والضرّاء، وقد رُوي في الحديث أن النبي ﷺ قال: « أوَّلُ من يُدعى إلى الجنّة الحمّادون، الذين يحمدون الله في السرّاء والضرّاء »، رواه الطبراني في المعجم

(1) المسند (٣/ ٢)، وسنن ابن ماجه (رقم:٤٣٠٨)، وسنن الترمذي (٣٦١٥).

الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم في المستدرك، لكن في إسناده ضعف، وقد رواه ابن المبارك في الزهد بسند صحيح موقوفاً على سعيد بن جُبير رحمه الله[١].

وجاء في أثر يُروى عن كعب قال: « نجده مكتوباً محمّدٌ رسول الله ﷺ، لا فظٌّ ولا غليظٌ، ولا صخّابٌ بالأسواق، ولا يجزي بالسيّئة السيّئة، ولكنه يعفو ويغفر، وأمّتُه الحمّادون يكبِّرون الله ﷻ على كلِّ نجدٍ، ويحمدونه في كلِّ منزلة ... »، رواه الدارمي في مقدّمة سننه[٢].

وفي الجَنّة بيتٌ يُقال له بيتُ الحمد، خُصَّ للذين يحمدون الله في السرّاء والضراء ويصبرون على مُرِّ القضاء، روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
« إذا مات ولَدُ العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتُم ولدَ عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدَك واسترجع. فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجَنّة وسمُّوه بيتَ الحمد »[٣]. فهذا حَمِدَ الله على الضرّاء فنال بحمده هذه الرتبة العلية، ولكن كيف يبلغ العبدُ هذه المنزلة، وكيف يصل إلى هذه الدرجة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « والحمد على الضرّاء يوجبه مشهدان:

---

(١) انظر: السلسة الضعيفة للألباني (٢/ ٩٤).
(٢) سنن الدارمي (١/ ١٦).
(٣) سنن الترمذي (رقم:١٠٢١)، وحسّنه العلاّمة الألباني في الصحيحة (رقم:١٤٠٨).

أحدهما: علم العبد بأنّ الله سبحانه مستوجبٌ ذلك، مستحقٌّ له بنفسه، فإنّه أحسنَ كلَّ شيء خلقه، وأتقن كلَّ شيء، وهو العليم الحكيم، الخبير الرحيم.

والثاني: علمُه بأنّ اختيارَ الله لعبدِه المؤمن خيرٌ من اختياره لنفسه، كما روى مسلمٌ في صحيحه وغيرُه عن النبي ﷺ أنّه قال:
« والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلاّ كان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن، إن أصابته سرّاءُ شكرَ فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيراً له »(١)، فأخبر النبي ﷺ أنّ كلَّ قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السرّاء فهو خير له »(٢). اهـ.

فإذا عَلم ذلك العبدُ وتيقّنه أقبل على حمد الله في أحواله كلِّها في سرّائه وضرّائه، وفي شدّته ورخائه، ثم هو في حال شدّته لا ينسى فضلَ الله عليه وعطاءَه ونعمتَه.

جاء رجلٌ إلى يونس بن عبيد رحمه الله يشكو ضيقَ حاله، فقال له يونس: « أيسُرُّك ببصرك هذا مائةَ ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألفٍ؟ قال: لا، قال: فبرجليك مائةُ ألفٍ؟ قال: لا. قال: فذكّره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة ».

وجاء عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنّه قال: « إنّ رجلاً بُسط له من الدنيا فانتزع ما في يديه، فجعل يحمدُ الله ويثني عليه حتى لم يكن له

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٩٩٩) بلفظ: ((عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن ...))، الحديث.
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٤،٤٣).

فراشٌ إلاّ بارِيَّةٌ(١)، قال: فجعل يحمدُ الله ويثني عليه، وبُسط لآخر من الدنيا فقال لصاحب الباريّة: أرأيتك أنت على ما تحمد الله؟ قال: أحمده على ما لو أُعطيت به ما أُعطي الخلق لم أعطِهم إيّاه. قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك، أرأيتك لسانك، أرأيتك يديك، أرأيتك رجليك »(٢).

وثبت في فضل الحمد ما رواه الترمذي وابن ماجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « أفضل الذِكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله »(٣)، فجعل صلوات الله وسلامه عليه حمدَ الله أفضلَ الدعاءِ، مع أنَّ الحمد إنّما هو ثناءٌ على المحمود مع حبِّه، ولهذا سُئل ابن عيينة رحمه الله عن هذا الحديث فقيل له: كأنّ الحمد لله دعاء؟ فقال: « أما سمعتَ قولَ أمية بن أبي الصلت لعبد الله ابن جدعان يرجو نائلة:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحياءُ

إذا أثنى عليك المرءُ يوما كفاه من تعرضه الثناءُ

كريم لا يغيره صباحٌ عن الخلق الجميل ولا مساءُ

فهذا مخلوقٌ اكتفى من مخلوقٍ بالثناء عليه، فكيف بالخالق سبحانه ».

ويؤيّد هذا المعنى قولُ الله تعالى: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(٤)،

(١) الحصير المنسوج. القاموس المحيط (ص:٤٥٢).

(٢) ذكرهما ابن القيّم في عِدة الصابرين (ص:١٦٧).

(٣) سنن الترمذي (رقم:٣٣٨٣)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٨٠٠)، وحسّنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (رقم:١١٠٤).

(٤) سورة: يونس، الآية: (١٠).

فجعل الحمدَ دعاء.

قال ابن القيّم رحمه الله: « الدعاء يُراد به دعاءُ المسألة ودعاء العبادة، والمُثني على ربّه بحمده وآلائه داعٍ له بالاعتبارين، فإنّه طالبٌ منه، طالبٌ له، فهو الداعي حقيقة، قال تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(١) »(٢).

وممّا ورد في فضل الحمد وعِظم ثوابه عند الله ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعريِّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: « الطَّهور شطرُ الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصَّبرُ ضِياءٌ، والقرآن حجّةٌ لك أو عليك، كلُّ الناس يغدو فبائعٌ نفسَه فمعتقُها أو موبقُها »(٣).

فأخبر ﷺ في هذا الحديث عن عظيم فضل الحمد وعظيم ثوابه، وأنّه يملأ الميزان، وقد قيل: إنَّ المراد بملائه الميزان أي: لو كان الحمد جسماً لملأ الميزان، وليس بسديد، بل إنَّ الله ﷻ يمثّل أعمال بني آدم وأقوالهم صُوَراً يوم القيامة وتوزن حقيقةً، ومن ذلك قوله ﷺ كما في الصحيحين: « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان، خفيفتان على اللسان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم »(٤).

فالحمد شأنه عظيمٌ، وثوابُه جزيلٌ، ويترتّب عليه من الأجر والثواب ما

---

(١) سورة: غافر، الآية: (٦٥).
(٢) صيغ الحمد المطبوع باسم مطالع السعد (ص:٩٠).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٢٢٣).
(٤) صحيح البخاري (رقم:٦٠٤٩)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩٤).

لا يعلمه إلاّ الله، وأهله هم الحَرِيُّون يوم القيامة بأعلى المقامات وأرفع الرُّتب وأعلى المنازل، فإنّ الله ﷻ يحبُّ المحامدَ، ويحبُّ من عبده أن يُثنيَ عليه، ويرضى عن عبده أن يأكلَ الأكْلةَ فيحمده عليها، ويشربَ الشربَةَ فيحمده عليها، وهو تبارك وتعالى المانُّ عليهم بالنعمة والمتفضِّل عليهم بالحمد، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلبُ منهم الثناءَ بها وذكرها والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكراً عليها، وإن كان ذلك كلُّه من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، لكنه يحبُّ ذلك من عباده حيث كان صلاحُ العبد وفلاحُه وكمالُه فيه، فللّه الحمد على نعمائه، وله الشكر على وافر فضله وجزيل عطائه حمداً كثيراً طيّباً مباركاً كما يحبُّ ربُّنا ويرضى.

۞۞۞

٤٣ / المواطن التي يتأكّد فيها الحمد

لقد مرّ معنا بيانُ فضل الحمد وعظيم ثوابه من خلال النصوص الواردة في ذلك في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي تدل على أنّ الحمد من أفضل الطاعات وأجلّ القُربات التي يتقرّب بها العبدُ إلى الله تعالى.

والحمدُ مطلوبٌ من المسلم في كلِّ وقت وحين؛ إذ إنَّ العبد في كلِّ أوقاته متقلِّبٌ في نعمة الله، وهو سبحانه خالقُ الخلق ورازقهم، وأسبغ عليهم نعمَه ظاهرة وباطنة، دينية ودنيوية، ودفع عنهم النِّقم والمكاره، فليس بالعبادِ من نعمة إلاّ وهو مولّيها، ولا يدفع الشرَّ عنهم سواه، فهو سبحانه يستحقّ منهم الحمد والثناء في كلِّ وقتٍ وحين، كما أنّه سبحانه يستحقُّ الحمدَ لكمال صفاته، ولِما له من الأسماء الحسنى والنعوت العظيمة التي لا تنبغي إلاّ له، فكلُّ اسم من أسمائه، وكلُّ صفةٍ من صفاته يستحقُّ عليها أكملَ الحمد والثناءِ، فكيف بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة.

وكما أنَّ الحمدَ مطلوبٌ من المسلم في كلِّ وقتٍ، إلاَّ أنَّ هناك أوقاتاً معيّنةً وأحوالاً مخصوصةً تمرُّ بالعبد يكون فيها الحمدُ أكثرَ تأكيداً.

ومن هذه الأوقات والأحوال حمدُ الله في الخطبة وفي استفتاح الأمور، وفي الصلاة، وعقِب الطعام والشراب واللباس، وعند العطاس، ونحو ذلك من المواطن التي ورد في السنة تخصيصها بتأكّد الحمد فيها، ولعلّ من الحسن أن نقف مع بعض النصوص المشتملة على ذكر الأوقات والمواطن التي يتأكّد فيها الحمدُ ممّا وردت به سنّة النبي ﷺ.

ـ فمن هذه المواطن حمد الله عند الفراغ من الطعام والشرب، قال الله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[١]، روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلةَ فيحمدُه عليها ويشربَ الشربةَ فيحمدُه عليها »[٢]، وروى الترمذي بإسناد حسن عن معاذ بن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من أكلَ طعاماً فقال الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حولٍ منِّي ولا قوّةٍ، غفر له ما تقدّم من ذنبه »[٣]، وروى البخاري عن أبي أمامة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: « الحمدُ لله حمداً كثيراً طيّباً مُباركاً فيه، غير مَكْفِيٍّ، ولا مُوَدَّعٍ، ولا مستغنى عنه ربّنا »[٤]، وروى النسائي في السنن الكبرى بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن جُبير: أنّه حدّثه رجل خَدمَ النبيِّ ﷺ ثمان سنين أنّه كان يسمع النبيَّ ﷺ إذا قَرَّب إليه طعاماً يقول: « بسم الله »، وإذا فرغ من طعامه قال: « اللّهمَّ أطعمتَ وسقيتَ وأغنيتَ وأقْنيتَ وهدَيتَ وأحييتَ، فلك الحمد على ما أعطيتَ »[٥].

ـ ومِن مواطن الحمد حمدُ الله في الصلاة، ولا سيّما عند الرفع من الركوع، ففي صحيح مسلم عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه قال: « سمع الله لمن حمده

---

(١) سورة: البقرة، الآية: (١٧٢).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٤).

(٣) سنن الترمذي (رقم:٣٤٥٨)، وحسّنه العلاّمة الألباني في الإرواء (٧/٤٨).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٥٤٥٩).

(٥) السنن الكبرى (رقم:٦٨٩٨).

ربّنا لك الحمد ملءَ السموات وملءَ الأرض، وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعد »[١]، وفيه أيضاً عن أبي سعيد الخدري: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: « اللّهمَّ ربَّنا لك الحمد، ملءَ السموات وملءَ الأرض، وملءَ ما شئتَ من شيء بعد، أهلَ الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلُّنا لك عبد، اللّهمَّ لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطِيَ لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ »[٢]، وروى البخاري في صحيحه عن رفاعة بن رافع الزُّرَقيِّ رضي الله عنه قال: كنَّا نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسَه من الركوع قال: « سمع الله لمن حمده »، قال رجلٌ وراءه: ربّنا لك الحمد حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه، فلمّا انصرف قال:

« مَن المتكلِّم؟ » قال: أنا، قال: « قد رأيتُ بضعةً وثلاثين مَلَكاً يبتدرونها أيّهم يكتبها أوّل »[٣]، وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول:

« اللّهمَّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمدُ أنت قيُّوم السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت الحقُّ، ووعدُك حقٌّ، ولقاؤُك حقٌّ، والجنّةُ حقٌّ، والنار حقٌّ، والنبيّون ... »، إلى آخر الحديث[٤].

وروى مسلمٌ في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: بينما نحن نصلي مع

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٧٧١).

(٢) صحيح مسلم (رقم:٤٧٧).

(٣) صحيح البخاري (رقم:٧٩٩).

(٤) صحيح البخاري (رقم:١١٢٠)، وصحيح مسلم (رقم:٧٦٩).

رسول الله ﷺ قال رجلٌ: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بُكرةً وأصيلاً، فقال النبي ﷺ: « مَن القائل كذا وكذا؟ » فقال رجل من القوم: أنا قلتُها يا رسول الله. قال: « عجبتُ لها فُتحت لها أبواب السماء »، قال ابن عمر: فما تركتها منذ سمعت رسول الله يقولهنَّ[١].

ـ ومن المواطن التي يتأكّد فيها الحمد حمدُ الله في ابتداء الخُطب والدروس، وفي ابتداء الكتب المصنّفة ونحوِ ذلك، روى أهل السنن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: علَّمنا رسول الله ﷺ خُطبةَ الحاجة: « الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلّ فلا هادي له »[٢]، ويُستحبّ البدء به في تعليم الناس وفي الخطب سواءً كانت خطبةَ نكاح أو خطبةَ جمعة أو غيرهما.

كما يُستحبُّ الحمد عند حصول نعمة أو اندفاع مكروه، سواءً حصل ذلك للحامِد نفسه أو لقريبه أو لصاحبه أو للمسلمين، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: « أنَّ النبي ﷺ أُتي ليلة أُسريَ به بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن، فقال له جبريل عليه السلام: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذتَ الخمر

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٦٠١).

(٢) سنن النسائي (٦/ ٨٩)، وسنن الترمذي (رقم:١١٠٥)، وسنن أبي داود (رقم:٢١١٨)، وسنن ابن ماجه (١٨٩٢)، وانظر في تخريج الحديث والكلام عليه ((خطبة الحاجة)) للألباني حفظه الله.

غَوَت أمَّتُك »[١]، وفي سنن أبي داود والنسائي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ كان إذا استجدَّ ثوباً سمّاه باسمه عِمامة أو قميصاً أو رداء ثم يقول: « اللّهمّ لك الحمد أنتَ كسوتنيه أسألك خيرَه وخيرَ ما صُنع له، وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ ما صُنع له »[٢].

ـ ويتأكّد الحمدُ إذا عطس العبدُ، والعطاس نعمة عظيمة من نعم الله على عباده؛ إذ به يزول المحتقن في الأنف، والذي قد يكون في بقائه أذى أو ضررٌ على العبد، ولهذا يتأكّد على العبد حمدُ الله على هذه النعمة، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إذا عطس أحدكم فليقُل: الحمد لله، وليَقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلحُ بالَكم »[٣].

ويُستحب للمسلم أن يحمد الله إذا رأى مبتلىً بعاهةٍ أو نحوها، ففي الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
« مَن رأى مبتلىً فقال: الحمد لله الذي عافاني ممّا ابتلاك به وفضّلني على كثير ممّن خلق تفضيلاً لم يصبه ذلك البلاءُ »[٤].

كما ينبغي للمسلم أن يكون حامداً لله في سرّائه وضرّائه، وفي شدّته ورخائه، وفي سائر شؤونه، وروى ابن ماجه في سننه، والحاكم في مستدركه عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحبّه قال: « الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات »، وإذا رأى

---

[١] صحيح مسلم (رقم:١٦٨).
[٢] سنن أبي داود (رقم:٤٠٢٠)، والسنن الكبرى النسائي (رقم:١٠١٤١).
[٣] صحيح البخاري (رقم:٦٢٢٤).
[٤] سنن الترمذي (رقم:٣٤٣٢)، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (رقم:٦٢٤٨).

ما يكره قال: « الحمد لله على كلِّ حال »[1].

فهذه بعضُ المواطن التي يتأكّد فيها الحمد مما وردت به السنة، وسيمرّ معنا بإذن الله الإشارةُ إلى مواطن أخرى، فالحمدُ لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحبّ ربُّنا ويرضى، حمداً لا ينقطع ولا يبيد ولا يفنى عدد ما حمده الحامدون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون.

❁❁❁

(1) سنن ابن ماجه (رقم:٣٨٠٣)، والمستدرك (١/ ٤٩٩)، وصححه العلاّمة الألباني في صحيح الجامع (رقم:٤٧٢٧).

٤٤ / أعظم موجبات الحمد العلم بأسماء الرب وصفاته

لا ريب أنَّ الحمدَ كلَّه لله ربِّ العالمين، فإنّه سبحانه المحمود على كلِّ شيء، وهو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، والحمدُ أوسعُ الصفات وأعمُّ المدائح وأعظم الثناء، والطرقُ إلى العلم به في غاية الكثرة؛ لأنَّ جميعَ أسمائه تبارك وتعالى حمدٌ، وصفاته حمدٌ، وأفعاله حمدٌ، وأحكامه حمدٌ، وعدله حمدٌ، وانتقامه من أعدائه حمدٌ، وفضله وإحسانه إلى أوليائه حمدٌ، والخلق والأمر إنّما قام بحمده ووُجد بحمده وظهر بحمده، وكان الغاية منه هي حمده، فحمدُه سبحانه سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله، فحمده روح كلِّ شيء، وقيامُ كلّ شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات وظهور آثاره أمرٌ مشهودٌ بالأبصار والبصائر.

وقد نبّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأنْ حَمِدَ نفسَه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرّده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق به من اتخاذ الولد والشريك إلى غير ذلك من أنواع ما حمد اللهُ به نفسه في كتابه.

ولهذا فإنَّ من الطرق العظيمة الدالة على شمول معنى الحمد وتناوله لجميع الأشياء معرفةَ العبد لأسماء الربِّ تبارك وتعالى وصفاته، وإقرارَه بأنَّ للعالَم إلهاً حيًّا جامعاً لكلِّ صفة كمال، واسمٍ حسنٍ وثناء جميل وفعل كريم، وأنّه سبحانه له القدرة التامَّةُ والمشيئةُ النافذة والعلم المحيط، والسمعُ الذي وسع الأصوات، والبصرُ الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملكُ الكامل الذي لا يخرج عنه ذرّة من الذرّات، والغنى

التامُّ المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهودة آثارها في الكائنات، والعزّة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلمات التامّات النافذات التي لا يجاوزهنّ بَرٌّ ولا فاجر من جميع البريّات، واحدٌ لا شريك له في ربوبيّته ولا في إلهيته، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وليس له من يشركه في ذرّة من ذرّات ملكه، وهو سبحانه قيّوم السموات والأرضين إله الأولين والآخرين، ولا يزال سبحانه موصوفاً بصفات الجلال، منعوتاً بنعوت الكمال، منزَّهاً عن أضدادها من النقائص والعيوب، فهو الحيّ القيوم الذي لكمال حياته وقيّوميّته لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، مالكُ السموات والأرض الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، العالم بكلِّ شيء الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقطُ ورقةٌ إلاَّ بعلمه، ولا تتحرّك ذرّةٌ إلاّ بإذنه، يعلم دبيبَ الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليه الملك، ويعلم ما سيكونُ منها حيث لا يطلع عليه القلب، البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرّة الصغيرة وأعضاءَها ولحمَها ودمَها ومخَّها وعروقَها، ويرى دبيبَها على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرضين السبع، كما يرى ما فوق السموات السبع، السميعُ الذي قد استوى في سمعه سرُّ القول وجهرُه، وسع سمعُه الأصوات فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه، ولا يُشغلُه منها سمع عن سمع، ولا تغلطُه المسائل، ولا يبرمُه كثرة السائلين، قالت عائشة رضي الله عنها: « الحمد لله الذي وسع سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وإني ليخفى عليّ بعضُ كلامها، فأنزل الله ﷻ: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي**

تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[١] »، القديرُ الذي لكمال قدرته يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، ويجعل المؤمنَ مؤمناً والكافرَ كافراً، والبرَّ برًّا والفاجرَ فاجراً، ولكمال قدرته سبحانه لا يحيط أحدٌ بشيء من علمه إلاّ بما شاء أن يُعلمه إيّاه، ولكمال قدرته خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيّامٍ وما مسَّه من لغوب، ولا يُعجزه أحدٌ من خلقه ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان، ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك والشفيع بدون إذنه إليه، ولكمال عظمته وعلوّه وسِعَ كرسيُّه السموات والأرض، ولم تسعه أرضُه ولا سمواتُه، ولم تُحط به مخلوقاته، بل هو العالي على كلِّ شيء، وهو بكلِّ شيء محيط، يقول الله تعالى في أوّل سورة يونس: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ الَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ

---

(١) سورة: المجادلة، الآية: (١). وحديث عائشة رواه أحمد في المسند (٦/ ٤٦)، وغيره، وصححه الألباني في تعليقه على السنة لابن أبي عاصم (رقم:٦٢٥).

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١) .

وهو سبحانه يحبُّ رسُلَه ويُحبُّ عبادَه المؤمنينَ وهم يحبُّونه ويحمدونه، بل لا شيء أحبُّ إليهم منه، ولا أشوقَ إليهم من لقاءه، ولا أقرَّ لعيونهم من رؤيته، ولا أحظى عندهم من قربه، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في خلقه وأمره، وله النعمة السابغة على خلقه، وكلُّ نعمةٍ منه فضلٌ، وكلُّ نقمةٍ منه عدلٌ، وهو سبحانه أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها، وأفرحُ بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلِكة بعد فقدها واليأس منها. وهو سبحانه رحيمٌ بعباده لم يُكلِّفهم إلاَّ وُسعهم وهو دون طاقتهم، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم بخلاف وسعهم فإنَّه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدرهم عنه، ولا يعاقب سبحانه أحداً بغير فعله، ولا يعاقبه على فعل غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله، ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه، وهو سبحانه حكيمٌ كريمٌ جوادٌ ماجدٌ محسنٌ وَدودٌ صَبورٌ شَكورٌ، يُطاعُ فَيَشكرُ، ويُعصى فيَغفِر، لا أحد أصبر على أذى سمعه منه، ولا أحد أحبُّ إليه المدح منه، ولا أحد أحبُّ إليه العذر منه، ولا أحد أحبُّ إليه الإحسان منه، فهو محسن يحبُّ المحسنين، شَكور يحبُّ الشاكرين، جميلٌ يحب الجمال، طيِّبٌ يحبُّ كلَّ طيِّب، عليم يحب العلماءَ من عباده، كريمٌ يحبُّ الكرماء، قويٌّ والمؤمن القويُّ أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، برٌّ يحبُّ الأبرار، عدلٌ يحبُّ أهل العدل، حييٌّ سِتِّيرٌ يحبُّ أهل الحياء والستر. وهو سبحانه يحبُّ أسماءَه وصفاته ويحبُّ المتعبِّدين له بها، ويحبُّ من يسأله

(١) سورة: يونس، الآيات: (٣ ـ ١٠).

ويمدحه بها، ويحبُّ من يعرفها ويعقلها ويثني عليه بها، ويحمده ويمدحه بها كما في الصحيح عن النبي ﷺ: « لا أحد أحبُّ إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه، ولا أحد أغيرُ من الله من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين »[1][2].

وبهذا يُعلم أنَّ من كان له نصيب من معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا الواردة في كتابه وسنّة رسوله ﷺ عَلِمَ تَمام العلم أنَّ اللهَ لا يكون له من ذلك إلاَّ ما يوجب الحمد والثناء، فالحمد موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة، ولا يُخْبَرُ عنه سبحانه إلاَّ بالحمد، ولا يُثنى عليه إلاَّ بأحسن الثناء، كما لا يسمّى إلاَّ بأحسن الأسماء، فكلُّ صفة عليَا واسم حسن وثناء جميل، وكلُّ حمدٍ ومدحٍ وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ وإجلالٍ وإكرامٍ فهو لله عَزَّ وَجَلَّ على أكمل الوجوه وأتمِّها وأدومِها. فسبحان الله وبحمده لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقه. فله الحمد أولاً وآخراً حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه كما يُحبُّ ربُّنا الكريمُ ويرضى.

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٧٦٠).
(٢) انظر: طريق الهجرتين لابن القيِّم (ص:٢١٠ ـ ٢٢٦).

٤٥/ حمد الله على نعمه وآلائه

تقدّم معنا الإشارةُ إلى شمول حمد الله سبحانه وتناوله لجميع ما يُحدِثه من إحسان ونعمة وغير ذلك وأنَّ حمدَه سبحانه هو موجبُ أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة. وبهذا يتبيَّن أنَّ حمد الله نوعان: حمدٌ على إحسانه إلى عباده وهو من الشكر، وحمدٌ لما يستحقُّه هو بنفسه من صفات كماله ونعوت جلاله سبحانه، وقد كان أكثر الحديث عن حمد الله على أسمائه الحسنى وصفاته العظيمة، وأنَّ علم العبد بها علماً صحيحاً هو من أعظم موجبات قيامه بحمد الله على أحسن وجه وأتمِّ حالٍ، وأماَّ الحديث هنا فسيكون عن النوع الثاني من أنواع الحمد وهو حمد الله على نعمه وآلائه.

يقول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[١]، ويقول تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}[٢]، ويقول تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ}[٣]، ويقول تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا}[٤]، فنِعمُ الله على عباده كثيرةٌ ومتنوّعةٌ، وكلُّ نعمة منها موجبة لحمد المُنعِم سبحانه، وكما أنَّ أسباب الحمد وموجباته متنوِّعةٌ متعدِّدةٌ، فكذلك الحمدُ تنوَّع بتنوّعها وكثُرَ بكثرتها، وقد فصَّل ابن القيّم رحمه الله الحديث عن هذا النوع في كتابه «

(١) سورة: فاطر، الآية: (٣).

(٢) سورة: لقمان، الآية: (٢٠).

(٣) سورة: النحل، الآية: (٥٣).

(٤) سورة: إبراهيم، الآية: (٣٤).

طريق الهجرتين »، وذكر رحمه الله أنَّ هذا النوع من الحمد حمد النِّعم والآلاء مشهودٌ للخليقة برِّها وفاجرِها، مؤمنِها وكافرِها من جزيل مواهبه، وسعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته لهم، وبرّه ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضطرّين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرّد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المِحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، وصرفها بعد وقوعها، ولطفه تعالى في ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهداية خاصّته وعباده إلى سبيل دار السلام، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام، وحبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم من الراشدين ، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وسمّاهم المسلمين مِن قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكروه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبّب إليهم بنعمه مع غناه، وتبغضّهم إليه بالمعاصي وفقرهم إليه، ومع هذا كلِّه فاتّخذ لهم داراً، وأعدّ لهم فيها من كلِّ ما تشتهيه الأنفسُ وتلَذُّ الأعين، وملأها من جميع الخيرات، وأودعها من النَّعيم والحَبرة والسرور والبهجة ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم أرسل إليهم الرّسل يدعونهم إليها، ثم يسَّر لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضي منهم باليسير في هذه المدّةِ القصيرة جدًّا بالإضافة إلى بقاء دار النعيم، وضَمِن لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشراً، وإن أساءوا واستغفروا أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جَنَوه من السيّئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات

وذكّرهم بآلائه، وتعرَّف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحساناً، لا حاجة منه إليهم، ونهاهم عمّا نهاهم عنه حمايةً وصيانةً لهم لا بُخلاً منه عليهم، وخاطبهم بألطف خطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووصّاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال، وصرّف لهم الآيات، وضرب لهم الأمثال، ووسع لهم طرقَ العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبواب الهداية، وعرّفهم الأسباب التي تدنيهم مِن رضاه، وتبعدهم عن غضبه، ويخاطبهم بألطف الخطاب، ويسمّيهم بأحسن أسمائهم، كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، {وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ}(١)، {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ}(٢)، {قُلْ لِعِبَادِي}(٣)، {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي}(٤)، فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبّة والتلطّف، كقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}(٥)، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ}(٦)، {يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ

---

(١) سورة: النور، الآية: (٣١).

(٢) سورة: الزمر، الآية: (٥٣).

(٣) سورة: إبراهيم، الآية: (٣١).

(٤) سورة: البقرة، الآية: (١٨٦).

(٥) سورة: البقرة، الآيات: (٢١،٢٢).

(٦) سورة: لقمان، الآية: (٣٣).

الكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} (١)، وأكثرُ القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودّد والتحنّن واللطف والنصيحة البالغة.

يقول تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً} (٢)، قال ابن القيّم رحمه الله: « فتحت هذا الخطاب: إني عاديت إبليس وطردتُه من سمائي وباعدته من قربي؛ إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريّته من دوني وهم أعداؤكم، فليتأمّل اللبيبُ مواقع هذا الخطاب وشدّة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح.

ثم إنَّه سبحانه قد أعلمَ عباده بأنَّه لا يرضى لهم إلاّ أكرمَ الوسائلِ وأفضلَ المنازل، وأجَلَّ العلوم والمعارفِ، قال تعالى: {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} (٣)، وقال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} (٤)، وقال: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} (٥)، وقال تعالى: {يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} (٦).

---

(١) سورة: الإنفطار، الآية: (٦).

(٢) سورة: الكهف، الآية: (٥٠).

(٣) سورة: الزمر، الآية: (٧).

(٤) سورة: المائدة، الآية: (٣).

(٥) سورة: البقرة، الآية: (١٨٥).

(٦) سورة: النساء، الآيات: (٢٦ ـ ٢٨).

ثم هو سبحانه لم يخلق عبادَه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثَّر بهم من قلّةٍ، ولا ليتعزَّز بهم من ذِلَّة، بل كما قال سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}(1)، وقال سبحانه عقِب أمره لعباده بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: {وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}(2)، فهو سبحانه غنيٌّ عما ينفقون أن ينالَه منه شيء، حميد مستحقٌّ المحامد كلّها، فإنفاق العباد لا يسدُّ منه حاجة ولا يوجب له حمداً، بل هو الغنيُّ بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقُ العباد نفعه عائدٌ لهم وإحسانهم عائدٌ إليهم، كما قال سبحانه: {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}(3)، وقال: {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}(4)، وقال: {مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}(5) »(6).

هذا ومن أراد مطالعة أصول النِّعم وما توجبه من حمد الله وذكره وشكره وحسن عبادتِه فَلْيُدِمْ سرح الذِّكر في رياض القرآن الكريم، وليتأمّل ما عدّد الله فيه من نعمه وتعرّف بها إلى عباده من أول القرآن إلى آخره {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

---

(1) سورة: الذاريات، الآيات: (٥٦ ـ ٥٨).
(2) سورة: البقرة، الآية: (٢٦٧).
(3) سورة: الإسراء، الآية: (٧).
(4) سورة: الروم، الآية: (٤٤).
(5) سورة: يونس، الآية: (١٠٨).
(6) انظر: طريق الهجرتين لابن القيّم (ص:٢٣١ ـ ٢٣٧).

الحَكِيمُ}[١].

۞۞۞

(١) سورة: الجاثية، الآيات: (٣٦،٣٧).

٤٦ / حمدُ الله هو أفضلُ النِّعَم

لا رَيب في عِظم شأن الحمدِ وجلالة قدره وكثرةِ ثوابه، فهو من أجلّ الطاعات وأحسن القُربات، وهو أحقُّ ما تقرّب به العبد إلى ربّه سبحانه. ثبت في الصحيح أنَّ النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: « ربّنا ولك الحمد، ملءَ السموات، وملءَ الأرض، وملءَ ما شئت من شيء بعد، أهلَ الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبد لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَد منك الجد »[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « هذا لفظ الحديث « أحقُّ » أفعل تفضيل، وقد غلط فيه طائفةٌ من المصنِّفين فقالوا « حقٌ ما قال العبد » وهذا ليس لفظ الرسول، وليس هو بقول سديد، فإنَّ العبدَ يقول الحقَّ والباطل، بل الحقُّ ما يقوله الربُّ، كما قال تعالى ﴿فَالحَقُّ وَالحَقَ أَقُولُ﴾[٢]، ولكن لفظه « أحقُّ ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف، أي الحمدُ أحقُّ ما قال العبد أو هذا ـ وهو الحمد ـ أحقُّ ما قال العبد، ففيه بيّن أنّ الحمد أحق ما قاله العبد، ولهذا أوجب قولَه في كلِّ صلاة، وأَنْ تُفْتَتَحَ به الفاتحة، وأوجب قولَه في كلِّ خطبة وفي كلِّ أمر ذي بال »[٣]. اهـ.

والحمد هو أفضل نعم الله على عباده، وهو أجل من نعم الله التي أنعم بها على العبد من رزقه وعافيته وصحته والتوسعةِ عليه في دنياه ونحوِ ذلك،

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٤٧٧).
(٢) سورة: ص، الآية: (٨٤).
(٣) الفتاوى (١٤/ ٣١٢).

ويشهد لهذا ما رواه ابنُ ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما أنعم الله على عبد بنعمة فقال: « الحمد لله إلا كان ما أعطى أفضل مّما أخذ »[١].

وروي هذا أيضاً عن الحسن البصري موقوفاً عليه، رواه ابن أبي الدنيا في كتابه الشكر، وروى ابن أبي حاتم في تفسيره أنّ بعض عمال عمر بن عبد العزيز كتب إليه: إني بأرضٍ قد كثرت فيها النعم، حتى لقد أشفقتُ على أهلها من ضعف الشكر، فكتب إليه عمر: « إنّي قد كنت أراك أعلم بالله ممّا أنت، إنَّ الله لم ينعم على عبده نعمة، فحمد الله عليها إلا كان حمدُه أفضلَ من نعمه، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، قال الله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}[٢]، وقال الله {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ}[٣]، وأيُّ نِعمة أفضل من دخول الجنة ».

فهذا فيه أوضحُ دلالةٍ على أنَّ حمدَ الله على النِّعمة أفضلُ منَ النِّعمة نفسها، وقد استشكل هذا بعضُ أهل العلم وقال: لا يكون فعلُ العبد أفضلَ من فعل الربِّ ﷻ، أورد هذا الاستشكال ابنُ رجب في كتابه « جامع العلوم

(١) سنن اين ماجه (رقم:٣٨٠٥)، وحسّنه العلاّمة الألباني كما في السلسلة الضعيفة (٥/ ٢٤).
(٢) سورة: النمل، الآية: (١٥).
(٣) سورة: الزمر، الآية: (٧٣،٧٤).

والحكم » وأجاب عنه جواباً وافياً مسدَّداً فقال رحمه الله: « المرادُ بالنِّعمِ النِّعمُ الدنيويةُ، كالعافية والرزق والصحة ودفع المكروه ونحوِ ذلك، والحمدُ هو من النعم الدينية، وكلاهما نعمةٌ من الله، لكن نعمة الله على عبده بهدايته لشكر نعمه بالحمد عليها أفضل من نعمه الدنيوية على عبده، فإنَّ النِّعم الدنيوية إن لم يقترن بها الشكرُ كانت بليَّة، كما قال أبو حازم: كلُّ نعمة لا تقرِّب من الله فهي بلية. فإذا وفَّق الله عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر كانت هذه النعمة خيراً من تلك النعم وأحبَّ إلى الله ﷻ منها، فإنَّ الله يحب المحامد، ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها، والثناء بالنعم والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحبُّ إليهم من أموالهم، فهم يبذلونها طلباً للثناء، والله ﷻ أكرمُ الأكرمين وأجودُ الأجودين، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلب منهم الثناء بها وذكرها والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكراً عليها، وإن كان ذلك كلُّه من فضله عليهم، وهو غيرُ محتاجٍ إلى شكرهم، لكنَّه يُحبُّ ذلك من عباده، حيث كان صلاحُ العبد وفلاحُه وكمالُه فيه، ومن فضله أنَّه نسب الحمدَ والشكرَ إليهم، وإن كان من أعظم نعمه عليهم، وهذا كما أنَّه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال ثمَّ استقرض منهم بعضَه ومَدَحَهم بإعطائه، والكلُّ ملكه، ومن فضله، ولكن كرمه اقتضى ذلك »[1]. اهـ كلامه رحمه الله.

وبه يتبين معنى الحديث المتقدم: « ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ » فالعبد أعطى الحمد،

(1) جامع العلوم والحكم (٢/ ٨٢،٨٣).

وحمده نفسه نعمة من الله عليه، ولولا توفيقُ الله وإعانتُه لما قام بحمده، فنعمة الله على عبده بتوفيقه للحمد أفضل من نعمة الله عليه بالصحة والعافية والمال ونحو ذلك، والكلُّ نعمة الله، قال ابن القيم رحمه الله: « فنعمة الشكر أجَلُّ من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها »[١]. اهـ.

ولهذا فإنَّ حمد الله ﷻ وشكره على نعمه هو بحَدِّ ذاته نعمةٌ عظيمةٌ تستوجب حمداً آخر وشكراً متجدداً.

روى ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن بكر بن عبد الله قال:
« ما قال عبد قط الحمد لله إلا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله فما جزاء تلك النعمة؟ جزاؤها أن يقول الحمد لله فجاءت أخرى، ولا تنفد نعم الله ﷻ »[٢].

ولذا قال الإمام الشافعي رحمه الله في حمد الله: « الحمد لله الذي لا تؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها »[٣].

أيْ إنَّ العبد إذا حمد الله فهذه نعمة أخرى حادثة تستوجب حمداً آخر .

قال ابن أبي الدنيا: أنشدني محمود الورّاق:

إذا كـان شُكري نعمة الله نعمة — عَلَيَّ لـه في مثلِها يجبُ الشُّكرُ
فكيف وقوعُ الشكرِ إلاَّ بفضله — وإن طالت الأيامُ واتَّصَلَ العُمْرُ

---

(١) عدة الصابرين (ص:١٦٩).
(٢) الشكر (ص:١٧).
(٣) أورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤٠).

إذا مسَّ بالسرَّاء عَمّ سرورُها وإذا مسَّ بالضرَّاء أعقبها الأجْرُ
ومـا منـهمـا إلاَّ فيـه مِـنّـة تَضِيقُ بهَا الأوْهامُ والبرُّ والبحرُ[١]

وقال آخر في المعنى نفسه:

لو كلُّ جارحةٍ منِّي لها لغة تُثْني عليكَ بما أولَيْتَ من حَسَنِ
لكان ما زاد شكري إذ شكرتُ به إليك أبلغَ في الإحسانِ والمِنَنِ[٢]

فاللَّهمَّ لك الحمد شكراً، ولك المن فضلاً، لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالإيمان، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، لك الحمد بكلِّ نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامة، لك الحمد على ذلك حمداً كثيراً، اللهم لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد ربَّنا إذا رضيت.

۞۞۞

---

(١) الشكر (ص:٤٤).
(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤٠).

٤٧ / أفضلُ صِيَغِ الحمد وأكملُها

تقدّم بيانُ فضل الحمد وعظم ثوابه عند الله، والإشارةُ إلى بعض صِيَغه الواردة في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول الكريم ﷺ، كقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وقول: « الحمد لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحب ربّنا ويرضى »، ونحو ذلك مما ورد في القرآن الكريم مما حمد به الربُّ نفسه، وما ورد في سنة النبي الكريم ﷺ مما حمد به الرسول ﷺ ربَّه، وهي صيغٌ عظيمةٌ مشتملةٌ على أحسن الحمد وأكمله وأوفاه، وقد ذكر بعضُ أهل العلم أنَّ أفضل صيغ الحمد

« الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده »، واحتجّ بما ورد عن أبي نصر التمّار أنّه قال: قال آدم عليه السلام: يا رب شغلتّني بكسب يديّ فعلّمني شيئاً من مجامع الحمد والتسبيح، فأوحى الله إليه يا آدمُ إذا أصبحت فقل ثلاثاً وإذا أمسيت فقل ثلاثاً: « الحمدلله ربِّ العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، فذلك مجامع الحمد ».

وقد رُفع ذلك للإمام المحقق ابن قيِّم الجوزية رحمه الله فأنكره على قائله غايةَ الإنكار وبيَّن رحمه الله أنَّ ذلك لم يَرِد عن النبي ﷺ في شيء من الصحاح أو السنن أو المسانيد ولا يُعرف في شيء من كتب الحديث المعتمدة، وبَسَط القول رحمه الله في ذلك في رسالة مفردة.

قال رحمه الله: « هذا الحديث ليس في الصحيحين ولا في أحدهما ولا يُعرف في شيء من كتب الحديث المعتمدة، ولا له إسناد معروف، وإنّما يُروى عن أبي نصر التمّار عن آدم أبي البشر، لا يَدري كم بين أبي نصر

وآدم إلا الله تعالى، وذكر الحديث المتقدّم ثم قال: فهذا لو رواه أبو نصر التمّار عن سيِّد ولد آدم ﷺ لما قبلت روايته لانقطاع الحديث فيما بينه وبين رسول الله ﷺ فكيف بروايته له عن آدم.

وقد ظنَّ طائفة من الناس أنَّ هذا الحمد بهذا اللفظ أكمل حمدٍ حُمِد اللهُ به وأفضله وأجمعه لأنواع الحمد، وبنوا على هذا مسألة فقهيّة فقالوا: لو حلف إنسانٌ ليحمدنَّ اللهَ بمجامع الحمد وأجلِّ المحامد فطريقه في برِّ يمينه أن يقول: « الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده » قالوا: ومعنى يوافي نعمه أي يلاقيها فتحصل النعم معه، ويكافئ ـ مهموز ـ أي يساوي مزيد نعمه، والمعنى: أنّه يقوم بشكر ما زاد من النعم والإحسان ».

قال ابن القيِّم رحمه الله: والمعروف من الحمد الذي حمد الله به نفسه وحمده به رسوله ﷺ وسادات العارفين بحمده من أمته ليس فيه هذا اللفظ ألبتة، وأورد بعض صيغ الحمد الواردة في القرآن ثم قال: فهذا حمدُه لنفسه الذي أنزله في كتابه وعلَّمه لعباده، وأخبر عن أهل جنَّته به، وهو آكد من كلِّ حمدٍ وأفضلُ وأكملُ، كيف يبرُّ الحالف في يمينه بالعدول إلى لفظ لم يحمد به نفسه، ولا ثبت عن رسول الله ﷺ، ولا سادات العارفين من أمته، والنبي ﷺ كان إذا حمد الله في الأوقات التي يتأكّد فيها الحمد لم يكن يذكر هذا الحمدَ ألبتة كما في حمد الخطبة، والحمد الذي تستفتح به الأمور، وكما في تشهّد الحاجة، وكما في الحمد عقب الطعام والشراب واللباس والخروج من الخلاء، والحمد عند رؤية ما يسرّه وما لا يسرّه ... ».

ثم ساق رحمه الله جملةً كبيرةً مما ورد عن النبي ﷺ من صيغ الحمد مما يقال في مثل هذه الأوقات، ثم قال: « فهذا جُملُ مواقع الحمد في كلام الله

ورسوله وأصحابه والملائكة قد جُلِّيتْ عليك عرائسها وجُلِبَتْ إليك نفائسها، فلو كان الحديث المسؤول عنه أفضلَها وأكملَها وأجمعَها كما ظنّه الظانّ لكان واسطة عقدها في النظام، وأكثرِها استعمالاً في حمد ذي الجلال والإكرام »[١]. اهـ.

وبهذا التحقيق الذي ذكره رحمه الله يتبيّن ضعف هذه الصيغة في الحمد من جهة الرواية، وأنها لو كانت صحيحةً ومشتملةً على أكمل الصيغ لما عدل عنها رسول الله ﷺ، ولما آثر غيرها عليها، قالت عائشة رضي الله عنها: « كان رسول الله ﷺ يستحبّ الجوامع من الدعاء، ويدَعُ ما سوى ذلك »، رواه أبو داود وغيرُه.

وسبق أن مرّ معنا قول النبي ﷺ: « أفضلُ الدعاء الحمد لله »، وبهذا يُعلم أنَّ هذه الصيغة في الحمد لو كانت أكملَ لما تركها رسول الله ﷺ.

ثم إنَّه أيضاً لا يمكن للعبد أن يحمد الله حمداً يوافي نعمة واحدة من نعم الله، فضلاً عن موافاته جميع نعم الله، ولا يمكن أن يكون فعلُ العبد وحمدُه له مكافئاً للمزيد، قال ابن القيّم رحمه الله: « فهذا من أمحل المحال، فإنّ العبد لو أقْدَرَه الله على عبادة الثَّقلين لم يقم بشكر أدنى نعمة عليه ... فمن الذي يقوم بشكر ربِّه الذي يستحقه سبحانه فضلاً عن أن يكافئه »[٢].

وقال رحمه الله: « ... ولكن يحمل على وجه يصح، وهو أنَّ الذي يستحقه الله سبحانه من الحمد حمداً يكون موافياً لنعمه ومكافئاً لمزيده وإن لم

---

(١) صيغ الحمد المطبوع باسم مطالع السعد (ص:٩٨).
(٢) صيغ الحمد المطبوع باسم مطالع السعد (ص:٤١،٤٤).

يَقدِر العبدُ أن يأتي به »[١].

وأحسنُ من هذا وأكملُ ما ثبت في صحيح البخاري وغيره عن أبي أمامة الباهلي أنَّ النبيّ ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: « الحمد لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه غير مكفيٍّ، ولا مودَّع، ولا مستغنى عنه ربّنا »[٢]، فلو كانت تلك الصيغة وهي قوله: « حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده » أكمل وأفضل من هذه لما عدل عنها رسول الله ﷺ، فإنّه لا يختار إلاّ الأفضل والأكمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معنى هذا الحديث:
« المخلوق إذا أنعم عليك بنعمة أمكنك أن تكافئه، ونعمُهُ لا تدوم عليك، بل لا بدّ أن يودِّعك ويقطعها عنك، ويمكنك أن تستغني عنه، والله ﷻ لا يمكن أن تكافئه على نعمه، وإذا أنعم عليك أدام نعمَه، فإنّه هو أغنى وأقنى، ولا يُستغنى عنه طرفة عين ». اهـ[٣].

وفيه بيانٌ لعظم دلالات الأدعية المأثورة والأذكار الثابتة وعمق معانيها وسلامتها من الخطأ الذي قد يعتري ما سواها، وبهذا تكون السلامةُ وتحصيل الكامل.

فالحمد لله بمحامده التي حمد بها نفسه، وحمده بها الذين اصطفى من خلقه حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحب ربّنا ويرضى.

٤٨ / تعريفُ الحمد، والفرقُ بينه وبين الشكر

لا يزال الحديث موصولاً في الكلام عن الحمد، حيث سبق الحديثُ

---

(١) عدة الصابرين (ص:١٧٦).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٥٤٥٩).

(٣) صيغ الحمد لابن القيم المطبوع باسم مطالع السعد (ص:٤٩).

عن فضل الحمد وبيان ثوابه وذكر الأوقات التي يُشرع فيها، وذكر بعض صيغه إلى غير ذلك من أمور مرَّت معنا تتعلّق بالحمد، وسيكون الحديث هنا عن معنى الحمد في اللغة والشرع، والكلام على الفَرق بينه وبين الشكر، والفرق بينه وبين المدح.

أما معنى الحمد في اللغة، فهو نقيض الذم، قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: « الحاء والميم والدال كلمةٌ واحدة وأصلٌ واحد يدل على خلاف الذمّ، يُقال: حمدتُ فلاناً أحمده، ورجلٌ محمودٌ ومحمدٌ إذا كثرت خصالُه المحمودة غير المذمومة .. ولهذا الذي ذكرناه سُمِّيَ نبيّنا محمداً ﷺ »(١). اهـ.

وقال الليث: أحمدت الرجل وجدته محموداً، وكذلك قال غيرُه: يُقال أتينا فلاناً فأحمدناه وأذممناه أي وجدناه محموداً أو مذموماً(٢).

وقوله تعالى: {وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}(٣) فيه تنبيه على أنّه صلوات الله وسلامه عليه محمود في أخلاقه وأفعاله ليس فيه ما يُذمّ، وكذلك قوله: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ}(٤) فمحمّدٌ ههنا وإن كان اسماً له عَلَماً عليه ففيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بوافر معناه، وأما سواه فقد يُسمَّى بذلك ويكون له حظ من الوصف الذي دلّ عليه هذا الاسم وقد لا يكون،

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/ ١٠٠).

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٤/ ٤٣٤).

(٣) سورة: الصف، الآية: (٦).

(٤) سورة: الفتح، الآية: (٢٩).

أما الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فهو محمّدٌ اسماً ووصفاً.

فالحمد هو الثناء بالفضيلة وهو أخصُّ من المدح وأعمُّ من الشكر، فإنَّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره ومما يكون منه وفيه بالتسخير، فقد يُمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يُمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، أي أنَّ الإنسان يُحمد على بذل المال والشجاعة والعلم ونحو ذلك مما يكون منه باختياره، ولا يُحمد على صباحة الوجه وطول القامة وحسن الخِلقة ونحو ذلك مما ليس له فيه اختيار.

والشكر لا يُقال إلاَّ في مقابلة نعمة، فكلُّ شكر حمد، وليس كلُّ حمدٍ شكراً، وكلُّ حمد مدح، وليس كلُّ مدح حمداً[1].

قال ابن القيّم رحمه الله: « الفرق بين الحمد والمدح أن يُقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجرّداً من حبٍّ وإرادة
أو مقروناً بحبّه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني
فهو الحمد، فالحمد إخبارٌ عن محاسن الممدوح مع حبِّه وإجلاله وتعظيمه »[2]. اهـ.

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الحمد والشكر ما حقيقتهما؟ هل هما معنى واحد أو معنيان؟ وعلى أيّ شيء يكون الحمد؟ وعلى أي شيء يكون الشكر؟

---

(1) انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي (٢/ ٤٩٩).
(2) بدائع الفوائد (٢/ ٩٣).

فأجاب رحمه الله بقوله: « الحمد يتضمّن المدحَ والثناءَ على المحمود بذكر محاسنه سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلاّ على إحسان المشكور إلى الشاكر، فمِن هذا الوجه الحمد أعمّ من الشكر؛ لأنّه يكون على المحاسن والإحسان، فإنّ الله يُحمد على ما له من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة والأولى؛ ولهذا قال تعالى: {الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}(١)، وقال: {الحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ}(٢)، وقال: {الحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ}(٣)، وأما الشكر فإنّه لا يكون إلاّ على الإنعام، فهو أخصُّ من الحمد من هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، كما قيل:

أفادتكم النَّعماءُ مني ثلاثة … يدي ولساني والضمير المحجّبا

ولهذا قال تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً}(٤)، والحمد إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعمّ من جهة أنواعه، والحمد أعمّ من جهة أسبابه، ومن هذا الحديثُ: « الحمد لله رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره »(٥)، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: « إنَّ الله ليرضى عن العبد

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: (١).

(٢) سورة: سبأ، الآية: (١).

(٣) سورة: فاطر، الآية: (١).

(٤) سورة: سبأ، الآية: (١٣).

(٥) رواه عبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٤٢٤)، والبيهقي في الآداب (ص:٤٥٩) من طريق قتادة: أنَّ عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره.

=

يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها »[١] »[٢]. اهـ كلامه رحمه الله.

وبه يتبيّن أن بين الحمد والشكر عموماً وخصوصاً من وجه، فيجتمعان فيما إذا كان باللسان في مقابلة نعمة، فهذا يُسمَّى حمداً ويُسمَّى شكراً، وينفرد الحمد فيما إذا أثنى العبد على ربّه بذكر أسمائه الحسنى ونعوته العظيمة فهذا يُسمَّى حمداً، ولا يُسمَّى شكراً، وينفرد الشكر فيما إذا استعمل العبد نعمة الله في طاعة الله فهذا يُسمى شكراً ولا يُسمَّى حمداً.

إنَّ حمدَ الله هو الثناءُ على الله بذكر صفاته العظيمة ونعمِه العميمة مع حبّه وتعظيمه وإجلاله، وهو مختصٌّ به سبحانه لا يكون إلاّ له، فالحمد كلّه لله رب العالمين؛ « ولذلك قال سبحانه: {الحَمْدُ لله} بلام الجنس المفيدة للاستغراق، فالحمد كلُّه له إمّا ملكاً وإما استحقاقاً، فحمده لنفسه استحقاق، وحمد العباد له وحمدُ بعضهم لبعض ملكٌ

له ... فالقائل إذا قال: الحمد لله تضمّن كلامه الخبر عن كلِّ ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيطٍ متضمّنٍ لكلّ فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدَّرة، وذلك يستلزم إثبات كلِّ كمال يُحمد عليه الربُّ تعالى؛ ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد »[٣].

قال البيهقي: ((هكذا جاء مرسلاً بين قتادة ومن فوقه)).

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣٤).

(٢) الفتاوى (١١/ ١٣٤،١٣٣).

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٩٣،٩٢).

وإذا قيل: الحمد كلّه لله، فإنَّ هذا له معنيان:

أحدهما: أنّه محمودٌ على كلِّ شيء، وهو ما يُحمد به رسله وأنبياؤه وأتباعهم، فذلك من حمده تبارك وتعالى، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنّما نالوه بحمده، فهو المحمود أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

والمعنى الثاني: أن يُقال: لك الحمد كلّه أي التامّ الكامل هذا مختصٌّ بالله ليس لغيره فيه شركه.

قال ابن القيّم رحمه الله بعد أن ذكر هذين المعنيين: « والتحقيق أنَّ له الحمد بالمعنيين جميعاً، فله عمومُ الحمد وكمالُه، وهذا من خصائصه سبحانه، فهو المحمود على كلِّ حال، وعلى كلِّ شيء أكمل حمد وأعظمه »[1].

فالحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله بمجامع حمده كلِّها ما علمنا منها وما لم نعلم.

٤٩/ فضل الشكر

لا ريب في عِظَم فضلِ الشُّكرِ ورِفعة شأنِه، شُكرِ الله على نعمه المتوالية وعطاياه المتتالية وأياديه السابغة، وقد أمر الله به في كتابه ونهى عن ضدِّه، وأثنى على أهله، ووصف به خواصَّ خلقِه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله وعطائه، وحارساً وحافظاً

---

(١) طريق الهجرتين (ص:٢٠٦).

لنعمته، وأخبر أنَّ أهلَه هم المنتفعون بآياته[١]، ونوّع سبحانه الدلالة إليه والحثَّ عليه.

فأمر به سبحانه في غير موطن من القرآن الكريم، قال الله تعالى: {وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[٢]، وقال تعالى: {وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}[٣]، وقال تعالى: {فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٤].

وقرنه سبحانه بالإيمان وأخبر أنَّه لا غرض له سبحانه في عذاب خلقه إن شكروه وآمنوا به فقال سبحانه: {مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}[٥]، أي إن أدّيتم ووفّيتم ما خُلقتم له وهو الشكرُ والإيمان فما أصنعُ بعذابكم.

وأخبر سبحانه أنَّ أهلَ الشُّكرِ هم المَخْصوصون بمنّته عليهم من بين عباده، فقال سبحانه: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}[٦].

وعلّق سبحانه المزيدَ بالشكر، والمزيدُ منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[٧]،

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيِّم (٢/ ٢٤٢).
(٢) سورة النحل، الآية (١١٤).
(٣) سورة البقرة، الآية (١٥٢).
(٤) سورة العنكبوت، الآية (١٧).
(٥) سورة النساء، الآية (١٤٧).
(٦) سورة الأنعام، الآية (٥٣).
(٧) سورة إبراهيم، الآية (٧).

فالشكر معه المزيدُ أبداً؛ ولذا قيل: « فمتى لم ترَ حالَكَ في مزيدٍ فاستقبل الشكرَ ».

وقسّم سبحانه الناسَ إلى قسمين: شكورٌ وكفورٌ، فأبغضُ الأشياءِ إليه الكفرُ وأهلُه، وأحبُّ الأشياء إليه الشكرُ وأهلُه، قال تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[4].

وأخبر سبحانه أنَّه إنَّما يعبدُه من شكَرَه فمن لم يشكُرْه لم يكن من أهل عبادته فقال سبحانه: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[5].

وأخبر أنَّ رضاه في شكره فقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[6].

وأوّلُ وصيّةٍ وصّى بها الإنسانَ بعد ما عقل عنه بالشكر له وللوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[7].

---

(1) سورة الإنسان، الآية (٣).

(2) سورة الزمر، الآية (٧).

(3) سورة لقمان، الآية (١٢).

(4) سورة النمل، الآية (٤٠).

(5) سورة البقرة، الآية (١٧٢).

(6) سورة الزمر، الآية (٧).

(7) سورة لقمان، الآية (١٤).

وقد وقف سبحانه كثيراً من الجزاء في أنواعٍ كثيرةٍ من العبادات على المشيئة كقوله: {فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ}(١)، وقولِه في الإجابة: {فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ}(٢)، وقولِه في الرزق: {يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ}(٣)، وقولِه في المغفرة: {يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ}(٤)، وقولِه في التوبة: {وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَآءُ}(٥)، أمَّا الشكر فقد أطلق جزاءَه إطلاقاً حيث ذُكر، كقولِه: {وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}(٦)، وقولِه: {وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ}(٧).

وأخبر سبحانه أنَّ عدوَّ الله إبليس قد جعل غايتَه أنْ يسعى في قطع النَّاس عن الشكر؛ وذلك لَمّا عرف عِظم قَدْرِ مقام الشكر، وأنَّه مِن أجلِّ المقامات وأعلاها كما في قوله تعالى: {ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}(٨).

وأخبر سبحانه أنَّ الشاكرين هم القليلُ من عباده فقال تعالى: {وَقَلِيلٌ مِّنْ

---

(١) سورة التوبة، الآية (٢٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٤١).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢١٢)، وسورة آل عمران، الآية (٣٧)، وسورة النور، الآية (٣٨)، وسورة الشورى، الآية (١٩).

(٤) سورة آل عمران، الآية (١٢٩)، سورة المائدة، الآية (١٨)، سورة الفتح، الآية (١٤).

(٥) سورة التوبة، الآية (١٥).

(٦) سورة آل عمران، الآية (١٤٥).

(٧) سورة آل عمران، الآية (١٤٤).

(٨) سورة الأعراف، الآية (١٧).

عِبَادِيَ الشَّكُورُ}[١]، وقال تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}[٢].

وأخبر سبحانه أنَّ الشكرَ هو الغايةُ من خلقه للخلق وتنويعه للنعم، قال تعالى: {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٣]، وقال تعالى: {وَمِن رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٤]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٥]، والنصوصُ في هذا المعنى كثيرةٌ جداً.

ثمَّ إنَّ الشكر هو سبيلُ رُسُل الله وأنبيائه أخصِّ خلق الله وأقربهم إليه صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

فقد أثنى الله سبحانه على أوَّل رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}[٦]، وفي تخصيص نوحٍ ها هنا بالذِّكر وخطابِ العباد بأنَّهم ذريَّته إشارةٌ إلى الاقتداء به، فإنَّه أبوهم الثاني، فإنَّ الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرَق نسلاً إلاَّ من ذريّته، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}[٧]، فأمر الذريّةَ أنْ يتشبّهوا بأبيهم في الشكر فإنَّه كان

(١) سورة سبأ، الآية (١٣).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٤٣)، سورة يوسف، الآية (٣٨)، سورة غافر، الآية (٦١).

(٣) سورة النحل، الآية (٧٨).

(٤) سورة القصص، الآية (٧٣).

(٥) سورة النحل، الآية (١٤).

(٦) سورة الإسراء، الآية (٣).

(٧) سورة الصافات، الآية (٧٧).

عبداً شكوراً.

وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}(١)، فأخبر عنه سبحانه بأنَّه أمَّةٌ، أي: قدوةٌ يؤتمُّ به في الخير، وأنَّه قانتٌ لله، والقانتُ هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيفُ هو المقبلُ على الله المعرضُ عمَّا سواهُ، ثمَّ ختم له هذه الصفات بأنَّه شاكرٌ لأنعُمِهِ، فجعل الشكرَ غايةَ خليله عليه السلام.

وأمر سبحانه وتعالى عبدَه موسى عليه السلام أنْ يتلقّى ما آتاه من النبوّة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}(٢)، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ في بيان شكر الأنبياء عليهم السلام لله، وأنَّ ذلك هو سبيلُهم وطريقُهم(٣).

أمَّا شكرُ خاتم النبيّين وسيِّد ولد آدم أجمعين محمدِ بن عبد الله عليه أفضلُ الصلاة وأزكى التسليم فبابٌ واسعٌ وبحرٌ خِضَمٌّ، فهو أعرفُ الخلق بالله، وأقومُهم بخشيته، وأشكرُهم لنعمه، وأعلاهم عنده منزلةً، ثبت في الصحيح عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: « قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورّمت قدماه، فقيل له غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر قال: أفلا أكون عبداً شكوراً »(٤).

(١) سورة النحل، الآية (١٢١،١٢٠).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٤٤).

(٣) انظر: عدة الصابرين لابن القيم (ص:١٥٠ وما بعدها).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٤٨٣٦).

فصلّى اللهُ وملائكتُه وأنبياؤُه ورسلُه وجميعُ المؤمنين عليه كما وحّد اللهَ وعرّف به ودعا إليه وقام بشكره حقَّ القيام وسلّم تسليماً كثيراً.

۞۞۞

٥٠/ حقيقة الشكر ومكانته عند السلف

كان الحديثُ فيما مضى عن فضل الشكر وعِظم مكانته عند الله وتنوّع دلالاته في القرآن الكريم، وسنتحدّث هنا عن أصل الشكر وحقيقتِه والإشارة إلى مكانته عند السلف الصالح رحمهم الله.

أمّا أصل الشكر وحقيقتهُ فهو الاعتراف بإنعام المنعِم على وجه الخضوع له والذلّ والمحبّة، « فمن لم يعرف النعمةَ بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرف النعمة ولم يعرف المنعِم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعِم ولكن جحدها كما يجحد المنكرُ لنعمته المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعِم وأقرّ بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضى به وعنه لم يشكرها أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع له وأحبّه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها »[1].

وبهذا يتبيّن أنَّ الشكر مبنيٌّ على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملُها فيما يكره، فهذه الخمسُ هي أساسُ الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدِم منها واحدةٌ اختلَّ من قواعد الشكر قاعدة، وكلُّ من تكلَّم في الشكر وحدِّه فكلامه إليها يرجع وعليها يدور[2]. وهو يكون بالقلب واللسان والجوارح، « يكون

---

(1) طريق الهجرتين لابن القيم (ص:١٧٥).

(2) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٤٤).

بالقلب خضوعاً واستكانة [ومحبّة]، وباللسان ثناءً واعترافاً، وبالجوارح طاعةً وانقياداً »[١].

روى ابن أبي الدنيا في كتابه الشكر أنَّ رجلاً قال لأبي حازم سلمةَ ابن دينار: « ما شكرُ العينين يا أبا حازم؟ قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفعته، قال: ما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله ﷻ هو فيهما، قال: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفلُه طعاماً وأعلاه علماً، قال: ما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله ﷻ: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ}[٢]، قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إذا رأيت ميتاً غبطته استعملت بهما عمله، وإن رأيت ميتاً مقتّه كمقتهما عن عمله وأنت شاكرٌ لله ﷻ، فأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجلٍ له كساءٌ فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر »[٣].

إنَّ نعمة الله على عبده في لسانه ويده وقدمه وجميع بدنه لا يمكن أن تحصى، وكلُّها تستوجب شكرَ المنعم بها، قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم رحمه الله: « الشكر يأخذ بجزم الحمد وأصله وفرعه، فلينظر في نعم من الله في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك، ليس من هذا شيءٌ إلاَّ

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٤٦).
(٢) سورة المؤمنون، الآية (٥ ـ ٧)، وسورة المعارج، الآية (٢٩ ـ ٣١).
(٣) الشكر لابن أبي الدنيا (رقم:١٢٩).

وفيه نعمةٌ من الله، حقٌّ على العبد أن يعملَ بالنعم التي هي في بدنه لله ﷻ في طاعته، ونعم أخرى في الرزق حق عليه أن يعمل لله فيما أنعم به عليه من الرزق في طاعته، فمن عمل بهذا فقد أخذ بحزم الشكر وأصله وفرعه ››[١]. ا.هـ

ومن نعم الله العظيمة على عبده ما متّعه به من عافيته في سمعه وبصره وجميع بدنه، وكم لله في عبده من نعمة في عرق ساكن، والعافية نعمة تستوجب الشكر وتستحق الحمد، كان عبد الأعلى التيمي يقول: ‹‹ أكثروا سؤال الله ﷻ العافية فإنَّ المبتلى وإن اشتدَّ بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلاَّ من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلاَّ من أهل العافية اليوم، ولو كان بلاءٌ يجرُّ إلى خير ما كنا من رجال البلاء، إنَّه رُبَّ بلاءٍ قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يأمن من أطال المُقام على معصية الله جلّ وعزّ أن يكون قد بقي له في بقيّة عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة ثم يقول عند ذلك: الحمد لله الذي إن نعد نعمه لا نحصيها وإن ندأب له عملاً لا نجزيها وإن نعمر فيها لا نُبليها ››[٢].

بل لو أنَّ العبد أُوتي عُمُر الدنيا، وقطع ذلك العمر مستغرقاً في طاعة الله وعبادته ولم يعصه في لحظة واحدة ولا لفظةٍ ما أدّى شكر عشر معشار نعمه سبحانه، بل لو أنفق كلَّ عمره مضاعفاً إلى ما لا نهاية من الأعمار ما

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (رقم:١٥٧).
(٢) انظر: نتائج الأفكار في شرح حديث سيِّد الاستغفار للسفاريني (ص:٣١٢،٣١١).

أدّى شكر نعمة واحدة، كيف والشكر نعمة تحتاج إلى مثلها من الشكر، فلا سبيل إلى تأدية شكر عُشر معشار نعمه إلاَّ بالاعتراف بالعجز والتقصير، ولهذا جاء في سيِّد الاستغفار « أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنَّه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت ». ولفظُ النعمة وإن كان مفرداً في هذا الدعاء لكنه مضاف فيعمّ كلَّ نعمة من الظاهرة والباطنة من نعمة الإيمان والوجود من العدم والسمع والبصر والعقل والعلم والصحة وغير ذلك من النعم اللاّتي أنعم الله بها على عباده[1].

والنعمة نعمتان: نعمة مطلقة ونعمة مقيَّدة.

فأما النعمة المطلقة فهي المتصلة بسعادة الأبد وهي نعمة الإسلام والسنة، وهي النعمة التي أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط أهلها ومن خصّهم بها وجعلهم أهل الرفيق الأعلى حيث يقول تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا}[2].

وأما النعمة المقيَّدة كنعمة الصحة وعافية الجسد وبسط الجاه وكثرة الولد وأمثال هذا، والنعمة المطلقة هي التي يُفرَح بها في الحقيقة، والفرح بها مما يحبه الله ويرضاه وهو لا يحب الفرِحين، قال الله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}[3].

---

(١) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (ص:٢ ـ ٤).

(٢) سورة النساء، الآية (٦٩).

(٣) سورة يونس، الآية (٥٨).

إنَّ الشكر لله على نعمه عموماً المطلقة والمقيَّدة واجبٌ على كلِّ مسلم ومتعيِّنٌ على كلِّ مؤمن، وهو السبيل لبقائها ودوامها ونموها، كما أنَّ عدم شكر النعمة سببٌ لزوالها واضمحلالها، وقد قيل: كلُّ شكرٍ وإن قلَّ ثمنٌ لكلِّ نوالٍ وإن جلّ، فإذا لم يشكر المرءُ فقد عرّض النعمة للزوال، وقيل أيضاً: الشكر قيدٌ للنعم الموجودة، وصيدٌ للنعم المفقودة، وقيل أيضاً: كفران النعم بوار، وهو وسيلة إلى الفرار، وكانوا يسمّون الشكر الحافظ؛ لأنَّه يحفظ النعم الموجودة، والجالب؛ لأنَّه يجلب النعم المفقودة[1]. وقيل أيضاً: النعمةُ إذا شكرت قرَّت وإذا كُفرت فرّت.

نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه وأن يعيذنا من كفرانها، إنَّه سميع مجيب.

۞۞۞

(1) انظر: عدة الصابرين لابن القيم (ص:١٥٥)، ونتائج الأفكار للسفاريني (ص:٣٢٥).

٥١ / فضل التكبير ومكانته من الدِّين

لا يزال الحديث ماضياً عن الكلمات الأربع التي هي خير الكلام وأحبه إلى الله وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وسبق الحديث مفصلا بعض الشيء عن التسبيح والتحميد والتهليل وبقي الكلام عن التكبير، فضلِه ومعناه في اللغة والشرع وبعضِ الأمور الأخرى المتعلقة به.

إنَّ التكبير شأنُه عظيم وثوابُه عند الله جزيل وقد تكاثرت النصوص في الحث عليه والترغيب فيه وذكر ثوابه.

يقول الله تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً}[١]، وقال تعالى في شأن الصيام: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢]، وقال تعالى في شأن الحج وما يكون فيه من نُسك يَتقرَّب فيه العبدُ إلى الله: {لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}[٣]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو بصدد بيان تفضيل التكبير

(١) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).

(٢) سورة: البقرة، الآية: (١٨٥).

(٣) سورة: الحج، الآية: (٣٧).

(٤) سورة: المدثّر، الآيات: (١ ـ ٣).

وعظم شأنه: « ولهذا كان شعائرُ الصلاة والأذان والأعياد والأمكان العالية هو التكبير، وهو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ، ولم يجئ في شيء من الأثر بدل قول الله أكبر، الله أعظم ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير، فلو قال الله أعظم لم تنعقد به الصلاة لقول النبي ﷺ « مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم »(١). وهذا قول مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف وداود وغيرهم، ولو أتى بغير ذلك من الأذكار مثل سبحان الله والحمد لله لَم تنعقد به الصلاة.

ولأنَّ التكبيرَ مختصٌّ بالذكر في حال الارتفاع كما أن التسبيح مختص بحال الانخفاض كما في السنن عن جابر بن عبد الله قال: « كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك »(٢) ... »(٣). اهـ.

ثم إنَّ التكبيرَ مصاحِبٌ للمسلم في عبادات عديدة وطاعات متنوعة فالمسلم يكبر الله عند ما يكمل عدَّة الصيام، ويكبر في الحج كما سبق الإشارة إلى دليل ذلك من القرآن الكريم، وأما الصلاة فإنَّ للتكبير فيها شأناً عظيماً ومكانة عالية، ففي النداء إليها يشرع التكبير وعند الإقامة لها وتحريمها هو

(١) رواه أبو داود في سننه (برقم:٦١)، وصححه العلاّمة الألباني في الإرواء (٨/٢).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (برقم:٢٧٣٤).

(٣) الفتاوى (١٦/ ١١٣،١١٢).

التكبير، بل إنَّ تكبيرة الإحرام ركن من أركان الصلاة، ثم هو يصاحب المسلم في كلِّ خفض ورفع من صلاة، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: « كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يكبّر حين يقوم، ثم يكبر حين يركع، ثم يقول: سمع الله لمن حمده حين يرفع صلبه من الركعة، ثم يقول: ربنا لك الحمد، ثم يكبر حين يهوي، ثمَّ يكبر حين يرفع رأسه، ثم يكبر حين يسجد، ثم يكبر حين يرفع رأسه، ثم يفعل ذلك في الصلاة كلِّها حتى يقضيها، ويكبر حين يقوم من الثنتين بعد الجلوس »(١).

وبهذا فالتكبير يتكرر مع المسلم في صلاته مرات كثيرة، فالصلاة الرباعية فيها اثنتان وعشرون تكبيرة، والثنائية فيها إحدى عشرة تكبيرة، وكلُّ ركعة فيها خمسُ تكبيرات، وعلى هذا فالمسلم يكبر الله في اليوم والليلة في الصلوات الخمس المكتوبة فقط أربعاً وتسعين تكبيرة، فكيف إذا كان محافظاً مع ذلك على الرواتب والنوافل، وكيف إذا كان محافظاً على الأذكار التي تكون أدبار الصلوات وفيها التكبير ثلاثٌ وثلاثون مرة، فالمسلم إذا كان محافظاً على الصلوات الخمس مع السنن الرواتب وعددُها ثنتا عشرة ركعة مع الشفع والوتر ثلاث ركعات ومحافظاً على التكبير المسنون أدبار الصلوات ثلاثا وثلاثين مرة فإنَّ عدد تكبيره لله في يومه وليلته يكون ثلاثمائة واثنتين وأربعين تكبيرة، ولا ريب أنَّ هذا فيه دلالة على فضيلة التكبير حيث جعل الله للصلاة منه هذا النصيب الوافر، فإذا ضُمَّ إلى ذلك التكبيرُ في الأذان

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٧٨٩)، وصحيح مسلم (رقم:٣٩٢).

للصلاة والإقامة لها ممّن يؤذِن أو يُحافظ على إجابة المؤذِن، زاد بذلك عدد تكبيره في يومه وليلته، فإنَّ عدد ما يكون فيهما من تكبيرات في اليوم والليلة خمسون تكبيرة، فإنَّ عدد التكبير بذلك يزيد.

ثم إنَّ المسلم إذا كان محافظاً على التكبير المطلق غير المقيد بوقت فإن عدد تكبيره لله في أيامه ولياليه لا يحصيه إلا الله سبحانه.

والتكبير ركنٌ من أركان الصلاة، فتحريمها لا يكون إلاّ به، وهذا يُشعِر ولا ريب بمكانة التكبير من الصلاة، وأنّ الصلاة إنما هي تفاصيل للتكبير الذي هو تحريمها، يقول ابن القيّم رحمه الله: « ... لا أحسن من كون التكبير تحريماً لها، فتحريمها تكبير الربّ تعالى الجامع لإثبات كلِّ كمال له، وتنزيهه عن كلِّ نقص وعيبٍ، وإفراده وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله، فالتكبير يتضمّن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيآتها، فالصلاة من أوّلها إلى آخرها تفصيل لمضمون « الله أكبر »، وأيّ تحريم أحسن من هذا التحريم المتضمّن للإخلاص والتوحيد! »[1]. اهـ.

وبهذا يتبيّن مكانةُ التكبير وجلالةُ قدره وعِظمُ شأنه من الدين، فليس التكبيرُ كلمةً لا معنى لها، أو لفظةً لا مضمون لها، بل هي كلمةٌ، عظيمٌ شأنها، رفيعٌ قدرها تتضمّن المعاني الجليلةَ والمدلولاتِ العميقةَ والمقاصد السامية الرفيعة.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[2]: « يقول وعظِّم ربَّك يا محمد بما أمرك أن تعظِّمه به من قول وفعل، وأطِعه فيما أمرك

(1) الصلاة لابن القيم (ص:١٠٦).

(2) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).

ونهاك »[١].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية نفسها: « أي عظِّمه تعظيماً شديداً، ويظهر تعظيم الله في شدّة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه والمسارعة إلى كلِّ ما يرضيه »[٢].

وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الدِّينَ كلَّه يُعدُّ تفصيلاً لكـلمة « الله أكبر » فالمسلم يقوم بالطاعات جميعها والعبادات كلّها تكبيراً لله وتعظيماً لشأنه وقياماً بحقِّه سبحانه، وهذا ممّا يبيِّن عظمةَ هذه الكلمة وجلالةَ قدرها، ولهذا يروى عن عمر بن الخطّاب ﷺ أنّه قال: « قول العبد: الله أكبر، خيرٌ من الدنيا وما فيها »[٣]، فالله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

۞۞۞

---

(١) جامع البيان (٩/ ١٧٩).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٦٣٥).

(٣) أورده القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٢٣).

٥٢ / معنى التكبير وبيان مدلوله

كان الحديث الماضي عن التكبير فضله وبيان مكانته من الدين، وسيكون الحديث عن معنى التكبير والمراد به؛ إذ إنَّ فقه الأذكار الشرعية وفهم المراد بها يُعدّ أساساً عظيماً ومطلباً جليلاً لا بدّ منه.

والتكبير هو تعظيم الربّ تبارك وتعالى وإجلاله، واعتقاد أنّه لا شيء أكبرُ ولا أعظمُ منه، فيصغر دون جلاله كلُّ كبير، فهو الذي خضعت له الرقاب وذلَّت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كلَّ شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوّه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره المخلوقات.

قال الإمام الأزهري في كتابه تهذيب اللغة: « وقول المصلي: الله أكبر، وكذلك قول المؤذّن، فيه قولان:

أحدهما: أنّ معناه الله كبير، كقول الله جلّ وعزّ: ﴿**وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾[1]، أي هو هيّنٌ عليه، ومثله قول مَعنِ بن أوس: لعمرك ما أدري وإني لأوجلُ.

معناه: وإني لوجلٌ.

والقول الآخر: أنّ فيه ضميراً، المعنى: الله أكبرُ كبيرٍ، وكذلك الله الأعزّ، أي: أعزُّ عزيزٍ، قال الفرزدق:

إنّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا بيتاً دعائمُه أَعَزُّ وأطولُ

(١) سورة: الروم، الآية: (٢٧).

معناه: أعز عزيز، وأطول طويل »[١]. اهـ.

والصواب من هذين القولين اللذين ذكرهما رحمه الله هو الثاني، بمعنى أن يكون اللهُ عند العبد أكبرَ من كلِّ شيء، أي لا أكبرَ ولا أعظمَ منه، أما الأول فهو غيرُ صحيحٍ وليس هو معنى الله أكبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « التكبير يُراد به أن يكون (الله) عند العبد أكبر من كلِّ شيء، كما قال ﷺ لعديٍّ بن حاتم: « يا عديّ ما يُفرُّك؟ أَيُفرُّك أن يُقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم مِن إله إلاّ الله؟
يا عديّ ما يفرُّك. أَيُفرُّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل من شيء أكبر من الله؟ »، وهذا يُبطل قولَ من جعل أكبر بمعنى كبير »[٢]. اهـ.

وحديث عديٍّ هذا رواه الإمام أحمد والترمذي وابن حبان وغيرهم بإسناد جيّد[٣].

وبه يتبيّن أن معنى الله أكبر أي من كلِّ شيء، فلا شيء أكبرُ ولا أعظمُ منه، ولهذا يُقال إنَّ أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال هي: الله أكبر، أي صِفْهُ بأنّه أكبرُ من كلِّ شيء، قال الشاعر:

رأيتُ الله أكبر كلِّ شيء　　　محاولةً وأكثرهم جنوداً[٤]

والتكبير معناه كما تقدّم التعظيم، لكن ينبغي أن يُعلم أنّ التعظيم ليس

---

(١) تهذيب اللغة (١٠/ ٢١٤).

(٢) الفتاوى (٥/ ٢٣٩).

(٣) المسند (٤/ ٣٧٨)، وسنن الترمذي (٢٩٣٥م)، وصحيح ابن حبان (الإحسان) (رقم:٧٢٠٦).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠/ ٢٢٣).

مرادفاً في المعنى للتكبير، فالكبرياء أكمل من العظمة؛ لأنّه يتضمّنها ويزيد عليها في المعنى، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

« وفي قوله « الله أكبر » إثبات عظمته، فإنّ الكبرياء تتضمّن العظمة، ولكن الكبرياء أكمل، ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: « الله أكبر » فإنّ ذلك أكمل من قول الله أعظم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: « يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما عذّبته »(١)، فجعل العظمة كالإزار والكبرياء كالرداء، ومعلوم أنّ الرداء أشرف، فلمّا كان التكبيرُ أبلغَ من التعظيم صرّح بلفظه، وتضمّن ذلك التعظيم »(٢). اهـ.

وها هنا أمرٌ ينبغي التنبّه له وعدم إغفاله، وهو أن المسلم إذا اعتقد وآمن بأنّ الله سبحانه وتعالى أكبر من كلِّ شيء، وأنّ كلَّ شيء مهما كبر يصغر عند كبرياء الله وعظمته، علمَ من خلال ذلك علم اليقين أن كبرياءَ الربِّ وعظمتَه وجلالَه وجمالَه وسائرَ أوصافه ونعوته أمرٌ لا يمكن أن تحيط به العقول أو تتصوّره الأفهام أو تدركه الأبصار والأفكار، فالله أعظم وأعظم من ذلك، بل إنّ العقولَ والأفهامَ عاجزةٌ عن أن تدركَ كثيراً من مخلوقات الرب تبارك وتعالى، فكيف بالرب سبحانه.

ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: « بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كلِّ سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة

---

(١) صحيح مسلم (رقم:٢٦٢٠).
(٢) الفتاوى (١٠/ ٢٥٣).

والكرسيِّ خمسمائة عام، وبين الكرسيِّ والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم »[١].

وروي عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما السموات السبع في الكرسي إلاّ كدراهم سبعة أُلقيت في ترس »[٢].

وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما الكرسي في العرش إلاّ كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض »[٣].

وليتأمّل المسلم في عظم السماء بالنسبة إلى الأرض، وعظم الكرسيِّ بالنسبة إلى السماء، وعِظم العرش بالنسبة إلى الكرسيِّ، فإنّ العقولَ عاجزةٌ عن أن تدرك كمال هذه الأشياء أو أن تحيط بكُنْهِها وكيفيتها وهي مخلوقة،

---

(١) رواه الدارمي في الرد على الجهمية (ص:٢٦،٢٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٨٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٩٠)، وغيرهم.

قال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٦): ((رجاله رجال الصحيح))، وصححه الذهبي في العلو (ص:١٠٣ ـ مختصره)، وابن القيم في اجتماع الجيوش (ص:١٠٠).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٣/ ١٠)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف، وزيد تابعي، فهو مرسل.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٤٨ ـ ٦٤٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١)، وغيرهما، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:١٠٩) بمجموع طرقه.

فكيف بالأمر إذاً في الخالق سبحانه، فهو أكبر وأجلُّ من أن تعرف العقولُ كُنْهَ صفاته أو تدرك الأفهامُ كبرياءَه وعظمتَه، ولهذا جاءت السنةُ بالنهي عن التفكّر في الله؛ لأنّ الأفكار والعقول لا تدرك كنه صفاته، فالله أكبر من ذلك، قال ﷺ: « تفكّروا في آلاء الله، ولا تفكّروا في الله ﷻ »[١].

والتفكّرُ المأمور به هنا كما يبيّن ابن القيّم رحمه الله هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة[٢]، وهذا يتضح بالمثال، فالمسلم إذا أحضر في قلبه كبر هذه المخلوقات من سموات وأرض وكرسي وعرش ونحو ذلك، ثم أحضر في قلبه عجزه عن إدراك هذه الأشياء والإحاطة بها حصل له بذلك معرفة ثالثة وهي عظمة وكبرياء خالق هذه الأشياء وعجز العقول عن أن تدرك صفاته أو تحيط بنعوته سبحانه، يقول سبحانه: **{وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً}**[٣]، فالله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

(١) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٣/ ٥٢٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٢١٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإسناده ضعيف جدًّا، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن سلاَم، وأبي ذر، وابن عباس. وقد حسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم:١٧٨٨) بمجموع طرقه.

(٢) مفتاح دار السعادة (ص:١٨١).

(٣) سورة: الإسراء، الآية: (١١١).

٥٣/ التلازم بين الكلمات الأربع

تحدثتُ فيما سبق عن الكلمات الأربع « سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر » وما ورد في فضل هذه الكلمات إجمالاً وتفصيلاً، وما يتعلّق كذلك بمعاني هذه الكلمات ومدلولهنّ، ولعلَّ من الحسن في ختام الحديث عن هؤلاء الكلمات أن أشير إلى ما بينهنَّ من ترابط وتلازم، وقد علمنا من خلال ما تقدّم أنَّ هؤلاء الكلمات هنَّ أفضل الكلام بعد القرآن الكريم وهنَّ من القرآن الكريم، وتقدّم معنا أيضاً الإشارة إلى جملة كبيرة من النصوص الدالة على عظم شأن ذكر الله تعالى بهؤلاء الكلمات الأربع وما يترتّب على ذلك من أجور كثيرة وفضائل وفيرة وخير مستمر في الدنيا والآخرة، ولا شك أنَّ هذا فيه أوضح إشارة على قوة الارتباط بين هذه الكلمات الأربع وشدة الصلة بينهنَّ.

ثمَّ إنَّ هؤلاء الكلمات كما أوضح أهل العلم « شطران فالتسبيح قرين التحميد، ولهذا قال النبي ﷺ: « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم »، أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة[١]. وقال ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي ذر: « أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده »[٢]، وفي القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾[٣]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٤٠٦)، وصحيح مسلم (رقم:٢٦٩٤).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣١).
(٣) سورة البقرة، الآية (٣٠).

{إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[١]، فكان النبي ﷺ يقول في ركوعه: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي »، يتأوّل القرآن، هكذا في الصحاح عن عائشة رضي الله عنها[٢]، فجعل قوله: « سبحانك اللهم وبحمدك » تأويل {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، وقد قال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ}[٣]، وقال: {فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}[٤]، والآثار في اقترانهما كثيرة.

وأمَّا التهليلُ فهو قرينُ التكبيرِ كما في كلمات الأذان: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلاَّ الله أشهد أنَّ محمداً رسول الله، ثم بعد دعاء العباد إلى الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلاَّ الله، فهو مشتملٌ على التكبير والتشهد (في) أوله وآخره، وهو ذكر لله تعالى، وفي وسطه دعاء الخلق إلى الصلاة والفلاح، فالصلاة هي العمل، والفلاح هو ثواب العمل، لكن جعل التكبير شفعاً والتشهد وتراً، فمع كلِّ تكبيرتين شهادة، وجعل أوله مضاعفاً على آخره، ففي أول الأذان يكبر أربعاً، ويتشهّد مرّتين، والشهادتان جميعاً باسم الشهادة، وفي آخره التكبير مرتان فقط مع التهليل الذي لم يقترن به لفظ الشهادة.

... وكما جمع بين التكبير والتهليل في الأذان جمع بينهما في تكبير الإشراف، فكان على الصفا والمروة، وإذا علا شرفاً في غزوة أو حجة أو

(١) سورة النصر، الآية (٣).

(٢) صحيح البخاري (رقم:٨١٧)، وصحيح مسلم (رقم:٤٨٤).

(٣) سورة غافر، الآية (٥٥).

(٤) سورة الروم، الآية (١٧،١٨).

عمرة يكبر ثلاثاً ويقول: « لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلاَّ الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده » يفعل ذلك ثلاثاً، وهذا في الصحاح[١]، وكذلك على الدابة كبّر ثلاثاً وهلّل ثلاثاً فجمع بين التكبير والتهليل، وكذلك حديث عدي بن حاتم الذي رواه الترمذي فيه أنَّ النبي ﷺ قال له: « يا عدي ما يُفِرُّك؟ أَيُفِرُّك أن يقال: لا إله إلاَّ الله، فهل تعلم من إله إلاَّ الله؟ يا عدي ما يُفِرُّك؟ أَيُفِرُّك أن يقال: الله أكبر فهل من شيء أكبر من الله » فقرن النبي ﷺ بين التهليل والتكبير »[٢] »[٣].

ثم إنَّ أفضل هؤلاء الكلمات هو التهليل لاشتماله على التوحيد الذي هو أصل الإيمان، وهو الكلام الفارق بين أهل الجنة وأهل النار، وهو ثمن الجنة، ولا يصلح إسلام أحد إلاَّ به ومن كان آخر كلامه لا إله إلاَّ الله دخل الجنة، ومنزلة التحميد والتسبيح منه منزلة الفرع من الأصل، فالتهليل أصل وما سواه فرع له وتابع، ولهذا قال ﷺ كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلاَّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[٤]. فجعل صلوات الله وسلامه عليه التهليل أعلا وأرفع شعب الإيمان، وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه قال: « قلت:

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٧٩٧)، وصحيح مسلم (رقم:١٣٤٤).

(٢) سنن الترمذي (٢٩٣٥م)، وتقدّم (ص:٢٨٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٣).

(٤) صحيح البخاري (رقم:٩)، وصحيح مسلم (رقم:٣٥).

يا رسول الله أفمن الحسنات لا إله إلاَّ الله؟ قال: هي أفضل الحسنات »[١]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً، وقد تقدّم معنا جملة كبيرة منها.

ولا يعارض هذا ما ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: « أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده »[٢]؛ إذ لا يلزم منه ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ أن يكون أفضل مطلقاً بدليل أنَّ قراءة القرآن أفضل من الذكر، وقد نهى النبي ﷺ عنها في الركوع والسجود وقال: « إني نُهيتُ أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، أما الركوع فعظموا فيه الربّ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم »[٣].

وها هنا أصل عظيم نبّه عليه شيخ الإسلام رحمه الله وهو أنَّ الشيء إذا كان أفضل من حيث الجملة لم يجب أن يكون أفضل في كل حال ولا لكل أحد، بل المفضول في موضعه الذي شرع فيه أفضل من الفاضل المطلق، كما أنَّ التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن ومن التهليل والتكبير، والتشهد في آخر الصلاة والدعاء بعده أفضل من قراءة القرآن، فالتفضيل مختلف باختلاف الأحوال فقول النبي ﷺ لما سئل أي الكلام أفضل فقال: « سبحان الله وبحمده »، هذا خرج على سؤال سائل، فربما علم النبي ﷺ من حال السائل حالاً مخصوصة.

وعلى كلٍّ فالتفضيل مختلف باختلاف الأحوال، وإن كان التهليل

(١) المسند (٥/ ١٦٩).
(٢) صحيح مسلم (رقم:٢٧٣١).
(٣) صحيح مسلم (رقم:٤٧٩).

أفضل مطلقاً والأحوال ثلاثة: حال يستحب فيها الإسرار ويكره فيها الجهر لأنَّها حال انخفاض كالركوع والسجود، فهنا التسبيح أفضل من التهليل والتكبير، وكذلك في بطون الأودية، وحال يستحب فيه الجهر والإعلان كالإشراف والأذان فهنا التهليل والتكبير أفضل من التسبيح، وحال يشرع فيه الأمران[١].

نسأل الله الكريم أن يوفقنا وجميع المسلمين لكل خير يحبه ويرضاه، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

۞۞۞

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٤/ ٢٣٥ ـ ٢٣٩).

٥٤ / فضل لا حول ولا قوة إلاَّ بالله

فإنَّ من الكلمات العظيمة التي جاءت النصوصُ بتفضيلها وبيانِ عِظم شأنها، الحَوْقَلة، وهي قول لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، وقد جاءت في بعض الأحاديث مضمومة إلى الكلمات الأربع التي سبق الحديث عنها مفصَّلاً فيما مضى، ومن النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة مضمومة إلى أولئك الكلمات ما رواه الترمذي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « ما على الأرض رجل يقول لا إله إلاَّ الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، إلاَّ كُفِّرت عنه ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر »(١)، وأيضاً ما رواه أبو داود والنسائي والدارقطني وغيرهم عن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني لا أستطيع أن أتعلّم القرآن فعلِّمني شيئاً يجزيني قال: « تقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله »، فقال الأعرابي هكذا وقبض يديه فقال: هذا لله فمالي، قال: « تقول: اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني واهدني »، فأخذها الأعرابي وقبض كفيه فقال النبي ﷺ: « أما هذا فقد ملأَ يديه بالخير »(٢).

وروي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) المسند (٢/ ١٥٨،٢١٠)، وسنن الترمذي (رقم:٣٤٦٠)، ومستدرك الحاكم (١/ ٥٠٣)، وصحيح الجامع (رقم:٥٦٣٦).

(٢) سنن أبي داود (رقم:٨٣٢)، وسنن النسائي (٢/ ١٤٣)، وسنن الدارقطني (١/ ٣١٣،٣١٤).

قال: « استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والحمد ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله »، رواه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرُه[١]، وفي إسناده أبو السمح دراج بن سمعان صدوق في حديثه عن أبي الهيثم ضعف[٢]، وهذا منها.

لكن جاء عد لا حول ولا قوة إلاَّ بالله في جملة {**الباقيات الصالحات**}[٣] عن غير واحد من الصحابة والتابعين، فقد روى الإمام أحمد في مسنده أنَّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ سُئل عن « الباقيات الصالحات » ما هي؟ فقال: « هي لا إله إلاَّ الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله »[٤].

وروى ابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه سئل عن « الباقيات الصالحات » فقال: لا إله إلاَّ الله، والله أكبر، وسبحان الله ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

وروى مالك عن سعيد بن المسيب قال: « الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله ».

وروى ابن جرير الطبري عن عمارة بن صياد قال: « سألني سعيد ابن المسيب عن « الباقيات الصالحات »، فقلت: الصلاة والصيام، قال: لم تُصب،

---

(١) المسند (٣/ ٧٥)، وصحيح ابن حبان (الإحسان) (رقم:٨٤٠)، والمستدرك (١/ ٥١٢).

(٢) تقريب التهذيب لابن حجر (ص:٢٠١).

(٣) سورة الكهف، الآية (٤٦)، وسورة مريم، الآية (٧٦).

(٤) المسند (١/ ٧١).

فقلت: الزكاة والحج، فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلاَّ الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله)).

وأثر ابن المسيب هذا يوهم أنَّ ((الباقيات الصالحات)) محصورة في هؤلاء الكلمات الخمس، والذي عليه المحققون من أهل العلم أنَّ ((الباقيات الصالحات)) هنَّ جميع أعمال الخير، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: {والباقيات الصالحات} قال: هي ذكر الله قول لا إله إلاَّ الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات، التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض.

وقد ورد في فضل هذه الكلمة وبيان عظم مكانتها عند الله وما يترتّب عليها من أجر وثواب نصوصٌ خاصة عن رسول الله ﷺ، منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فكنا إذا علونا كبّرنا، وفي رواية: فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط في واد إلاَّ رفعنا أصواتنا بالتكبير، فقال النبي ﷺ: ((أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً بصيراً))، ثم أتى عليَّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله فقال: ((يا عبد الله بن قيس، قل: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله فإنَّها كنزٌ من كنوز الجنة))، أو قال: ((ألا أدلُّك على كلمة هي كنزٌ من كنوز الجنة؟ لا

حول ولا قوة إلاَّ بالله »[١].

قال بعض أهل العلم في التعليق على هذا الحديث: « كان عليه السلام معلِّماً لأمته فلا يراهم على حالة من الخير إلاَّ أحبَّ لهم الزيادة، فأحب الذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتكبير أن يضيفوا إليها التبري من الحول والقوة فيجمعوا بين التوحيد والإيمان بالقدر، وقد جاء في الحديث: « إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، قال الله: أسلم عبدي واستسلم »، رواه الحاكم بإسناد قال عنه الحافظ ابن حجر:
« قوي »»[٢].

وفي رواية: « ألا أدلُّك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة؟ تقول: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فيقول الله ﷻ: أسلم عبدي واستسلم » رواه الحاكم وقال: « صحيح ولا يحفظ له علة » ووافقه الذهبي.

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن حبان وغيرهم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ ليلة أسري به مرَّ على إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام فقال: « يا محمد مُرْ أمَّتك أن يكثروا من غراس الجنة، قال: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله »[٣].

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٣٨٤،٤٢٠٥)، وصحيح مسلم (رقم:٢٧٠٤).

(٢) فتح الباري (١١/ ٥٠١).

(٣) المسند (٥/ ٤١٨)، وصحيح ابن حبان (الإحسان) (رقم:٨٢١).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: ((أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلاَّ بالله فإنَّها كنزٌ من كنوز الجنّة))[١].

وروى أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم عن قيس بن سعد بن عبادة أنَّ أباه دفعه إلى النبي ﷺ يخدمه قال: فمرَّ بي النبي ﷺ وقد صلّيت فضربني برجله وقال: ((ألا أدلُّك على باب من أبواب الجنة؟ قلت: بلى، قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله))[٢].

فهذه بعض الأحاديث المشتملة على بيان فضل هذه الكلمة العظيمة وما يترتّب عليها من أجور عظيمة وخيرات جليلة وفوائد متنوعة في الدنيا والآخرة، وقد نظم ابن العراقي رحمه الله جملة من الفضائل الواردة لهذه الكلمة في أبيات لطيفة فقال:

يا صاح أكثر قول لا حول ولا ... قوة إلاَّ فهي للداء دوا
وإنَّها كنزٌ من الجنَّة يا ... فوز امرئ لجنّة المأوى أوا
له يقول ربنا أسلم لي ... عبدي واستسلم رضياً هوا

وأنشد أيضاً لنفسه:

تبرّأ من الحول والقوة ... تنل أيَّ كنز من الجنة
وسلِّم أمورك لله كي ... تبيت وتُصبحَ في جنَّة
ولا ترج إن مسَّ خطب سوى ... إلهك ذي الفضل والمنَّة
وواظب على الخير واحرص على ... أداء الفرائض والسنة

---

(١) المسند (٢/ ٣٣٣)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم:٢٥٢٨).
(٢) المسند (٣/ ٤٢٢)، والمستدرك (٤/ ٢٩٠)، وانظر: الصحيحة (٤/ ٣٥ ـ ٣٧).

وكن سالم الصدر للمسلمين من غلٍّ وحقدٍ ومن ظنَّةٍ(١)

فنسأل الله الكريم أن يوفِّقنا لكلِّ خير يحبُّه ويرضاه، وأن يقينا من الزَلَل في القولِ والعمل، فلا حول لنا ولا قوة إلاَّ به، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

❁❁❁

(١) انظر: فضل لا حول ولا قوة إلاَّ بالله لابن عبد الهادي (ص:٤٠،٣٩).

٥٥ / حقيقة لا حول ولا قوة إلاَّ بالله

تقدّم الكلامُ على فضل قول: « لا حول ولا قوة إلاَّ بالله » تلك الكلمة العظيمة ذاتِ المعاني الجليلة والدلالات العميقة، وقد تنوّعت الأحاديث في الدلالة على تشريف هذه الكلمة وتعظيمِها، حيث أخبر صلوات الله وسلامه عليه أنَّها من أبواب الجنّة، وأنَّها من كنز تحت العرش، وأنَّها غِراس الجنَّة، وأنَّها من الباقيات الصالحات التي ينبغي للعبد أن يستكثر منها، ومرَّ معنا أيضاً أمر النبي ﷺ بالإكثار من قول: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، وكلُّ هذا يدلُّ بجلاء على عِظم فضل هذه الكلمة ورِفعة شأنها، وأنَّها كلمةٌ عظيمةٌ جليلةٌ ينبغي على المسلمين أن يعنوا بها وأن يكثروا من قولها، وأن يعمروا أوقاتهم بكثرة تردادها لعِظم فضلها عند الله، ولكثرة ثوابها عنده، ولما يترتَّب عليها من خيرات متنوّعة، وأفضال متعدّدة في الدنيا والآخرة.

ومن الأمور اللازمة في هذا الباب والمتأكّدة على كلِّ مسلم أن يفهم مدلولَ هذه الكلمة ومعناها؛ ليكون ذكره لله بها عن علم وفهم وإدراكٍ لمدلول ما يذكر اللهَ به، أمَّا أن يردِّد المسلم كلاماً لا يفهم معناه، أو ألفاظاً لا يدرك مدلولها، فهذا عديمُ التأثير ضعيفُ الفائدة، ولهذا فإنَّه لا بدَّ على المسلم في هذا الذّكر، بل وفي كلِّ ما يذكر الله به أن يكون عالماً بمعنى ما يقول، مدركاً لمدلوله؛ إذ بذلك يؤتي الذّكرُ ثمارَه، وتتحقّقُ فائدتُه، وينتفع به الذاكر، وقد تقدّم معنا قولُ النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: « ألا أدلُّك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنَّة؟ تقول: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله،

فيقول الله ﷻ: أسلم عبدي واستسلم »[١].

فهي كلمة إسلامٍ واستسلامٍ، وتفويض وتبرّؤ من الحَول والقوَّة إلاَّ بالله، وأنَّ العبدَ لا يملك من أمرِه شيئاً، وليس له حيلةٌ في دفعِ شرٍّ، ولا قوّةٌ في جلبِ خيرٍ إلاَّ بإرادة الله تعالى. فلا تحوّل للعبد من معصية إلى طاعة، ولا من مرض إلى صحة، ولا من وهنٍ إلى قوة، ولا من نقصان إلى كمال وزيادة إلاَّ بالله، ولا قوَّة له على القيام بشأن من شؤونه، أو تحقيق هدفٍ من أهدافه أو غاية من غاياته إلاَّ بالله العظيم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فأزمَّةُ الأمور بيده سبحانه، وأمورُ الخلائق معقودة بقضائه وقدره، يصرفها كيف يشاء ويقضي فيها بما يريد، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء، على الوجه الذي يشاء من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدّم ولا تأخر، له الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النِّعمة والفضل، وله الثناء الحسن، شملت قدرتُه كلَّ شيء، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ}[٢]، {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ}[٣]، ومن كان هذا شانه فإنَّ الواجبَ الإسلامُ لألوهيته، والاستسلامُ لعظمته، وتفويض الأمور كلِّها إليه، والتبرؤُ من الحول والقوة إلاَّ به، ولهذا تعبّد اللهُ عبادَه بذكره بهذه الكلمة العظيمة التي هي باب عظيم من أبواب الجنَّة وكنز من كنوزها.

---

(١) تقدّم (ص:٢٩٨).

(٢) سورة يس، الآية (٨٢).

(٣) سورة فاطر، الآية (٢).

فهي كلمةٌ عظيمةٌ تعني الإخلاص لله وحده بالاستعانة، كما أنَّ كلمةَ التوحيد لا إله إلا الله تعني الإخلاص لله بالعبادة، فلا تتحقق لا إله إلا الله إلاَّ بإخلاص العبادة كلِّها لله، ولا تتحقّق لا حول ولا قوة إلاَّ بالله إلاَّ بإخلاص الاستعانة كلِّها لله، وقد جمع الله بين هذين الأمرين في سورة الفاتحة أفضل سورة في القرآن وذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فالأول تبرؤٌ من الشرك، والثاني تبرؤٌ من الحول والقوة والتفويض إلى الله ﷻ، والعبادة متعلّقة بألوهية الله سبحانه، والاستعانة متعلّقة بربوبيّته، العبادةُ غاية، والاستعانة وسيلة، فلا سبيل إلى تحقيق تلك الغاية العظيمة إلاَّ بهذه الوسيلة: الاستعانة بالله الذي لا حول ولا قوة إلاَّ به، ولهذا يخطئ من يستخدمها في غير بابها، أو يجعلها في غير مقصودها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وذلك أنَّ هذه الكلمة (أي: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله) هي كلمة استعانة لا كلمة استرجاع، وكثيرٌ من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً »[١].

وعلى هذا المعنى المُشار إليه يدور فهمُ السلف رحمهم الله لهذه الكلمة العظيمة، أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في « لا حول ولا قوة إلاَّ بالله » قال: « لا حول بنا على العمل بالطاعة إلاَّ بالله، ولا قوة لنا على ترك المعصية إلاَّ بالله ».

وأخرج أيضاً عن زهير بن محمد أنّه سئل عن تفسير « لا حول ولا قوة إلاَّ بالله »، قال: « لا تأخذ ما تحبُّ إلاَّ بالله، ولا تمتنع مما تكره إلاَّ بعون الله

(١) الاستقامة (٢/ ٨١).

»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وقول: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله يوجب الإعانة؛ ولهذا سنَّها النبي ﷺ إذا قال المؤذِّن: حي على الصلاة، فيقول المجيب: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فإذا قال: حي على الفلاح، قال المجيب: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، وقال المؤمن لصاحبه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[2]، ولهذا يُؤمر بهذا من يخاف العين على شيء، فقوله: ما شاء الله، تقديره: ما شاء الله كان، فلا يأمن، بل يؤمن بالقدر، ويقول: لا قوة إلاَّ بالله، وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه المتفق عليه أنَّ النبي ﷺ قال: « هي كنز من كنوز الجنَّة »، والكنز مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع، وذلك أنَّها تتضمّن التوكّل والافتقار إلى الله تعالى، ومعلوم أنَّه لا يكون شيء إلاَّ بمشيئة الله وقدرته، وأنَّ الخلق ليس منهم شيء إلاَّ ما أحدثه الله فيهم، فإذا انقطع القلب للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذي لا يأتي بها إلاَّ هو ... ولهذا يأمر الله بالتوكّل عليه وحده في غير موضع، وفي الأثر: « من سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله، ومن سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده » » اهـ[3].

ولا ريب أنَّ أنفعَ الدعاء وأفضلَه للعبد هو طلبُه من الله العونَ على

---

(1) أوردهما السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).

(2) سورة الكهف، الآية (٣٩).

(3) الفتاوى (١٣/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

مرضاته والتوفيقَ لطاعته، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ لِحِبِّه معاذ ابن جبل رضي الله عنه فقال: « يا معاذ، والله إني لأحبُّك، فلا تنسَ أن تقول دُبر كلِّ صلاة: اللَّهمَّ أَعِنِّي على ذكرِك وشكرك وحسن عبادتك »، وهذه كلمة استعانة كما هو الشأن في قول لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، استعانةٌ بالله لتحقيق أفضل الغايات وأجلِّ المطالب على الإطلاق، عبادة الله سبحانه التي أوجد الخلقَ لتحقيقها، وخُلقوا للقيام بها، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « تأمَّلتُ أنفعَ الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} »[1].

فاللّهمَّ إيَّاك نعبد ولك نصلِّي ونسجد وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتَك ونخاف عذابك، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك، فلا تكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقلَّ من ذلك، أنت ربُّ العالمين وإله الأولين والآخرين، لا إله إلاَّ أنت نستغفرك ونتوب إليك.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٧٨).

فهرس الموضوعات

- **تقديم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز**
- **مُقَدِّمَة** ٥
- أهميّةُ الذِّكر وفضله ١١
- مِن فوائد الذِكر ١٧
- فوائدُ أخرى للذكر ٢٣
- فضلُ مجالس الذكر ٢٨
- ذِكرُ الله هو أزكى الأعمال وأفضلُها ٣٣
- فضلُ الإكثار من ذكرِ الله ٣٩
- تنوّع الأدلّة الدّالة على فضل الذِّكر ٤٥
- ذمُّ الغفلة عن ذكرِ الله ٥٢
- من آداب الذِّكر ٥٧
- أفضلُ الذِّكر القرآن الكريم ٦٢
- نزول القرآن في شهر رمضان ٦٧
- المطلوب من القرآن فهمُ معانيه والعمل به ٧٣
- آدابُ حملة القرآن ٧٩
- تفاضلُ سوَر القرآن، وفضل سورة الفاتحة ٨٤
- فضل آية الكرسي، وسورة الإخلاص، وسُوَر أخرى ٨٩
- وَسَطيَّةُ أهلِ القرآن ٩٤
- أفضليَّةُ القرآن على مجرَّدِ الذِّكر ٩٩

- فضلُ طلب العلم ١٠٤
- أركانُ التعبّد القلبيَّة للذكر وغيره من العبادات................ ١٠٩
- ذكرُ الله بذكرِ أسمائه وصفاته ١٢٤
- أهمّيَّةُ العلم بأسماء الله وصفاته.................... ١١٩
- اقتضاء الأسماء والصفات لآثارها من العبوديّة لله............ ١٢٣
- العلمُ بأسماء الله وصفاته ومنهج أهل السنة في ذلك ١٢٨
- وصفُ أسماء الله بأنَّها حسنى ومدلول ذلك.................. ١٣٣
- التحذير من الإلحاد في أسماء الله ١٣٨
- تدبّرُ أسماء الله وصفاته وعدم تعطيلها وعِظم أثر ذلك على العبد ١٤٢
- أسماءُ الله الحسنى غيرُ محصورة بِعددٍ معيَّنٍ وبيانُ المراد بقوله: ((مَنْ أحصاها دخل الجنّة)) ١٤٦
- تفاضلُ الأسماء الحسنى، وذكرُ الاسم الأعظم.................. ١٥١
- فضائل الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر ١٥٦
- فضائل أخرى لهؤلاء الكلمات الأربع...................... ١٦١
- فضائل كلمة التوحيد لا إله إلاّ الله ١٦٧
- فضائلُ أخرى لكلمة التوحيد لا إله إلاّ الله ١٧٣
- شروط لا إله إلاّ الله ١٧٩
- مدلولُ ومعنى كلمة التوحيد لا إله إلاّ الله ١٨٥
- نواقض شهادة أن لا إله إلاّ الله ١٩١

- بيان فساد الذِّكر بالاسم المفرد مظهَراً أو مضمَراً ١٩٦
- فضل التسبيح ٢٠١
- من فضائل التسبيح في السنة ٢٠٧
- تسبيحُ جميع الكائنات لله ٢١٣
- معنى التسبيح ٢١٩
- فضلُ الحمدِ والأدلَّةُ عليه من القرآن الكريم ٢٢٥
- الأدلّة من السنة على فضل الحمد............................ ٢٣١
- المواطن التي يتأكّد فيها الحمد ٢٣٧
- أعظم موجبات الحمد العلم بأسماء الرب وصفاته ٢٤٣
- حمد الله على نعمه وآلائه..................................... ٢٤٩
- حمدُ الله هو أفضلُ النِّعَم....................................... ٢٥٥
- أفضلُ صِيَغِ الحمد وأكملُها ٢٦٠
- تعريفُ الحمد، والفرقُ بينه وبين الشكر.......................... ٢٦٤
- فضل الشكر ٢٦٩
- حقيقة الشكر ومكانته عند السلف............................. ٢٧٥
- فضل التكبير ومكانته من الدِّين................................ ٢٨٠
- معنى التكبير وبيان مدلوله ٢٨٥
- التلازم بين الكلمات الأربع.................................... ٢٩٠
- فضل لا حول ولا قوة إلاَّ بالله................................. ٢٩٥
- حقيقة لا حول ولا قوة إلاَّ بالله................................ ٣٠١
- فهرس الموضوعات ٣٠٧